دار الشروق

عبد الرحمن الشرقاوي

ابن تيمية
الفقيه المعذب

حلمي التوني




ابن تيمية
الفقيه المعذب

طبعة دار الشـروق الأولى
١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

© دار الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤
برقيا : شروق - تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
برقيا : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE

عبد الرحمن الشرقاوي



دار الشروق

الغلاف للفنان حلمي التوني

الفصل الأول

عـاش حياة منتقضـة متوتـرة من المعارك المتصلة. . حـارب فيهـا بالقلم، وباللسان، وحتى بالسيف نفسه!

كانت معاركه تهدأ في بعض الاحايين، ولكنها لم تنقطع عنه قط!

وهي حتى اذا توقفت، أثارها هو بنفسـه من خلال رأي يخـالف به ما ألفه الناس، أو حدة يصدم بها أحد مجادليـه، أو حملة يشنها على ما يراه بدعة أو مخالفاً للسنة . .

وما أكثر ما شاعت البدع والخروج على السنة في ذلك الزمان . . !

اي عصر غريب ذلك العصر الذي تحداه، واستنفره . . !

ولد أحمد تقي الدين عام ٦٦٠ هـ في مدينة حران بسوريا. . وفي السـابعة من عمـره أغار التتـار على المدينـة، فهـاجـرت أسـرتـه الى دمشق، حيث استقر بها المقام . .

امتـلأت نفس الصغير بـاحساس مـرير بـالقهر والغيظ، وهـو يـرى صفوفاً مضطربة من النساء والاطفال والرجال، يفرون مذعـورين أمام زحف التتار: الاحمال على الظهور والاجسـاد يدفـع بعضها البعض،

والمرضى يتساقطون.. وعويل النساء وصرخات الاطفال ملء الآذان.. وفي القلوب رعب هائل من التتار الزاحفين بكل شراسة وحشيتهم، واشفاق حزين من المجهول!

وأقسم الصبي انه حين يكبر لن يسمح بأن يحدث هذا أبداً..!

وضرب بذراعه الصغيرة المنهكة الهواء في تحد، وهو يعاهد نفسه، على أن يشهر السيف والقلم واللسان، ويناضل لكي ترتفع هامة الانسان، ولكيلا تنهش وحوش الغزاة لحوم الأطفال، ولكي ينقذ الرجال والنساء والحياة من الهوان!

وكان أبوه رجل علم يدرس للناس الفقه الحنبلي في حران حتى أصبح شيخها.. ولقد استمع أحمد تقي الدين الى بعض الدروس التي كان يلقيها أبوه، وبهره الفقه وما يضيء به العلم نفوس الرجال!

ولكنه وهو في الطريق من حران الى دمشق يكاد يخنقه الزحام وتدوسه الأقدام الفارة المرتعدة أخذ يفكر في جدوى كل الكلمات..

ما جدوى العلم، والفقه، وكل الكلمات، ان لم تستطع أن تنتشل الانسان، وتحمي شرف الحياة؟!

ما جدوى كل شيء ان كان الذعر يطارد الأمن، والباطل يغشي الحق بدخان البارود والبهتان؟!

ان الصبي ليشعر في أغوار نفسه، أنه يريد أن يهدم كل ما حوله، ليبنيه من جديد.. فليبن عالماً جديداً جديراً بأن يعيش فيه الناس غير مروعين..

عندما يشتد عوده لن يسكت على باطل أو ظلم . .

وحين يعمر قلبه بالعلم الذي يحمله أبوه وكان يحمله جده من قبل . . هذا العلم الذي تحتويه الاسفار وهي أعز ما حملته الأسرة المهاجرة من متاع . .

عندها سيجعل الكلمات في مضاء السيوف!

* * *

وفي دمشق بدأ أبوه يدرس في أكبر مدارسها، وكانت شهرته قد سبقته.

والحق ابنه أحمد تقي الدين بمكتب (كتاب) يحفظ فيه القرآن، ويتلقى مبادىء اللغة والحساب والخط . .

تعهده أبوه ولم يكتف بما يتلقاه ابنه في الكتاب.

واشتهر الصبي بين أقرانه بالذكاء، وسرعة البديهة، وقوة الحافظة، وشاع عنه أن له حافظة خارقة، حتى أن أحد مشايخ العلماء بحلب قدم الى دمشق وقال: «سمعت في البلاد بصبي بقال له أحمد بن تيمية، وانه سريع الحفظ، وقد جئت قاصداً لعلي أراه» قال له خياط: «هذه طريق كتابه، وهو الى الآن ما جاء، فاقعد عندنا الساعة يجيء» فجلس الشيخ الجليل قليلاً، فمر صبيان فقال الخياط للشيخ الحلبي: «هذا الصبي الذي معه اللوح الكبير هو أحمد بن تيمية» فناداه الشيخ فجاء اليه، فتناول الشيخ اللوح، فنظر فيه، ثم قال: «يا ولدي أمسح هذا حتى أملي عليك شيئاً تكتبه» ففعل. فأملى عليه من

متون الاحاديث أحد عشر أو ثلاثة عشر حديثاً، فقال: «اقرأ هذا» فلم يزد على أن تأمله مرة بعد كتابته اياه، ثم رفعه اليه، وقال: «اسمعه» فقرأه عليه. فقال الشيخ يا ولدي: «أمسح هذا» ففعل، فأملى عليه عدة أسانيد انتخبها ثم قال: «اقرأ هذا» فنظر فيه كما فعل أول مرة. فقام الشيخ وهو يقول: «ان عاش هذا الصبي ليكونن له شأن عظيم. فان هذا لم ير مثله».

***

وفي الحق ان أحمد تقي الدين بن تيمية ورث الموهبة والعلم عن أبيه شهاب الدين عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، وعن جده مجد الدين ابي البركات عبد السلام بن عبدالله ابن تيمية الحراني شيخ الاسلام.. وكانت أمه تيمية امرأة متفقهة في الدين، تعظ النساء والرجال، وكانت غزيرة العلم، فانتسبت اليها الأسرة: ابنها مجد الدين الذي أصبح شيخاً للاسلام، ثم ابنه عبد الحليم، ثم حفيده تقي الدين.

وكانت ام تقي الدين تهتم بدراسته، كما كان يهتم أبوه.. وكانت تعنى بملبسه ومأكله، وبأن يبدو حسن الهيئة بين أترابه من صبيان الكتاب، كما كان يفوقهم علماً وذكاء، وكانت تدارسه فيما يتلقاه بالكتاب.

ولقد عني به أبوه، فأحفظه كثيراً من الآثار، ودفعه الى دراسة علوم اللغة العربية وآدابها، فحفظ منذ نضارة صباه كثيراً من الأشعار..

وفتح له أبوه خزانة كتبه التي اشتراها والتي ورثها من أبيه شيخ

الاسـلام، وكانت تضم الى القرآن الكريم كل كتب التفسير، والحديث وعلوم اللغة وآدابها، والسير والتصوف، والتاريخ، وعلوم الفقه، والاحياء، وعلوم الفلسفة، والكلام، والفلك وسائر ما صنفه السلف ودونوه وترجموه في كل ألوان المعرفة مما ورثه عصر ابن تيمية . .

وكان الصبي حين يعود من الكتاب لا يلعب مع غيره من الصبيان، بل يعكف على مكتبة أبيه يقرأ ويحاول أن يفهم فان استعصى عليه أمر سأل أمه، فان لم تسعفه انتظرا حتى يعود أبوه فسألاه . . فيشرح الأب ويسترسل، وينتقل به من فن الى فن . . يفسر له القرآن بالقرآن أو بالحديث، ويثير هذه المسألة الفقهية أو تلك، ثم يطوف به في شرح معاني الألفاظ على ما تركه الأولون من شعر وآثار، ويتوقف به عند مسألة من مسائل النحو، أو نكتة بلاغية، أو قضية فلسفية . .

وخلال هذه الرحلات الفكرية، يثير خيال الصبي، ويغريه بالتأمل والقراءة والحفظ، ويستنفره الى الحوار، ويعلمه مقاطع الحجج والبراهين، ويشحذ عقله ويدربه على فنون الاقناع والمناظرة . . وشب الصبي عن الطوق، وأنهى الدراسة بالكتاب، فألحقه أبوه بالمدرسة، وأخذه الى مجالس العلماء، وشجعه على مناظرة الكبار . .

* * *

كان أبوه قد أصبح شيخاً للحديث في دمشق، وله المكانة الاولى في أكبر مدرسة بها، وقد لقن ابنه فقه أحمد بن حنبل حتى اتقنه،

وظل به حتى أتقن تفسير القرآن، وحفظ كثيراً من الأحاديث النبوية، ثم درس فقه الائمة الأربعة، وأصول الفقه في شتى المذاهب، ودرس فقه الشيعة، ووجهه الى دراسة الفلسفة وآراء المدارس الفكرية المختلفة..

ثم رأى أبوه أن يدربه على الفتيا، وكان تقي الدين يقترب من العشرين، فأفتى على عين أبيه، وشجعه أبوه، فقد كانت الفتاوى صائبة.. وظل به يتعهده ويناقشه في فتاواه، حتي اطمأن عليه، فتركه يفتي وحده.

وأعجب العلماء من أصدقاء أبيه بغزارة علم الشاب، وعمق نظره، وحسن استدلاله..

غير أن أباه لاحظ فيه حدة عند الجدل، فنصحه أن يعدل عن حدته، فالحدة في الجدل تولد الخصومة، وتثير عناد المجادل وتضيع الحقيقة التي هي هدف المناظرة الشريفة.

غير أن تقي الدين كانت تأخذه الحمية لما يعتقد أنه الحق، فلا يبالي بمن يجادله.

وهو في حدته قد يخدش وقار عالم أكبر منه سناً، فيوغر عليه صدر هذا العالم أو ذاك..

ولقد علم أبوه أنه جادل عالماً من خصوم الفقه الحنبلي، وكان ذلك العالم متحيزاً لمذهب الشافعي وآراء الأشعري. فأخطأ العالم، ولكن حدة تقي الدين استفزت العالم، فظل يدافع عما هو خطأ، فقال تقي الدين للعالم: «انه للعناد أو الجهل بالسنة!».

كـان العالم في نحـو الخمسين من عمـره وتقي الـدين قـد جـاوز العشرين بشهور. .

وروع أبـوه ونهره قـائلاً: «أتقـول لعالم أسن منـك: هـذا عنـاد أو جهل؟ فهذا منك قلة أدب وان كنت على الصواب».

فبكى الفتى، وقام يقبل يد أبيه ورأسه. وذهب الى العالم في بيتـه يعتذر له عما بدر منه، واسترضاه حتى رضي.

وعاد تقي الدين الى المنزل، فحكى لأمه ما كان، وجـاشت نفسه من الندم، فبكى على كتفها شاكياً من الحـدة التي تعتريـه كلما أحس أن غيره يتمسك بالخطأ، فتنفلت على الرغم منه كلمات تجرح!!..

وطيبت أمـه خاطـره، وعاد أبـوه الى المنزل فنصـح لـه أن يجـادل الناس بالتي هي أحسن، وأن يدعو الى سبيل ربه بالحكمة والمـوعظة الحسنـة، فهذا هـو ما أمـر به الله ورسـوله.. وهكـذا كان الـرسول، وعلى سنته سار الامام أحمد..

وتعهد الفتى لأبيه وأمه، أن يكون كما يحبان لـه، وأن يلتزم السنـة فيجادل بالتي هي أحسن..

ثم مات أبوه..!

وها هو ذا فتى ربعة لا بالطويل ولا بـالقصير، متين البنيـان، مهيب الطلعة، أبيض الوجه، شـديد سـواد الرأس واللحيـة، ينسدل شعـره الى شحمتي أذنيـه، جهيـر الصـوت، بعيـد مـا بين المنكبين، لامـع العينين كأن عينيه لسـانان نـاطقان، تعتـريه الحـدة فيقهرهـا بالحلم،

فصيح اللسان، نشيط الحركة في وقار، على سماته مخايل الذكاء والجد من غير ما عبوس، وفي وجهه البشاشة، ولقد تغشاه على الرغم من ذلك سحابات الهموم!.

ها هو ذا يجد نفسه مطالباً في منزله بأن يعوض أمه عن فقد رفيق عمرها وشيخها..

وكان تقي الدين في الحق برا بوالدته، وعلى الرغم من شموخه امام الآخرين، فقد تعود أن يخفض لها جناح الذل من الرحمة..

ها هو ذا الفتى في الحادية والعشرين، يجد نفسه في مكان عالم جليل، هو أبوه.. وعليه أن يملأ الفراغ في مدرسة الحديث، وفي الجامع الأموي بدمشق، حيث كان والده يلقي الدروس.. غير معتمد على أوراق، ويترسل ترسلاً يذهل الحاضرين بأنصع بيان وأفصح لسان..

أيمكن أن ينهض بما كان ينهض به أبوه وجده من قبل.. وأن يجلو للطلاب دقائق الفقه الحنبلي، وأن ينافح عن السنة، وأن يحارب البدع بالحجة البينة والموعظة الحسنة كما كان يفعل أبوه شيخ الفقه الحنبلي!؟

انه ليشعر أن عليه فوق هذا كله أن يحارب الظلم، وأن يدافع عن لمظلومين، فقد تعلم فيما قرأ على أبيه من أقوال الامام أحمد بن حنبل أن من حفظ حديثاً ولم يعمل به فقد خالف الرسول.

وقد حفظ فيما حفظ من السنة حديثاً شريفاً يقول: «ان الناس اذا أوا الظلم فلم يأخذوا على يديه، أوشك أن يعمهم الله بعقابه».

وحديثاً شريفاً آخر جاء فيه: «لتأمرون بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم».

وقرر أن يشرع من فوره بالعمل بهذين الحديثين الشريفين، تحت راية حكمة يحفظها عن الامام علي «لا تعرف الحق بالرجال، بل أعرف الحق بأهله» . . وانه لينظر فيما حوله من شئون الحياة والناس فيتذكر ما يحفظه عن عمر: «اللهم اني أشكو اليك جلد الفاجر وعجز الثقة».

ولكن الحياة لن تصفو للناس، ولن ينتصر فيها الحق والخير حتى يعجز الفجرة، ويصبح الثقات هم أهل الجلد! .

وهو نفسه لن يستطيع أن يأخذ على يد الظالم، ولن يصغي أحد الى دعوته للمعروف ونهيه عن المنكر، حتى يكون قد حصل من العلوم ما يقنع الناس بهيبته وصحة رأيه، ويعوض صغر سنه . . وهذه الامة لن تلقي الرعب في قلوب الأعداء فلا يعدون عليها بعد، الا أن قويت أجسام شبابها، وصلح ايمانهم، وصحت في عقولهم أصول الدين وقيمه.

لا بد لكي ترتقي هذه الأمة أن تعيش في سياج من الأمن والعدل . . يجب أن يحشد كل طاقاته ويعمل لكيلا يتعذب أطفال آخرون وآباء وأمهات وشيوخ عجائز، كما تعذب هو في قبضة الذعر وكما تعذب سائر الفارين من حران الى دمشق أمام غزو التتار . . !

وعكف على القرآن والأحاديث يدرس ما أمر الله به المسلمين من

تربية النفس على مكارم الأخلاق لتتهذب، وتربية الجسم على العافية ليقوى. . ونظر في الآثار حين كان المسلمون قوة يرهبها أعداء الاسلام، فصح عنده أن من الصحابة الأوائل من كانوا أئمة للهدى وفرسان الوغى في آن واحد. . ووجد أن أكثر الصحابة تقوى وأوفرهم علماً كانوا هم أقواهم ساعداً، وقد حققوا الانتصارات في زمن الرسول عليه الصلاة والسلام، وفي عهد الخلفاء الراشدين. . هكذا كان أبو بكر وعمر وعلي وبلال وأبو عبيدة رضي الله عنهم. .

ووجد أن الرسول ﷺ كان يأمر صحابته بأن يعلموا أولادهم فنون الرياضة لتصلح أبدانهم، وليتقووا بها في الجهاد دفاعاً عن دين الله.

وكان هو نفسه قد تعلم كل ألوان الرياضة التي أمر بها الرسول. . ولكنه حين انشغل بطلب العلم، وأكب عليه، لم يعد لديه من الوقت ما يكفي لممارسة الرياضة، فعاد يمارسها، ويدعو الشباب الى تعلم الفروسية والرماية والسباحة والمصارعة والجري. . فقد كان النبي عليه الصلاة والسلام وصحابته وأبناؤهم يتقنون فنوناً كثيرة من الرياضة البدنية، ويؤثر عن النبي، ﷺ، انه كان يتقن ركوب الخيل، ورياضة الجري، والرماية، وهو أشرف المرسلين وسيد الخلق، وحامل الرسالة، وأعلم الناس وأورعهم وأتقاهم. . وما ضيعت الرياضة منه وقته المخصص للهداية وابلاغ الرسالة. . وقد أمر الله المسلمين بأن يكون لهم في رسول الله أسوة حسنة. .

ظلت فكرة الاهتمام بالرياضة تجذب انتباهه، حتى لقد أفتى عندما تقدم به العمر أن الرياضة ثلاث:

أولها ما أمر به الله ورسـوله لأنهـا تقوي المسلمين في الجهـاد مثل تعلم المبارزة والرماية وركـوب الخيل، وأدوات الحـرب المتاحـة في كل عصر. لأن هذه الألوان من الرياضة يحتاج اليها أمر حماية الـدين والأمة.

وثانيها ما نهى عنه الله ورسوله مثل الميسر.

وثالثها ما لم يأمر به الله ورسـوله لعـدم احتياج الـدين، ولم يجيء نهي عنـه اذ لا مفسدة فيهـا، فهي مباحـة، وبعضهـا كـان الـرسـول ﷺ يمارسه كرياضة المصارعة والجري.

وقسم ابن تيميـة وقتـه بين الـريـاضـة، والتـدريس، والقـراءة، والكتابة..

كان يجهد نفسه، حتى لقد كانت أمه تنهض الليل لتنصحه مشفقـة عليـه بأن يستـريح، فكـان يهش في وجهها، ويـذكرهـا بقول الامـام أحمـد: «مع المحبـرة حتى المقبرة».. ثم يشـرح لها مـا ينتـظره من مهمات جسام يجب أن يسلح لها عقله بالعلم، وجسمه بالقوة..

لكأنه يشعر في أعماقه أنه مسئـول عن اصلاح كـل مظالم ومفـاسد عصره.. فعلى الرغم من كثرة العلماء والفقهـاء لم يتصد للمهمـة الا أقل من القليل..!

ويا لها من مهمة.. ويا له من عصر!

***

كانت الدولة الاسلامية قد تمزقت الى دويلات، وكان التتار ـ على

الرغم من هزيمتهم في عين جالوت قبل ان يولـد ابن تيمية ـ مـا زالوا يغيـرون على الشام . . والصليبيـون ما زالـوا يحلمـون بـامتـلاك أرض المسلمين . .

والعصـر مليء بـالفسـاد: فـالـولاة يـرتشـون، ولا يؤدون الأمـانـة ويبطشون بمن يقاومهم، ومن العلماء من ينافقهم طمعاً في العـطاء!! وما عاد رجـال كالعـز بن عبد السـلام يفرض عليهم هيبـة الدين، ولا كالنووي ينصح الحاكم فاذا رفض الحاكم نصيحته جابهه بأنـه مملوك ينهب ما ليس له، وعليه أن يذعن لـرأي أهل التقـوى . . السلطان . . والجمود يبسط سلطانه على العقول، فلا أحـد يفكر خـارج المذاهب الفقهية المتوارثة، وكل حزب يتعصب لمذهبـه ويقلد السلف، ويكيد كل واحد لأخيه . .

دور اللهو والفساد والخمارات أصبحت أكثر عدداً من المدارس . . والمشعوذون المنتسبون الى الصوفية يبهرون العامـة بفنون الشعـوذة، ويؤثرون عليهم، ويشيعون الفساد .

الأمراء وكلهم من المماليـك المجلوبين لهم قانـون سري خـاص غير الشريعة الاسلامية، توارثوه عن جنكيزيان!! . .

الـدويلات الاسـلامية تتـطاحن فيما بينهـا، وبعض أصحاب هـذه الولايات يمالىء التتار أو الفرنج الصليبين ويـظاهرهم على بني وطنـه المسلمين! ومن الشباب من يرخي الشعر تشبهاً بـالنساء، ومن الـذين ينتسبـون الى علوم الـدين من يحلل الحـرمـات، ومنهم من يمـارس المجون،حتى يفتضح أمره،فيضطر قاضي القضاة الى الحكم باعدامه .

وبعض المنتسبين الى الصوفية يزعم أنه قد اتحد في الله فرفع عنه التكليف، فلا ينهض لأداء أركان الاسلام.. لا صلاة ولا صيام ولا زكاة! بل يستبيح المحرمات وتعاطي الحشيش!!

والحياة العقلية زاخرة بكل ما لا يرضاه ابن تيمية: فنفوذ المتصوفة قد أصبح هائلاً، وأصبح من الحكام من لا يخرج عن أمرهم، حتى لقد شكا بعض أحد المنتسبين الى التصوف كان يعظ الناس فيلحن لحناً فاحشاً... ويصدر السلطان اليه أمراً بالامتناع عن الخطابة والوعظ، فيهدده الرجل!.. ويقع السلطان تحت تأثير التهديد حتى اذا خلا بنفسه، خيل اليه أن أسداً ينقض عليه ليفترسه، فيعيد الرجل الى الوعظ والخطأ..

ومخالفو مذهب الامام أحمد من المتعصبين لغيره من المذاهب الكلمة العليا.

ودارسو الفلسفة ينشرون آراءهم، ويريدون أن يستدلوا على الدين بأدلة الفلسفة.. وهذا في رأي ابن تيمية ليس من السنة، ولا مما جاء به الصحابة والتابعون.. فما كانوا قد عرفوا منطق أرسطو، وكان كل شيء بخير كما يرى ابن تيمية، قبل أن ينهض أصحاب الفلسفة، فيقيموا أدلتهم الدينية، بأدوات من منطق أرسطو..

والعامة في يأسهم من العدل، يلتمسون العدل والبركة من أضرحة الأولياء.. حتى اتخذوا صخرة يتبركون بها، وحتى لقد كانوا يقدمون المظالم مكتوبة الى أضرحة الأولياء والصالحين.

وبعض المنتسبين الى الشيعة، يتعاطون الحشيش ويعتصمون

بالجبال. . وما زالوا يؤلهون الامام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

وما زال هذا الضلال قائماً في بعض جبال سوريا، على الرغم مما صنعه الامام علي مع أسلافهم. . اذ استتابهم فلم يتوبوا، فجاهدهم كما يجاهد الكفار، وحين ظفر بهم أعدم منهم من لم يتب الى الله ويرجع الى الاسلام. .

وهناك خصوم آخرون يراهم خارجين على السنة فهم يؤولون آيات القرآن الكريم، وينكرون أن الله يستوي على العرش، وأنه ينزل من السماء، وأن له يداً وعيناً كما جاء في القرآن. . ويزعمون أن فهم الآيات بظاهرها تشبيه لله تعالى بالانسان وهو منزه عن التشبيه!!

واذن فالرجل مطالب بأن يستزيد من العلم، وبأن يدرس ويدرس ويتأمل ويتدبر، ويتقن أدوات الجدال، ويستوعب براهين الفلاسفة وأدلتهم، وطرائق أهل الكلام في الفهم والتعبير، ليجادل عما يعتقد أنه وحده من السنة، وأن كل ما عداه من تأويل باطل وخطأ. .

يا لها من مهمة!!

ويا له من عصر!!

ولكن تقي الدين بن تيمية يقضي السنوات دائباً يدرس، ويحفظ، ويشحذ القريحة لمصاولة مخالفي ما يعتنق من أفكار، وللقضاء على ما يعتقد أنه بدع وضلالات، ويروض النفس على قمع حدته بالحلم. ليكون أكثر اقناعاً. .

كان يعرف أنه سيلقى في سبيل أداء مهمته بلاء كثيراً، ولكنه كان يدرك انه بلاء في الله، فهو جهاد في سبيل الله!

ولم يـدر بأي الخصـوم يبـدأ . . وقـد تسلح الآن بكـل فقـه تـركـه السلف، لا فقه الامام أحمد وحده . . وتسلح بـدراسة علوم الفلسفـة وعلم الكلام، وأدلة القرآن والسنة والصحـابة، وأتقن حفظ الحـديث حتى لقد قال أحد المتحمسين له: «كل حديث لم يحفـظه تقي الدين ابن تيمية ليس بحديث»!

على أنه مع كل همومه، لم يعتزل النـاس، فقد كـان يجد الـوقت ليمشي في الأسواق، يتعرف الحـاجات، على الـرغم من أنه لم يكن يملك الا راتبه الذي يتقـاضاه من المـدرسة، وهـو راتب لا يكفل لـه الرفاهية، ولكنه يكفل العيش الحسن . .

قابل مـرة طالب علم يمشي شـارد الذهن لأنـه لـم يكن يملك نفقة يومه، فاستوقفه ابن تيمية، وأعطاه مالا دون أن يسأله، وقال للطالب: «أنفق من هذا المال وأخل خاطرك، وانشغل بطلب العلم».

بـأي المعارك تبـدأ يا تقي الـدين، وكل مـا تراه يحتـاج منـك الى معركة . . ؟!

وبث همومه لأمه الرءوم فنصحته بألا يدخل في معـارك، وأن يقول كلمته ويمضي، ويكتفي بالدعوة الى المعروف والنهي عن المنكر.

كيف يـا أم والفســاد يـعم، والـسنـة تـهــدر، والمـخــالفــون يستقوون . . ؟!

على أن تفكيره لم يطل، فقد فرضت المعركة نفسها عليه قبـل أن يختار . . !!



الفصل الثاني

طال ليل «ست النعم»، غير أنها لم تنم! . .

لكم تشفق على ولدها «أحمد تقي الدين» مما هو مقبل عليه . . ! !
انه لم يكد يحتل مكان أبيه في دار الحديث والجامع الأموي، بعد عام واحد من وفاة أبيه، حتى أنكره بعض العلماء من كبار السن! . .

من الحق أن علماء آخرين فرحوا به، وشجعوه، ورأوا فيه فارساً للكلمة، شجاعاً يحمي الدين ويحيي السنة، وأكبروا غزارة علمه، على نضارة سنه . .

ولكن هؤلاء الذين لم يقبلوا بينهم بعد هذا العالم الشاب، أيعرفون كم يكابد في تحصيل العلم!؟ . . أيعرفون كم من ساعات النهار والليل يقضي بين الكتب، يحفظ ويقرأ ويتأمل، ليستوعب كل فنون المعرفة من علوم الدين والدنيا . . ؟!

لو أنهم عرفوا لأكبروا، بدلاً من أن ينكروه!!

انهم ليتهمونه بالخيلاء والغرور، لأنه يلقي الدروس بلا أوراق أو كتب! . .

ولكن . . هكـذا كان أبـوه امام الفقـه الحنبلي ، وهكذا كـان جـده أعلم الفقهاء الحنابلة في عصره .

ان تقي الدين يشعر أن الكتب تقيده! وهو اثناء القائـه الدروس في دار الحديث بالمدرسة السكرية أو في الجامع ، ينتقـل من فن الى فن من فنون المعرفة، حراً طليقاً كالريح !! . .

مـا حاجتـه الى أن يرجـع الى كتاب خـلال القائـه الدروس ، وهـو يحفظ كل ما يمكن أن يرجع فيه الى الكتب؟!

ان له من حضور الـذهن ، وصفاء النفس ، وحـرارة الايمان وحـدة الـذكاء ، وثـراء المعـرفـة ، وقـوة العـارضـة . . . ان لـه من كـل هـذه المـواهب ما يجعـل كل مـا حصله وما يستنبـطه مـرتبـاً في عقله على أجمل نسق! . . .

حماك الله يا ولـدي تقي الدين! . . اني لأعيـذك بالله من الشيـطان الرجيم ، ومن شر حاسد اذا حسد!! . . . .

ليتـك تعدل عن حـدتك التي يستنفـرها فيـك مـا تـراه من جحـود العلماء والشيوخ الذين ينكرونك ، . ولا يعترفون بك ، حسداً من عند أنفسهم!!

انك يا ولدي لتقرأ «ابن حزم» وسيرته ، فيما تقـرأ من فقه آخـر غير الفقـه الحنبلي ، فلعلك تدرك مـا جرت الحـدة على «ابن حـزم»! . . لعلك تـدرك ان «ابن حـزم» كـان يشكـو هـذه الحـدة ، ويحـاول ان يتخلص منها ، ولكنها لم تكن طبعاً فيه ، بل عن مرض يعيبه . !

* * *

وأقبل تقي الدين على أمه بعد أن صلى الفجر، وجلس يفطر معها، ثم قام فقبل يدها واتجه الى الباب ليخرج . .

قالت «ست النعم»: انك لم تطعم بما يقويك على القاء دروسك في المدرسة . .

قال: أتذكرين قول الشاعر القديم:

«وحسبك من غنى شبع وري؟!».

قالت: «هذا طعام الزاهدين. انك لم تشبع يا بني». فضحك: «الأمر لك سآكل حتى ترضي؟».

وعاد الى الطعام يكره نفسه على تناوله ارضاء لأمه!

شردت أمه قليلاً ثم قالت: «لكم أخشى عليك يا تقي الدين من حسد العلماء الذين يكبرونك سناً!! لا تثرهم في خلافك معهم واذكر نصيحة أبيك! . ثم يا ولدي . . هذه المعركة التي تريد أن تخوضها . . آه يا بني كأني أحمل جبالاً من الهموم اشفاقاً عليك!!».

قال تقي الدين: «أترضين لي أن أسكت على باطل!؟».

قالت: «معاذ الله!! . . نحو عشر سنوات قد مرت منذ أخذت مكان أبيك في دار الحديث والجامع الأكبر، وهم لا يهدأون عنك وأنت لا تهدأ عنهم!! سيتكاثر عليك الخصوم وأنت وحيد!».

قال: «من خصومي يا أماه؟! . . انهم المقلدون الجامدون، ومخالفو السنة من العلماء!! ثم أهل البدع والأهواء!! أفأسكت عنهم؟ . . وأهل الفساد والفساق، والظالمون، والمشعوذون

والدجالـون!؟ أفترين لي أن أسكت عنهم؟! أفتـرضين لي الدنيـة في ديني؟!».

قالت: «ما أشـد عذاب أم تعـرف أن ابنها على حق وأنـه يجب أن يشقى ويعـاني لكي ينافـح عنه، وهي على الـرغم من ذلك تشفق من الهول القادم الناطح بقرنيه!!».

قـال: «ذكرت الخصـوم وهم كثير، أفتنسين الصحـاب من الأتقياء الذين يأخذون الدين بقوة، ولا يخشون في الله لومة لائم؟! اذكـريهم أيضاً. . وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله!!».

قالت: صدق الله العظيم.

وفرغ من الطعام فقال لها مبتسماً: «أرضيت عن طعامي؟».

قالت: «هكذا يجب أن يكون طعام المجاهدين».

واتجه الى الباب، فقالت له وكأنها تذكرت شيئاً: «قبل أن تـذهب الى دار الحديث والجامع الأموي فتلقي درسك، ثم تجادل علماء كبر منـك سناً وأقـل علماً، أرجـو أن تحمد الله أنـك لم تعش في بلاد مـا وراء النهر عندما افتتحت أول مدرسة!».

فضحك تقي الدين وأكمل: «حين ظن العلماء هناك أن المساجـد ستخلو من حلقات العلم بعد افتتاح المدارس، فـأقامـوا مأتمـاً للعلم تلقوا فيه العزاء!؟».

قـالت ضـاحكـة: «أحمـد الله على انـك لم تكن هنـاك في ذلـك الزمان!! فما عساك كنت صانعاً بهذا الصنف من العلماء؟!».

قال وهو يغلق الباب وراءه: «ما زال هنـاك بقية من سـلالة أولئـك

العلماء. . . السلام عليك ورحمة الله وبركاته. . أسألك الدعاء يا أماه، فرضاك من رضا الله».

قالت: «ربي وقلبي راضيان عليك. . اذهب برعاية الله. . حماك الله من حسد الحاسدين، وكيد الكائدين، وأتم نعمته عليك وسدد خطاك».

وحين خرج انسكبت دموع اشفاق ظلت تغالبها. . ثم دخلت الى خزانة الكتب، تلتمس الراحة والقوة في تلاوة القرآن الكريم، فوجدت أوراقاً متناثرة أودعها «تقي الدين» بين الصفحات. . . ما هذه الأوراق؟ وافرحتا. . . !! . . . . انها محاولات تفسير بعض آيات القرآن الكريم. . التفسير؟! ليس بعد يا بني؟! . . . انتظر حتى تزداد تمرساً بالحياة وأحوالها، وحتى يجلل الشيب رأسك، وتصبح كهلاً من الصالحين، فلا يثور عليك العلماء الحاسدون من الكهول! حماك الله وقواك يا تقي الدين! . . .

وعادت تتلو القرآن الكريم، بقلب خاشع، وصوت رخيم. . .

* * *

مضى يتأمل الناس في الطريق، ثم يذاكر نفسه فيما سيلقيه على طلاب مدرسة الحديث، ثم على رواد حلقته بالجامع.

اتسعت حلقته في الجامع على نحو لم يكن يتخيله. .

لم تقفر بقية الحلقات، وان كانت قد ضاقت على شيوخها! . . وأوغر هذا بعض الصدور! . .

ولكن ما حيلته؟ . . ما شاء الله كان. . وان اتساع حلقته ليلقي

عليه مسئولية الاتقان، والتزود بكل ألوان المعارف ليواجه فجاءات الأسئلة والافتراضات! . .

وشاعت في وجهه ابتسامة، وهو يتذكر علماء ما وراء النهر، وجزعهم من انشاء المدارس! . .

ها هي ذي المدارس تملأ مدن الشام ومصر، وهي لم تسلب من رواد حلقات المساجد أحداً . . ما زالت بيوت الله كما كانت قبل انشاء المدارس دور عبادة، ودور علم، يتلقى فيها الرواد علوم الدين واللغة، والمدارس زاخرة بالطلبة، يدرسون فيها الى جانب علوم الدين، علوم الدنيا من طب، ورياضيات، وفلك، وطبيعة، وكيمياء، الى غير ذلك مما تحتاج اليه الأمة لعمارة الأرض، وتحقيق المصلحة، ودفع المضرة في هذه الحياة . .

لقد غنيت الحياة في الشام ومصر منذ حين بعلوم الدين والدنيا . . وأصبحت مصر والشام هي الدولة الوحيدة الكبرى، بعد أن تمزقت الدولة الاسلامية الى دويلات متناثرة متنافرة.

وقد عني بعض السلاطين بانشاء المساجد والمدارس والمستشفيات، فقامت شامخة تحقق مصالح الأمة، على الرغم من شيوع دور اللهو الفساد! . .

وها هي ذي مدن الشام ومصر، قد أصبحت منارات للعلم . .

ها هي ذي تزخر بكل ألوان المعارف، وتبذلها لمن ينشدها . .

فيها تتحاور الأفكار، وتتنافس القرائح، وتتبارى المذاهب الدينية والعقلية من مشرق الدولة الاسلامية ومغربها.

عمرت مدن الشام ومصر بالعلماء والفقهـاء من أهلها، ومن الـذين لاذوا بها، منذ زحف التتار على بلاد الاسلام، فاستولوا على بغـداد، وما أكثر الذين يعيشون بمصر والشام من علماء الأندلس والمغرب منذ مزقتها الخلافات الداخلية، فانهارت دولـة الاسلام، في الأنـدلس.. وبطش حكام المغرب بمن يخالفهم في المذهب!!

ان في هـذا الحشد الحـاشـد من العلمـاء النـازحين لثـراء للحيـاة الفكرية!

ها هي ذي تموج بالأفكار والآراء.. ويشتد فيها الجـدال بين أتباع المذاهب الفقهية.. بين المقلدين، والمجددين.. بين أهل الشريعة من أتبـاع السلف، وأهـل الحقيقـة من المتصـوفـة.. بين أصحـاب الفلسفة، وعلماء الدين، وبين أهل علوم الدنيا..!!

***

في غمرات هذا العجيـج الصاخب من الآراء والأفكـار، كان تقي الدين بـن تيمية يلقي دروسـه على طلابـه في المدرسـة وجه النهـار، وعلى أهـل حلقته بعـد صلاة الـظهر أو العصـر، متبعاً مـذهب الامام أحمد بن حنبل مجتهداً فيه، عادلاً عنه أحيـانـاً الى غيـره من مذاهب الأئمـة الآخرين، ان لم يقـده اجتهاده على مـذهب امـامـه الى حكم يطمئن اليه في قضية مستحدثة..

وفي الحق أنه بهر طـلاب المدرسـة وأهل الحلقـة بحسن القائـه، وحضور حجته، وقوة استدلاله، وبلاغته..

كـان صدقـه فيما يقـول قوي التـأثير على المستمعين.. فـالكلام

يخرج من قلبه ويفيض من عقله، ليصل الى قلوبهم فتطمئن به، والى عقولهم فتسكن اليه . .

لم يكن تلاميذه في المدرسة، أو شهود حلقته بالجامع من أتباع الفقه الحنبلي فحسب . . بل كان فيهم أتباع للأئمة الآخرين .

ولقد يناظره أحد المستمعين ـ وكان هو يحركهم لمناظرته ـ فيرد عليه بلسان فصيح، وبيان ناصع، وفي رقة بالغة ألفها مع طلاب العلم والمعرفة، وما يزال بمناظره حتى يتألف قلبه، ويقنعه بحجته! .

انه ليتذكر نصائح أبيه ويستحضر اشفاق أمه فيقمع حدته في الجدال!

حقاً ان في الجدال بالتي هي أحسن طاعة لله ورسوله . . فقد أمر الله بالدعوة الى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة . . هكذا كان يفعل الرسول ﷺ مع المشركين، فكيف بالمناظرة مع المسلمين!؟ .

لقد اهتدى تقي الدين الى أن الرقة والحكمة والحسنى في المناظرة والجدال، انما هي سنة واجبة الاتباع . وهو يستشعر منذ حين أنه مسئول عن احياء السنة في عصر تغشاه البدع والضلالات والأباطيل . .

وهكذا أحبه تلاميذه فلزموه، وأحبه شهود حلقته من طلاب العلم فأكبروه . .

كان يدعوهم جميعاً الى مقاومة ما يشوه حقيقة الدين والى الدفاع عن الشريعة، والى العمل على تطهير المجتمع من الرذائل، والى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهذا واجب كل مسلم، والى

العودة بشباب هذه الأمة الى ما كان عليه الشباب في عصور الاسلام الزاهرة الأولى، من فتوة، وقوة، ونجدة. . فالشباب هم حماة الدين والأمة بجهادهم في سبيل الله، اذا عدا على البلاد العادون. هم بناة المجتمع الصالح الذي تستهدفه الشريعة. .

من أجل ذلك حض الشباب على ممارسة الرياضة، وأمرهم بتقوية أجسادهم، ونهاهم عن المبالغة في التزين، أو التشبه بالنساء، وأثار فيهم الحماسة، وقادهم في طرقات دمشق، فان صادف في بعض الطريق فتى يرسل شعره كالنساء، نصحه بأن يحلقه وبأن يخشوشن، فان أبى الفتى أمر به فجروه الى أقرب حلاق ليحلق شعره قهراً!

وهكذا طهر طرقات دمشق من هذا النوع من الشباب. .

ثم انه أمعن النظر فيما يهدد البلاد، وفي أحوال أهلها، فوجد الفساد شائعاً، والظلم يحيق بالمستضعفين فيها، فاستنفر طائفة من الشباب، وسار على رأسهم ينهي أصحاب الحانات ودور اللهو عن المتكر، فان تابوا دعا لهم بالخير، وان أصروا على ما هم فيه، أمر أتباعه فأراقوا الخمور. . !

وأقره أولو الأمر على ما فعل. . ذلك أنهم كانوا يعرفون ما أصبح عليه من سلطان على الناس. .

ثم انهم ليوقرونه، ويحضرون حلقته، ويعجبهم فيه الغيرة على السنة، والحرص على احيائها. . وهم كلهم من أهل السنة. . وهو لا يطلب منهم منصباً بعد، ويرفض عطاياهم، مكتفياً براتبه من دار الحديث.

وهو لا يؤذيهم ولا يؤلب عليهم الناس! .

كانوا من المماليك،ولكنه كان لا يعيرهم بهذا،أو يفتي بخلعهم . .

والعهد غير بعيد بموقف «العز بن عبد السلام»، حين أفتى بأنه لا ولاية لهم على المسلمين وهم مماليك عبيد فلا بد من عتقهم لحق لهم أن يحكموا . !

ما كان ابن تيمية على هذا الرأي، بل كان يدعو الناس الى طاعة أولي الأمر ما استقاموا، فاذا عصوا الله فلا طاعة في معصية .

انه ليرى في هؤلاء المماليك محاربين أشداء، يحمون الثغور، ويدافعون عن الدين والأمة من غزوات التتار والصليبيين . .

من أجل ذلك احترمه الولاة والأمراء وهبوه، وأقروا كل ما يعمله، وأعلنوا أنه ينفذ ارادتهم في الاغلاق الحانات، ودور اللهو، وبيوت الفساد، وتطهير الشباب من مظاهر التخنث والتشبه بالنساء!!

* * *

أثارت مكانته عند الولاة حقد بعض العلماء . . وكان منهم من يمد يده لعطايا الولاة، ومنهم من يطلب المناصب، ومنهم من يكتب للسلطان مستعطفاً معلناً أنه يقبل الأرض بين يديه ليجري عليه رزقاً أوسع!!

والشيخ تقي الدين يضيق بكل هذا، ويحذر صحبه وأتباعه من مثل هؤلاء العلماء، ومنهم من لم يتورع عن الوساطة عند الولاة لذوي الحاجات، مقابل مال يحصل عليه، حتى لقد أصبح بعضهم

واسع الغنى، وكلما اتسع غناه ضاق أفقه، واشتد حقده على زهد ابن تيمية الذي ينفق معظم راتبه على فقراء الطلاب.

ومن الولاة من يبطش، ويأكل مال الغير، ولا يعين أحداً في منصب الا ان رشاه.. ومن العلماء من أباح الرشوة لقضاء الحاجة..

فما كان للشيخ أن يسكت على هذا كله!.

وقف بالجامع يفتي الناس في هذا جميعاً.. قال: «يجب أن يولي في كل مرتبة أصلح من يقدر عليها، وأن يرزق أحق المسلمين، وأنفعهم للمسلمين».. وأخذ يفيض في شرح فتواه متبعاً فيها رأي الامام أحمد بن حنبل، واجماع الفقهاء.. فاذا قبل الوالي مالاً أو هدية مقابل تعيين أحد في منصب فهي الرشوة، والطرفان آثمان.. أما الوسطاء الذين يتشفعون عند الولاة لصاحب الحق، فالاجماع منعقد على أنه لا يحق لهم أن يأخذوا مالا مقابل شفاعتهم، واستشهد بالحديث الشريف: «من شفع لأخيه شفاعة، فأهدى له هدية فقبلها، فقد أتى بابا عظيماً من أبواب الربا».. فاذا كانت هذه الشفاعة لغير صاحب حق، فهي اثم مضاعف، والدليل قول ابن مسعود عن معنى السحت الذي ورد في القرآن: «السحت هو أن تشفع لأخيك شفاعة فيهدي لك هدية فتقبلها». فسألوه: «أرأيت ان كانت هدية في باطل؟» فقال ابن مسعود: «ذلك كفر». **﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾**.

وأضاف الشيخ تقي الدين ان من أفتى بجواز الرشوة عن الشفاعة عند الولاة للحصول على حق وجعلها من باب الجعالة (أي الأجر)،

فهـو يخـالف السنـة وأقـوال الصحـابـة والائمـة جميعـاً. «لأن هــذا العمل ـ أي الشفاعة لصاحب الحق ـ من المصالح العامة التي يكـون القيام بها فرضاً. . . . » «ومتى شرع أخذ الجعـل عن مثل هـذا لزم أن تكون الولاية واعطاء أموال الفيء وغيرها لمن يبذل في ذلك، ولزم أن يكون كف الظلم عمن يبذل، والذي لا يبذل لا يولى ولا يعـطى، ولا يكف عنه الظلم، وان كان أحق الناس، وأنفع للمسلمين. . ».

أما من يعطي ويهب، فهو اما أنه ليس بصاحب حق، فما يعطيه أو يهبه رشوة يأثم بها الجانبان.

فقـد جاء في الحـديث الشـريف: «لعن الله الـراشي والمـرتشي» ويلحق بهذه الحال من دفع مالا طلبـاً للولاية (أي المنصب) فيقـول: «طلب الولاية منهي عنه فكيف بالعوض؟!».

وأما أن يكون من يعطي أو يهب صاحب حق يستطيع أن يصل اليه بالاقناع، ولكنه وجد في الهبة طريقاً أسرع، فهو يقترف الـرشوة وهي حرام. وعليه أن يناضل في سبيل حقه، فنضاله هذا جهاد يثاب عليه.

واما أن يكون من يعـطي أو يهب صاحب حق، ولكنـه لا يستطيـع الحصول عليه الا بـالرشـوة لوسيط أو لمن بيـده الأمر، فهـو في حكم المضطر لا جناح عليه، ولكن الطرف الآخر آثم لقبوله الرشوة. . وقد جاء في الحديث الشريف: «يا رسول الله: لم تعطيهم؟» قال: «يأبـون الا أن يسألوني، ويأبى الله لي البخل».

فاذا كان صاحب الرسالة يعطي خجلاً وحرجاً من الالحاح، فكيف بغيره من المسلمين؟!

ثـار عليه بعض العلمـاء الذين يخـالفونـه ثـورة عـارمـة، وأخـذوا يتربصون به. . فقد سد أمامهم أبواباً واسعة للغنى، اذ كانوا يربحـون أرباحاً طائلة من عطايا أصحاب المظالم والحاجات وهباتهم، مقـابل الشفاعة عند الولاة. .

أمـا أصحاب المـظالم والحـاجـات فقـد التفـوا حـولـه يكـرمـونـه ويستفتونه. .

ولقـد زاد ضيق مخالفيـه به أنـه كان يتـطوع لـرفـع الـظلم وقضـاء الحاجات مهما يخض في سبيل ذلك من غمرات!

***

خرج من الجامع ذات مساء عـائداً الى منـزله، وحـوله ومن خلفـه عـدد من الـطلاب ومـريـدي الحلقـة، يستفسـرون منـه عمـا ألقـاه، ويواصلون استيضاحه واستفتاءه، كما ألفوا منذ نحو ستـة عشر عـاماً، وهو يوضح ويفتي في أناة، ويكرر ما شرح. .

وتقدم خطوات واذ برجل يقتحم عليه في هلع وهو يصيح: «أنا في جـاه النبي أغثنا يـا رسول الله!! أدركـونا يـا أهل البيت! يـا أولياء الله الصالحين! أغثني يا.شيخ تقي الدين. . بركاتك يا شيخ!».

فقال الشيخ: «استغث الله يا رجل فقد أمرنا الا نستغيث سواه».

ونـظر الذين حـولـه اليـه، ونـظر بعضهم الى بعض يتسـاءلـون. . وسألوا تقي الدين: «كيف لا يستغاث برسول الله ﷺ؟!».

ولكن الـرجـل المـروع انـدفـع يقـول: «يـا مـولانـا الشيـخ تقي الدين. .! الأمير قـطلو بك الكبيـر ظلمني، وانتزع حقي، ولم أجـد

أحداً من العلماء يستشفع لي عنده، فكلهم يخافه. . ولما ذهبت اليه أستعطفه أمر بجلدي. . أنظر أثر السياط!».

وكشف الرجل عن كتفيه وظهره، ورأى الشيخ ما شوته السياط!! نظر الحاضرون الى الرجل في اشفاق يخالجه الغضب، وصاح أحدهم: «لماذا تزج بشيخنا في أمر من أمور هذا الجبار المتغطرس».

وصاح آخر: «يا شيخنا. . لا شأن لك بهذا المغتصب الشرس، فهو لا يرعى لله وقاراً، ونحن نضن بك على الاهانة أو الأذى».

فقال لهم الشيخ تقي الدين: «تعلموا يرحمكم الله أن من يخاف الله لا يبالي بالجبارين العتاة. اني ذاهب اليه الآن فمسترد منه حق هذا المستضعف المظلوم باذن الله».

ووجل محبوه، وصمموا على ألا يذهب، فإذا أبى، فليمهلهم ليتسلحوا ويذهبوا معه!.

ولكنه دعاهم الى الانصراف. .

ذهب وحده الى قصر ذلك الأمير، ومعه صاحب المظلمة.

استقبله قطلو بك مرحبا، فقد كان يعرف مكانته عند نائب السلطان، وسائر الأمراء، . وعند سواد الناس.

وتحدث الشيخ في أمر صاحب المظلمة، فاكفهر وجه الأمير، وهم بأن يغلظ له، ولكنه كظم غيظه.

قال له مستهزئاً: «ولماذا أتعبت يا شيخ نفسك. أنا كنت أجيء اليك تائباً مستغفراً! لانك عالم زاهد. . !».

فقال الشيخ تقي الدين مقالة الامام الحسين لعمر بن سعد قائد الحملة عليه في كربلاء: «لا عليك.. موسى عليه السلام كان خيراً مني، وفرعون كان شراً منك، وكان موسى يجيء فرعون كل يوم ثلاث مرات، فيقول له قولاً لينا لعله يذكر أو يخشى!».

فبهت الأمير.

وما زال الشيخ به حتى رد للمظلوم حقه، وعوضه عن الجلد بالسياط، وأرضاه.

وكان أنصار الشيخ يقفون غير بعيد من القصر، دون أن يشعر بهم شيخهم.

خرج الشيخ وأمامه صاحب الشكوى، يجري ويدعو الله أن ينصر الشيخ.. وأن يعز به الاسلام والمسلمين والمستضعفين والمظلومين.. وروى لأصحاب الشيخ كل ما جرى.. ثم مضى في فرحه العارم يروي القصة لكل من يعرفه ومن لا يعرفه..

حتى اذا أقبل الصباح كانت دمشق كلها تتحدث بما كان بين الشيخ والأمير..

وزاد الزحام على حلقته، كل يريد أن ينعم بطلعة الشيخ الجسور..

* * *

شعر الشيخ أن رواد الحلقة في اكبارهم أياه واعجابهم به يغمزون العلماء الآخرين من مخالفيه، ويحاولون أن يزروا عليهم.. فغضب قائلاً: «لن تخلو الأرض من علماء يأخذون على يد الظالم. لا تهينوا علماءكم مهما يخطئوا.. فقد ذلت أمة تزري بعلمائها.. واذكروا

مـواقف الشيخ العـز بن عبد السـلام رحمه الله وان كنـا لم نعاصـره، واذكروا موقف الفقيه الشافعي الشيخ النووي من الظاهر بيبـرس، وقد أدركه بعضكم، وتلقيت أنا منه بعض فقه الامام الشافعي، ومـات وأنا في السادسة عشرة. . واذكروا غيره من العلماء. . اني اذا اختلفت مع بعض العلماء، ونبت مني كلمة أو عبارة، كاتهـام أحدهم بـالجهل أو سـوء الفهم أو الغلط، فهـو خـلاف في العلم، وان كنت لأنـدم على الكلمة الجارحة، وأود لو أمحوها. . لا تأخذوا بـآرائهم أو فتاواهم اذا لم تقبلهـا عقولكم، ولكن لا تجعلوهم هـدفاً للمـطاعن، حتى اذا لم ترضوا عن سيرتهم، فأنتم لستم قضاتهم». .

استـولى الخجل على من حـاولـوا الازراء بـالعلمـاء من مخـالفي الشيخ، ممن لا يناضلون عن نصرة المظلوم، وحماية الضعيف.

وهم الشيخ بالانصراف، فاستوقفته أصـوات: «ولكنك لم تحـدثنا عن الشيخ النووي. . ماذا كان من أمر الشيخ النـووي. . من عاصـره منا ما يزال يكبره».

* * *

مضى الشيـخ تقي الدين يـروي لهم ما كـان بين الشيخ النـووي، والـظاهر بيبـرس، وكان حـاكماً قـوياً وفـارساً شجـاعاً دافـع عن الأمة والسنة، وأبطل المنكـرات، وأغلق الخمارات ودور الفسـاد، وسجن الخاطئات حتى أعلن التوبة فزوجهن. . .

ولكنه كان على الـرغم من ذلك ينـزع الى امتلاك مـا ليس له، ولا يطيق من يخالفه!!

وحين غزا التتار بلادنا، ووصلوا الى دمشق، أراد أن يجبي أموالاً من أهل الشام، لتعينه في الحرب.

واستفتى العلماء فأجابه بعضهم، ورفض الباقون، فقتل عدداً من الرافضين، فعدل من بقي منهم، وأفتوه بجواز أخذ المال من الرعية..

وسأل السلطان بيبرس: «هل بقي أحد لا يجيز» قالوا: «نعم بقي الشيخ محيي الدين النووي».

فطلبه ليفتي بجواز أخذ المال من الرعية، فامتنع الشيخ النووي، وأفتى بأنه لا يجوز.

فأنفجر غضب السلطان وسأله عن سبب امتناعه عن الفتوى.

وأيقن الحاضرون أن الشيخ هالك ان لم يجب السلطان الى طلبه.

وقال الشيخ النووي: «أنا أعرف أنك كنت في الرق مملوكاً للأمير البندقدار، وليس لك مال، ثم من الله عليك، وجعلك ملكاً. وسمعت أن عندك ألف مملوك يتحلون بالذهب ولك مائتا جارية لكل منهن جواهر غالية، فاذا أنفقت ذلك كله، وبقي مماليكك بملابسهم دون الذهب، وبقيت جواريك بقيابهن دون الحلي، ولم يبق في بيت المال شيء من نقد أو متاع أو أرض، أفتيتك بأخذ المال من الرعية. فانما يستعان على الجهاد بالافتقار الى الله، واتباع آثار نبيه ﷺ».

فقال له السلطان: «أخرج من بلدي».

فخرج الشيخ من دمشق الى قريته نوى من أعمال حران. وسئل

السلطان عن امتناعه عن قتل الشيخ فقال: «كلما هممت بقتله وهو يتكلم شعرت بالذعر، وكأني أرى على عاتقه سبعين يريدان افتراسي».

ولم يستطع السلطان أن يجبي المال من الرعية، بل باع ما عند مماليكه من ذهب، وما عند جواريه من جواهر وحلي، فحصل مالاً كفاه نفقة الحرب.

على أن الشيخ لم يسكت عن السلطان قط.

فبعد أن هزم التتار، وأجلاهم عن أرض الشام، أراد أن يستولي على أرض الغوطة في ظاهر دمشق، وهي أرض كان التتار في غزوهم قد اخذوها غصباً، ورموا بأهلها للعراء والجوع.

ووجد السلطان بيبرس من يفتيه بأن هذه الأرض تحل له، الا أن يقدم أحدهم سنداً بملكية الأرض..

فكتب الشيخ الى السلطان يعظه بأن يعيد الأرض لأهلها، فهي لا تحل للسلطان عند أحد من علماء المسلمين.

وأرسل من قريته نوى كتاباً للعالم الذي أحلها السلطان يطالبه بأن يتقي الله، وأن يرجع الى أحكام الدين، واجماع الائمة.

فغضب السلطان وأمر بأن يخلع الشيخ من منصبه، ولكنه وجده بلا منصب!!.

واستدعاه السلطان، وسأله لم لم يبد هذه الشجاعة عندما اغتصب التتار تلك البساتين؟.. فقال الشيخ: كان التتار غزاة غاصبين، وكان المسلمون يجاهدونهم، أما السلطان فهو ولي الأمر الشرعي الذي

يجب عليه نْ يقيم العدل، وينصف الرعية . .

ثم نصح الشيخ السلطان أن يتذكر نعمة الله عليه اذا كان مملوكاً فآتاه الملك، ومن شكر النعمة ألا يغصب حق أحد! .

فغضب السلطان وطرده من مجلسه .

ومضى الشيخ . . وقد أقسم ألا تجمعه أرض بهذا السلطان الذي يسلب المستضعفين، ولا يصغي الى نصيحة، والدين النصيحة .

غير أن السلطان مات بعد شهر واحد من رحيل الشيخ !

ويقال انه مات غيظاً، حسرة وكمداً، لأنه اضطر الى اعادة الأرض إلى أهلها خشية أن يثور عليه الناس، ولأنه عجز عن الشيخ ! !

* * *

أكبر الطلاب ورواد الحلقة في الشيخ تقي الدين أنه يكفهم عن النيل من خصومه من العلماء، ويطالبهم بتوقيرهم ويضرب الأمثال بشجاعة علماء سلفوا هم على غير مذهب امامه أحمد بن حنبل، بل على مذهب الامام الشافعي .

وما كان أحد في الزمن المضطرب يمتدح عالماً يخالفه في المذهب . . وبمثل هذه السيرة بين طلابه ورواد حلقته، كان يزداد نفوذاً، ويعمق تأثيره في الناس يوماً بعد يوم .

* * *

استمر الشيخ تقي الدين في التدريس بدار الحديث، وفي حلقته بالجامع الأموي، مناضلاً بالكلمة وغزارة العلم، لكي يعيد الى

الاسلام نضارته الأولى، قبل أن تتسلل اليه الاسرائيليات وفلسفة اليونان، وأفكار الهند والفرس . .

لم يكن الشيخ قد جاوز الثامنة والثلاثين، وقد اعترف له عدد صالح من علماء عصره حتى مخالفيه، بالزيادة والصلاح والتفوق.

قال عنه ابن دقيق العيد، وهو أعلم أهل العصر بالحديث ومن مخالفي ابن تيمية في المذهب والرأي : «جمع العلوم كلها يأخذ منها ما يريد، ويدع ما يريد».

وقال عنه الذهبي : «أنا مخالف له في مسائل أصلية وفرعية، وهو مع سعة علمه، وفرط شجاعته، وسيلان ذهنه، وتعظيمه لحرمات الدين، تعتريه حدة في البحث، وغضب وصدمة لخصومة تزرع له عداوة في النفوس، ولولا ذلك لكان كلمة اجماع، فان كبارهم خاضعون لعلومه، يعترفون بأنه بحر لا ساحل له، وكنز ليس له نظير، ولكنهم ينقمون عليه أقوالاً وأفعالاً، وكل يؤخذ من قوله ويترك».

أما غلاة خصومة من الشانئين والحاسدين، ومن استنفرتهم طهارته، وكبرياؤه، وانتشار أمره، وتعظيم الناس والولاة له. . . فقد نسبوه الى الكفر!!

***

على أنه مضى في طريقه لا يبالي، يحارب البدع، ويحيي السنة، على طريق الامام أحمد، مجتهداً في المذهب ما استطاع.

وكان في كل نهار وليل يتوقع معركة حاسمة مع خصومه

وحاسديه. . وقد أعد لها كل أسلحتها من دراية كاملة بالقرآن وعلومه، وبالسنة وعلومها، وأقوال الصحابة، وبالمعرفة العميقة بأدوات المناطقة والفلاسفة وعلماء الكلام في الجدال. وقد درب النفس على دحض مقاطع الحجة منهم.

وجاء اليوم الذي فيه فرضت المعركة نفسها عليه. . اذ جاءه من «حماة» احدى منائر العلم في الشام، نفر يحملون اليه كتاباً يسأله فيه أهل المدينة الرأي في الآيات التي وصف الله تعالى بها نفسه في القرآن الكريم مثل الآيات الكريمة: ﴿**الرحمن على العرش استوى**﴾. و ﴿**جاء ربك والملك صفاً صفاً**﴾ و ﴿**يد الله فوق أيديهم**﴾. . الى غير ذلك من آيات الصفات. .

وكانت الآراء المختلفة تتلاطم في مضطرب الحياة الفكرية منذ حين. . وكان التعصب يطمس البصائر، ويعطل العقول، حتى لقد كان أتباع المذاهب الفقيهة المختلفة لا يصلي الواحد منهم خلف أمام على غير مذهبه.

والآراء حول ما وصف الله به نفسه تتصارع، والسائد هو رأي الأشاعرة الذي أرساه حجة الاسلام الامام الغزالي منذ حين. .

وهو يذهب الى أن هذه الصفات لا يمكن أن تفهم حرفياً، بل يجب فهمها بأدوات البيان العربي، ومنها ايجاز الحذف، أو ينبغي تأويلها تنزيهاً للذات العلية، وتأويل النص هو العدول عن ظاهر المعنى الى معنى خفي لأسباب توجب هذا العدول. .

فالآية «استوى على العرش» لا بمعنى قعد من القعود الحسي،

بل الاستيلاء على العرش. . وتفسير ﴿جاء ربك والملك صفاً صفاً﴾ فيها ايجاز حذف، ومعناها جاء أمر ربك.

و ﴿يد الله فوق أيديهم﴾ معناها قدرته فوق قدرتهم.

فمن أساليب العرب «وضع الأمير يده على المدينة» وان كان مقطوع اليدين!! اي بسط سلطانه وقدرته على المدينة. .

أما الرأي الآخر فيذهب الى ان هذه الآيات يجب أن تفهم حرفياً، بظاهر النص. . فالاستواء على العرش جلوس كجلوس الملوك على عروشهم، وقوله تعالى و ﴿جاء ربك. .﴾ معناها أن الله يجيء بذاته العلية.

و ﴿يد الله. .﴾ هي يد حقا.

وكذلك ساق الله في قوله تعالى: ﴿يوم يكشف عن ساق ويدعون الى السجود﴾.

قال أحد مفسريهم: «انها ساق حقيقية» ثم ضرب على ساقه وقال «كساقي هذه».

ورمى أصحاب هذ الرأي بأنهم يشبهون الله تعالى بالانسان، ويجسمونه، وهو منزه عن التشبيه والتجسيم. . وأطلقوا عليهم المشبهة والمجسمة.

وكان هناك رأي ثالث يذهب الى عدم البحث عن هذه الآيات: فلا أحد غير الله تعالى يدرك معناها. . فهي من المتشابهات، وقد نهى الرسول ﷺ عن السؤال عنها، وكان عمر يضرب من يسأل عنها. .

ورأي رابع يرى أن الرسول ﷺ بين وفسر كل آيات القرآن وعلمها صحابته.. ولكنه نهى عن السؤال في المتشابهات ابتغاء الفتنة، أما ان كان يطلب المعرفة فيجاب، ولهذا ضرب عمر السائل لا على السؤال بل على نيته من السؤال، لانه رضي الله عنه أدرك أن السائل يريد اثارة الفتنة..

فالامتناع عن النظر في هذه الآيات بزعم أن الله وحده هو الذي يعلمها، اتهام للرسول ﷺ بأنه لم يبين القرآن، وبأنه لم يبلغ رسالته!!

ثم كان الرأي الذي يقول انه يجب الايمان بهذه الآيات، وتصديق ما جاء فيها من غير نظر الى الكيفية.. كيفية الاستواء، وكيفية اليد، وكيفية السمع والبصر..

كانت هذه الآراء جميعاً تصطرع، ويتبادل أصحابها اتهامات تصل الى حد الاتهام بالكفر أو على الأقل بالزيغ والضلال!!

* * *

حين وصل السؤال الى ابن تيمية، اتخذ مكانه في الجامع، وأملى رسالته الى أهل حماة..

بدأها بعد صلاة الظهر، وختمها قبيل صلاة العصر، وأسماها «الرسالة الحموية».

شرح فيها فهمه من آيات الصفات واسماء الله الحسنى، وسار في هذا الفهم على مذهب الامام أحمد بن حنبل.. فأنكر تأويل هذه

الآيات، أو تفسيرها على أن المعنى مجازي كما قال الأشاعرة والامام الغزالي.

وأنكر فهمها بحرفية النص، وتشبيه الله تعالى بالانسان بل «علينا أن نصدق كل ما وصف الله تعالى به نفسه بلا تأويل أو تجسيد أو تشبيه.. فهذا كله تحريف للكلم عن مواضعه».

ومذهب السلف في رأيه انهم: «لا يمثلون صفات الله صفات خلقه، كما لا يمثلون ذاته بذوات خلقه، ولا ينفون عنه ما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله، فيعطلوا أسماء الله الحسنى وصفاته العليا».

ويفيض في شرحه أن آيات الصفات يجب أن تفهم ألفاظها وعباراتها على ظاهرها، لا مؤولة كما يقول الغزالي وسائر الاشاعرة، ولا هي على الظاهر الحسي كما يقول المجسمة والمشبهة.

بل هي على ظاهرها بمعنى يليق بذاته الكريمة.. أي من غير كيف. فقد قال الامام مالك: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والايمان به واجب، والسؤال عنه بدعة».

وقال الامام أحمد بن حنبل: «استوى على العرش كيف شاء، وكما شاء وبلا حد ولا صفة يبلغها واصف» وهذا تفويض وتنزيه، وليس فيه تخريج للفظ على الظاهر، ولا غير الظاهر.

* * *

عندما أذاع ابن تيمية رأيه هذا قامت عليه القيامة.. اتهمه المجسمة والمشبهة بالكفر.

واتهمه الأشاعرة بالزيغ، وبأنه يرى رأي المجسمة والمشبهة. . !!

وانتهز حساده الفرصة، فانطلقوا في شوارع دمشق، ومعهم حشد من أتباعهم، يشهرون بابن تيمية، ويأمرون الناس ألا يأخذوا بما أملاه الشيخ في «الرسالة الحموية». .

أما هذا النفر من أهل «حماة»، فقد أخذوا معهم الرسالة مصدقين بما فيها، وأخفوها في طيات ثيابهم هاربين الى حماة.

وقام جماعة من الفقهاء من مخالفي الشيخ وحساده، فطلبوا محاكمته أمام القاضي الحنفي، فلم يستجب ابن تيمية لهم. . لأنه كان لا يثق في ذلك القاضي. . فأجلبوا عليه في المساجد والطرقات، يسفهون رأيه، ويكيلون له السباب. .

وما عاد شيء يشغل دمشق الا هذه الخصومة!

والتتار يزحفون من بعيد. . !!

غير أن أحد الأمراء من المعجبين بابن تيمية لم يعجبه هذا الهجوم الضاري على الشيخ، ومحاولة اثارة العامة عليه، فامتطى جواده، وقاد مماليكه، وانطلق في طرقات دمشق، يضرب الذين يشهرون بالشيخ. . فاختفى منهم كثيرون. .

ورضي الشيخ أن يناظره في رأيه جماعة من الفقهاء الفضلاء، من ذوي المعتقد الحسن، والمقصد الصالح، مهما يكن خلافهم معه. .

وجمع له القاضي القزويني الشافعي جماعة من أكثر الفقهاء ورعاً وعلماً وتقوى من المذاهب المختلفة.

فسألوه في مواضع من الرسالة الحموية، مما يشنع بها عليه.

فشرح لهم الشيخ رأيه في جو يجلله وقار العلم، وحب الحقيقة.

قال لهم: «ان من الايمان بالله الايمان بما وصف به نفسه في كتابه، وبما وصفه به رسوله محمد ﷺ، من غير تحريف ولا تعطيل (أي تعطيل لصفات الله)، ولا تكييف ولا تمثيل. بل نؤمن بالله سبحانه وتعالى ﴿ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير﴾، لا ننفي عنه ما وصف به نفسه، ولا نلحد في أسماء الله الحسنى، ولا نكيف أو نمثل صفاته بصفات خلقه».

وانتهت المحاكمة التي كانت في الحق مناظرة بين عقول مستنيرة باحثة عن الحقيقة.. وأجمع الكل على براءة ساحة الشيخ مما شنع به عليه..

وقال القاضي القزويني الذي كان يرأس جلسة المحاكمة: «من قال عن الشيخ تقي الدين شيئاً عزرناه».

وخرج الشيخ يحف به أنصاره، ومضى الى بيته، ليجد رسالة أخرى من أهل «واسط» تسأله رأيه في آيات الصفات.. فشرع يرد على الرسالة، برأيه الذي قاله في الحموية وبسطه أمام محاكميه، وأسمى رده «الرسالة الواسطية».. وظهرت بعد الرسالة الحموية بشهور..

ومع ذلك لم يهدأ عنه خصومه أو حساده، فقد ظلوا يحاولون الكيد له، ويشغلون الناس بتوجيه المطاعن اليه، والشغب عليه..

وحـدثت مـلاحـاة بين الخصـوم والأنصــار. . والتتـار يـزحفـون ويزحفون، وكانوا هذه المرة غير بعيد. . !

ودمشق مـا برحت مشغـولة بمـا بين الشيخ وأنصـاره من الحنابلة، وبين خصومه وحساده. .

وبغتـة، ارتفعت الأصوات في فـزع «التتـار على أبـواب دمشق. . عاد التتار». .



الفصل الثالث

عاد التتار . . !

عاد التتار بكل ألوان الفجور!!

والمسلمون ممزقون: أمراؤهم يتناحرون، فصار بأسهم شديداً بينهم . . حتى اذا جاء العدو بخيله وبرجله، لم ينهضوا لجهاده . . واثاقلوا للأرض من حب الحياة . . أو صانعوه في الخفاء وجاهدوه بالحناجر!!

يا للرعاة الخادعين السارقي قوت الرعية! والرعية تستباح وتنتهك!!

يا للرعاة المتخمين من المتاع! والرعية في الضياع!

فيم الخصومة بينكم، ولم الصراع، وكلكم مستهدف، لا فرق بين قريبكم وبعيدكم؟!

بل لا نجاة لكم بغير الاتحاد . . أين اتحاد المسلمين!؟

أتزيفون على الرعية يا رعاة المسلمين؟!

انظر تقي الدين أحوال الرعية . . ها هم أولاء: سوادها يتلمسون

العون في الأحياء من قاداتهم، حتى اذا ما استيأسوا التمسوا المعونة من قبور الصالحين! . .

يا أيها الأمراء هبوا للجهاد!! . . أتزيفون على الرعية يا رعاة المسلمين؟!

النار تزحف نحوكم، وتكاد تأكل دوركم . .

النار حين تشب تلتهم الجميع على السواء . .

هي لن تفرق بين أكواخ الضياع ولا قصور الأغنياء!

يا للرجال! . . دعوا الخصومة بينكم . .

ليس الرعية من تهدد وحدها بل أمنكم، وحياتكم، وصغاركم، ونساؤكم!!

يا للرجال! تحركوا لتدافعوا عن عرضكم، وحياتكم!

زحف التتار بكل ألوان الفجور . . !!

عادوا بغاشية الدمار . .

يا ويلتا أين الرجال؟! أين الرجال الصامدون أولو العزيمة والبصائر!!

أين الرجال ذوو الضمائر؟!

ما عدت القى غير فرسان الحناجر . . !! يا روح «بدر» أين أنت؟! . . يا روح «حطين» املئي القلب المروع بالجسارة!!

أم لم يعد يمشي على أرض البطولة غير فرسان الدعارة . . ؟!!

قم يا تقي الدين فلتحشد صحابك والشباب الصالحين . . أحفاد أبطال المعارك في الفتوحات العظام . . أبطال حرب «القادسية» . .

أحفاد من كانت سيوفهم على «اليرموك» تشرق بالعدالـة. . أحفاد من صنعوا الحضارة في ربوع الأندلس. .

يا يوم «عين جالوت» من لي بالصناديد الأشاوس!!؟

ما زال في هذا الزمان بقية من ذلك النفر العظام. .

قم يا تقي الدين. . قم فاستل سيفك!

قم جاهد الأعداء. . جاهدهم فانك لست وحدك!

قم يا تقي الدين جاهدهم، فما جدوى الكتـابة والقـراءة والكلام؟ والوحش ينشب ظفره في كل قلب؟. .

فاذا بأحواض الشريعة تستباح. .

واذا الحقيقة قد غدت مثل السبية تغتصب!!

يـا للرجال!!. . يـا للرجال ذوي الضمـائـر والبصـائـر والعـزيمـة والمضاء!!

عاد التتار. . عادوا بغاشية الدمار!

* * *

عـاد التتار الى الشـام سنة ٦٩٩ هجـرية، والشيـخ تقي الدين في نحـو التاسعـة والثلاثين، ودمشق مشغـولة بـالحوار حـول صفـات الله تعالى والأسماء الحسنى!

والحوار يتحول الى مشاحنات، ويمتد الى القاهرة وسائر المدائن!

وما كان هـذا الاعتقاد أو ذاك، ليـزيد أو ينقص من ايمـان المسلم الحق، الذي يقوم اسـلامه على الأركـان الخمسة، والـذي يطيـع الله ورسوله، ويمتثل لأمر الله بالمعروف، وأمره بالعـدل والاحسان وايتـاء

ذي القربى، ونهيه عن الفحشاء والمنكر والبغي . .

كان ذكر اسم التتار كافياً لاثارة الفـزع في القلوب، الا لمن كانت لهم قلوب يفقهون بها! .

ذلـك أن الأمة الاسـلامية، كـانت ما تـزال تـذكـر فـظائـع التتـار، وغزواتهم المتلاحقة للبلاد العربية .

انقضـوا من أقصى الشرق، فـاجتـاحـوا أمـامهم كـل الممـالـك، وأحـرقوا، وسلبـوا، ونهبوا، واستبـاحـوا كـل شيء . .

وهكذا مضوا يـدمرون، وينتهكـون، في أعداد كثيفـة، ويسوقـون أهل البلاد المفتوحة، في مقـدمة جيـوشهم، حتى ليخيل لمن يـراهم عن بعد، أن عدة جيوشهم لا تحصى، ولا قبل لأحد بها!!

وصفهم معاصروهم بأنهم كارثة من كوارث الطبيعة كالزلـزال، تهز الأرض هزاً عنيفاً!

وشاعت أخبار فظائعهم، حتى بلغت أقصى شمال أوروبا، فامتنـع الصيـادون في السويـد، عن الخروج للصيـد بـالقـرب من شـواطىء انجلترا، كما ألفوا من قبل . .

استولوا على بغداد، وأسقطوا الخلافة، وارتكبوا فيها من الفظائع، ما لم يعرفه التاريخ من قبل . . !

حدث هذا قبل أن يولد تقي الدين بـن تيمية بسنوات قلائل . .

بلغ تأثير هذه الفظائـع التي عصرت القلوب، أن جف المـداد من أقلام الكتاب، لتسيل الدموع!

خرست الألسنة، وجمدت في الأفواه، لتنطلق الزفرات!!

وفي هذا يقول المؤرخ الكاتب الثقة ابن الأثير: «لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة، استعظاماً لها كارهاً لذكرها، فأنا أقدم اليها رجلاً وأؤخر أخرى، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الاسلام والمسلمين؟! ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدي. ان هذا الفصل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقمت الأيام والليالي عن مثلها. عمت الخلائق، وخصت المسلمين. فلو قال قائل: ان العالم منذ خلق الله سبحانه وتعالى الى الآن لم يبتل بمثلها، لكان صادقاً،فان التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها.

ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة الى أن ينقرض العالم..

وهؤلاء لم يبقوا على أحد، بل قتلوا النساء والرجال والأطفال، وشقوا بطون الحوامل، وقتلوا الأجنة..

فان قوماً خرجوا من أطراف الصين فقصدوا بلاد تركستان، ثم منها الى بلاد ما وراء النهر مثل سمرقند وبخارى وغيرهما، فيملكونها ويفعلون بأهلها ما نذكره، ثم تعبر طائفة منهم الى خراسان فيفرغون منها تخريباً وقتلاً ونهباً، ثم يتجاوزونها الى الري وهمذان وبلد الجبل وما فيه من البلاد الى حد العراق في أقل من سنة.. هذا ما لم نسمع بمثله.

ومضت طائفة أخرى غير هذه الى غزنة وأعمالها وما يجاورها من بلاد الهند وسجستان وكرمان، ففعلوا فيها مثل فعل هؤلاء وأشد. هذا ما لم يطرق الأسماع مثله.

فـان الاسكندر، الـذي اتفق المؤرخون على أنـه ملك الدنيـا، لم يملكها في هذه السرعة، انمـا ملكها في نحـو عشر سنين، ولم يقتـل أحداً، انما رضي من الناس بالطاعة. وهؤلاء قد ملكوا أكثـر المعمور من الأرض وأحسنه وأكثره عمارة وأهلاً، وأعـدل أهل الأرض أخـلاقاً وسيرة في نحو سنة، ولم يبت أحد من البلاد التي لم يطرقوها الا وهو خـائف يتوقعهم ويتـرقب وصـولهم. . أمـا ديـانتهم فـانهم يسجـدون للشمس عنـد طلوعهـا، ولا يحـرمـون شيئـاً، فـانهم يـأكلون جميـع الدواب حتى الكلاب. . ولا يعرفون نكاحاً (زواجاً) بل المـرأة يأتيهـا غير واحد من الرجال فاذا جاء الولد لا يعرف أباه».

هكذا كان التتار. .

ملكـوا أرض المسلمين حتى العـراق، ثم استـولـوا على حلب ودمشق وسـائر ديـار الشام حتى غـزة، وهم حيثما سـاروا، يفسـدون وينهبون ويقتلون بلا رحمة. .

وأرسـل ملكهم هولاكـو الى سلطان مصر والشـام سفـراء يحملون أمـراً بالتسليم، والمجيء اليـه صـاغـراً: «فـأي أرض تـأويكم، وأي طريق ينجيكم، وأي بلاد تحميكم؟ فما لكم من سيوفنا خلاص». .

فأرسل اليه السلطان «قطز» رداً منكراً يليق بالرسالة.

وجمـع مجلساً من علمـاء مصر وفقـائها وأمـرائها، وقـادتها وأهـل المشورة والرأي فيها، وأجمعوا على أن يجاهدوا التتار.

وخرج اليهم على رأس جيش، كان أبـرزه قواده الـظاهر بيبـرس، من رجال يؤثرون الآخـرة على الدنيـا، ومعهم علماء وفقهـاء يمتطون

الصهوات، ويعمرون القلب بالأمل في نصر الله . .

صاح فيهم السلطان «واسلاماه»!

وشـدوا جميعاً على التتـار، فأذهلوهم، وانخلع قلب التتـار، فمـا لقـوا من قبـل جيشـاً كهـذا. وتـطايـرت رؤوس قـادة التتـار، وسقط العديدون منهم تحت سنابك الفرسان المصريين، وسقط قائـد جيش التتـــار، فـلاذوا بـــالفـرار، ولاحقهم المصـــريـون حتى أجلوهم عن الشام . . عن العاصمة دمشق، وعن كل أرض الشام . .

حدث هذا عام ٦٥٨ قبل أن يولد تقي الدين بعامين.

وفي الحق أن بغـداد ما كـانت لتسقط تحت غزوات التتـار، لـولا التواطؤ!

فقد استولى على عقل الخليفة رجل واسع الحيلة، شديد الدهاء، بارع النفاق، ينكر اليوم ما قاله بالأمس، ويقول غداً غير ما أقسم عليه اليوم، منافقاً في ذلك الخليفة، منحنياً أمام اتجاه الريح!!.

وما زال بالخليفـة الطيب، يـداهنه في ذكـاء، وينافقـه في حذق، حتى عينه الخليفة وزيره الأول، وألقى اليه بمقاليد الأمور جميعاً!.

شعر الوزيـر الأول انه أحق بـالخلافـة من سيده، وأراد في الـوقت نفسـه أن يضـرب خصـومـه من أعـداء مـذهبـه الـديني . . . والكـــل مسلمون!.

كـاتب التتار سـراً، واستقـدمهم، وفتـح لهم الابـواب التي أؤتمن عليها . . وظل ينافق الخليفة ويخدعه، والتتار يزحفـون، فزين لـه أن يصالحهم على نصف خراج العراق، ونصح لقائدهم هولاكو أن يرفض. !

وفوجيء أهل العراق بالتتار يستولون على بغداد عاصمة الخلافة، ويقتلون الخليفة، وينهبون ويسفكون، حتى لقد أصبحت ليالي بغداد حمراء بلهب الحرائق، وأصبح ماء دجلة قانياً بلون الدم، وتعطل مجراه لكثرة ما ألقي فيه من جثث الضحايا، ومن الآلاف المؤلفة من أوراق مكتبات بغداد!! . .

ثم ولوا الوزير الأول مكان الخليفة، تحت سلطان احتلالهم . .

وما استطاع التتار أن يفتحوا أي بلد عربي أو اسلامي، الا من خلال المنافقين، الذين يستولون على عقول ساداتهم، ويكاتبون التتار سراً، ويفتحون لهم الأبواب المغلقة خيانة وغدراً . .

هكذا كان المنافقون . . وكذلك يفعلون! . .

ولقد شهد تقي الدين في صباه زحف التتار على حران، وعاين فزع الناس، وهم يفرون . .

* * *

كان سلطان مصر والشام هو الناصر محمد بن قلاوون، وحين علم بزحف التتار على الشام تحدث مع أهل مشورته من الأمراء فرأى بعضهم أن يسالموا التتار ويعاهدوهم، فهم الآن مسلمون . . !

واستشار السلطان أصحاب الفتيا من العلماء والقضاة والفقهاء، فأفتوه أن التتار مسلمون حقاً، الا أنهم أصبحوا بزحفهم على بلاد غيرهم من المسلمين، غزاة بغاة، يجب قتالهم شرعاً . .

وخرج عسكر السلطان يقوده أمراء تمزقهم الخلافات والأطماع . . وهج الشمس على خوذاتهم، وعلى الدروع والملابس الموشاة

بـالذهب، ولا شيء في الصـدور غير هـواجس الـدسـائس، وأحـلام السلطة.. والقلوب خواء!

وانكسـر جيش السلطان أمـام التتـار.. وفـر الأمـراء بـأحـلامهم، يقودون جنداً لم يحـاربوا الا معـركة واحـدة أبلوا فيها أحسن البـلاء، ولكن أمـراءهم لم يثبتوا، وفـروا حرصـاً على حياتهم، وقـادوهم الى الانسحـاب، فانكشفت دمشق أمـام التتار الـزاحفين.. ووقفـوا على أبوابها..

سيطر الذعر على الناس، وفـر كل من في دمشق من أولي الأمـر، حتى العلمـاء والفقهـاء!! ولم يعـد على السجـون حــراس، فخـرج اللصوص الكبار والفتاك، ينهبون ويعتدون!

لم يبق في دمشق الا نفر قليل من كبار رجالهـا، وعلى رأسهم تقي الدين بـن تيمية..

وخـلال هذا المضـطرب، طاف تقي الـدين بالـطرقات والجـوامع يحض الناس على الجهاد..

وأمـر أتبـاعـه من الشبـاب الـذين عـودهم على تقـويـة أبــدانهم بالرياضة، أنم ينهضوا للقبض على اللصوص والفتاك الذي هربوا من السجون، فيجب أن يأمن كل من بقي في دمشق على ماله وعرضه!

وعلى الذين لا يريدون جهاد التتار لأنهم مسلمون، أن يـدركوا أن التتار خوارج وقـد أوجب الله قتالهم.. وقـد قاتـل علي بن أبي طالب رضي الله عنه أمثالهم. وقال كرم الله وجهـه: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: سيخرج قوم في آخر الزمان أحداث الأسنان سفهـاء الأحلام:

يقولون من خير قول البرية، لا يجاوز أيمانهم حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فان في قتلهم أجراً لمن قتلهم يوم القيامة». وفي رواية لمسلم عن علي رضي الله عنه قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: يخرج قوم من أمتي يقرءون القرآن، ليس قراءتكم الى قراءتهم بشيء، ولا صلاتكم الى صلاتهم بشيء، ولا صيامكم الى صيامهم بشيء، يقرءون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم، لا تجاوز قراءاتهم السهم من الرمية».

قال ﷺ عن أمثالهم: «يقتلون أهل الإيمان، ويدعون أهل الأوثان، لئن أدركهم لأقتلنهم قتل عاد».

فالنبي ﷺ حرض على قتال الذين استحلوا دماء سواهم من المسلمين.. فهؤلاء هم الذين قتلهم أمير المؤمنين علي رضي الله عنه.

* * *

وطاف الشيخ بتجار السلاح، يفتيهم أن مقاومة التتار جهاد في سبيل الله.. فليجاهد هؤلاء التجار في سبيل الله بأموالهم، ولهم أجر الجهاد بالنفس.. فليبذلوا السلاح لمن يريد بلا مقابل، أو بثمن بخس!..

وفي ساعات قلائل، استطاع تقي الدين أن يستنفر سواد الناس، فأغلقوا أبواب دمشق، ووقفوا دونها مسلحين ما استطاعوا، وعلى رأسهم أتباع تقي الدين من الشباب المدربين..

وأمسك هؤلاء الشباب باللصوص والفتاك الذين فروا من

السجون، وأعادوهم اليها، وعينوا عليهم حراساً من أشد شباب دمشق صلاحاً وصلابة وقوة. .

واطمأن كل من في دمشق على عرضه وماله!

أصبح تقي الدين بن تيمية هو حاكم دمشق الفرد المطاع، فأمر باغلاق الحانات، ودور الفساد واراقة الخمور.

ومضى الشيخ يفتش عن أحد من الفقهاء، وأهل الشورى والأعيان، والأمراء وولاة الامر فلم يجد أحداً منهم يشاوره!

فروا جميعاً خارج دمشق، وتركوا الرعية وحدها تواجه التتار. . !

إين هؤلاء العلماء والفقهاء الذين كانوا يجلبون عليه، ويتهمونه بالزيغ والضلال والكفر، لأنه أفتى في الرسالة الحموية بوجوب الايمان بصفات الله تعالى، وأسمائه الحسنى، كما جاءت في القرآن والحديث بكيفية لا يعلمها الا الله ورسوله؟! أين مخالفوه؟!

وحتى الذين انتصروا له من العلماء والفقهاء. . أين هم؟!

لا أحد على الاطلاق: لا الخصوم ولا الانصار. . !!

كلهم فر ناجياً بنفسه وماله. . حتى الفضلاء. . !

وأخيراً وجد نفراً قليلاً من الاعيان، فاجتمع بهم، يتدبرون الأمر.

وعلم منهم أن بعض ولاة الامر والفقهاء، قد أسرعوا الى معسكر التتار، يرحبون بسلطانهم قازان، ويعلنون له الولاء، فهو سلطان مسلم، ما غزا الشام، وطرق عاصمته، الا لاصلاح ما فسد من أمور المسلمين. . ! . . يا للمنافقين. . ! يعرفون من أين تؤكل الكتف. . وكذلك يفعلون. . !

وعلم أن هؤلاء المنافقين، يطالبون قائـد القلعة التي تحمي دمشق بأن يسلم القلعة للتتار حقناً لدماء المسلمين: أهل الشام والتتـار على السواء!.

كـان على رأس هؤلاء «سيف الدين المنصـوري». وهو رجـل من أهـل السطوة والنفـوذ في دمشق، وأحد الـذين ألبوا النـاس على «ابن تيمية»، احتجاجاً على «الرسالة الحموية».

وسأل الشيخ عن «سيف الدين» فعلم أنه على رأس الذين أسرعـوا الى السلطان «قازان» ليرحبوا به، ويعلنـوا له الـولاء، ويفاوضـوه على تسليم القلعة والمدينة بلا قتال!!

فأرسل ابن تيميـة الى قائـد القلعة رسـالة عـاجلة: «لو لـم يبق في القلعة الا حجر واحد فلا [illegible] ذلك الحجر ان استطعت»..

واستقـوى قائـد القلعـة بنصيحـة الشيـح [illegible] فض التسليم، على الرغم من الحاح أكثر الاعيان والفقهـاء عليه أن يلقي السـلاح ويذعن ويستسلم.. والصلح خير!!.

* * *

نـظر ابن تيمية ومن اجتمـع بهم في الامـر كله فـوجـدوا أن التتـار يستـطيعـون أن يحـاصـروا دمشق، حتى يهلك أهلهـا جـوعـاً.. ويستطيعون بأدواتهم الحربية الحديثة أن يحرقوها ويدمروهـا، وما في المدينة غير السيوف والحراب وقضبان الحديد، وقطع الحجارة!!

ولكنه رأى أن من بقوا في المدينة يجب ألا يستسلموا، وأن يقاتلوا

حتى بالاظفار!! فان اقتحم التتار دمشق، لاقوا فيها الجحيم في كل ذراع من الارض، وفي كل دفقة من الهواء.. ومن قبل اقتحم الصليبيون مدينة «المنصورة» في شمال مصر، فقاومهم أهل المنصورة بالحراب والسيوف والقضبان الحديد، والحجارة، وبالزيت المغلي تصبه النساء من فوق أسطح المنازل.. وأمسك الناس بخناق قائد الحملة لويس التاسع في أحد طرقات المنصورة فأسروه، وفر جنده، ولكن الجيش المصري قطع عليهم طريق الفرار.. وسجن الملك لويس التاسع، ولم يفكر الصليبيون بعد ذلك في مغامرة كتلك..!!

ستقاوم دمشق، وتظل تقاوم، الى أن تهب جيوش العرب والمسلمين لنجدتها، وسينصر الله من ينصره.

ولكن أين هم العرب والمسلمون؟! لن يهب منهم أحد! أهم ينصرون الله حقاً، لينصرهم الله..؟!

ان بأسهم بينهم لشديد، فقد مزقتهم الخلافات الداخلية، فشغلوا بها، ولن يشهر أحدهم سيفاً لنصرة اخوانهم المكروبين، وان رفعوا الاصوات بالنكير..!.. كلمات لن تنقذ أرضاً، أو حياة انسان واحد، ولكنها تستنفر التتار للغلو في البطش!.

سيدك التتار دمشق على من فيها، وسيسفكون ويسفكون الى آخر قطرة في دماء أصغر طفل من ابناء دمشق، وما من مسلم في المشرق أو المغرب يشهر سيفه للنجدة!.. يا للرجال!!

واذن فلا بد من حل آخر!

لقد أعلن التتار اسلامهم، وسلطانهم قازان يزعم أنه حسن الاسلام!

واذن فلتذهب اليه يا تقي الدين، فتقنعه بأن حكم الشرع ينهاه عن غزو بلاد المسلمين، وعن أن يفسد فيها، ويسفك فيها الدماء. . !

لقد صالح الرسول ﷺ كفار قريش في الحديبية، حين وجد أن الصدام يعني الكارثة. . فالمسلمون جاءوا حجاجاً ورعين بلا سلاح، وقريش في العدة والعديد. . !!

وهكذا نجا المسلمون بحكمة الرسول ﷺ،وأثابهم الله فتحاً قريباً. .

ليس الشجاع من يصرع غيره، ولكنه من يملك نفسه عند الغضب. . هكذا علمنا عليه الصلاة والسلام. .

اللهم أذهب غيظ قلوبنا، وأشف صدور قوم مؤمنين!

ما أعظم أجر من يسعى في عمارة الارض، ورفع البلاء عنها!!

واذن فلتذهب يا تقي الدين الى سلطان التتار، تطلب منه صلحاً مشرفاً: أن يكف يده عن دمشق، وأن يسحب جيوشه ويعود الى بلاده، وألا يعدو ولا يبغي من بعد على اخوانه المسلمين. . فهذا هو قضاء الاسلام الحق! . .

فان قبل قازان، فقد امتثل لحكم الشريعة، وان أبى واستكبر، فهي القارعة. . !

فلتكن القارعة، فلا مناص، وسنقاوم حتى آخر نفس من حياة. . !!

وتحدث الشيخ تقي الدين بن تيمية الى بقية الملأ من قومه فيما

يفكر فيه، ففزعوا من لقاء سلطان التتار، وخشوا أن تسقط رؤوسهم قبل أن يرفع تقي الدين صوته بكلمة واحدة!

انه ليشق على النفس الأبية، أن تسعى الى الصلح مع هؤلاء الوحوش البغاة، ولكن ان كان هذا السعي سيرفع البلاء الواقع، وينتج عنه انسحابهم، فهو جهاد في سبيل الله. .

أتخافون القتل ان ذهبتم الى قازان. . فماذا ان بقيتم؟! ستهتك حرماتكم، وأنتم تنظرون، ، ويفسق ببناتكم وولدانكم وأنتم صاغرون. . ثم تقتلون!!. . فلنركب الى «قازان» عسى الله أن يكف عنا بأس التتار، وللراكب في أمر كهذا أجر مجاهد! فان أبوا الا الحرب، فستدافع دمشق عن نفسها حتى الموت!

وركبوا حتى اذا بلغوا معسكر التتار، تقدمهم تقي الدين بن تيمية.

ونظر في وجوه اصحابه، فوجدها ممتقعة، وخيل اليه أنهم يرتعدون! ودعا الله أن يثبت قلوبهم، فلا يخافوا ولا يحزنوا. .

وقال وهو يدخل خيمة السلطان: «تقدموا ورائي، ولا يلحظ قازان عليكم شيئاً فيغريه بكم وجلكم منه! نحن على الحق والله معنا، والله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين».

وتقدم فسلم على السلطان قازان، فوجد عدداً من علماء دمشق وامرائها، وعلى رأسهم سيف الدين المنصوري. . أشد أهل دمشق فظاظة وقسوة!

كانوا يداهنون سلطان التتار!!

أين شـوكتكم وتشـامخكم وحميتكم بـالأمس؟ كنتم تغـرون بي العامة، زاعمين انكن تغضبون لله؟! ألا غضب لله بعد؟!..

وتكمـل الشيخ تقي الـدين، فحمد الله وأثنى عليـه، وصلى وسلم على رسوله الذي جاء بالعدل، والهدى، والاخاء بين الناس..

كـانت المهابـة تعلو الشيخ، وتشـع منه هيبـة تفرض على الـرائي اكباره، وفي صوته وفي ملامحـه كلها ثقـة راسخة.. تلك الثقـة التي يمنحها الايمان، والتي تجعل المؤمن الحق لا يخاف غير الحق!..

تـلا الشيخ الآيـة الكـريمـة: ﴿**واذكـروا نعمـة الله عليكم اذ كنتم أعـداء فألف بين قلوبكم فـأصبحتم بنعمته اخـوانـاً**﴾ ومضى الشيـخ يشـرع معنى الآية، وحكم الله في الفئـة المسلمة التي تبغي على فئـة مسلمـة أخرى.. لقـد أمر الله المسلمين أن يقـاتلوا التي تبغي، حتى تفيء الى أمر الله..

وهؤلاء التتـار فئـة مسلمـة، ولكنهـا حين تغـزو أرض المسلمين الآخـرين طمعاً في جـاه الدنيـا، فقـد بغت وأصبحت من الخـوارج، فيجب على المسلمين قتالهم.. هكذا قـاتلهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه.. فان جنحوا للسلم فاجنح لها.

ورأى الشيخ عددا من الباطنية المنتسبين للشيعة، فروى عـدداً من الاحـاديث التي رواها الامـام علي كـرم الله وجهـه في ايجـاب قتـال الخوارج، وهي تلك الأحاديث التي شرحها الشيـخ لأهل دمشق قبـل أن يخرج للقاء قازان.. لعل المنتسبين الى الشيعة يخجلون..!

أخـذ السلطان قازان بهيبـة الشيـخ . . وكلمـا تـرجم لـه المتـرجم عبارة، كبرت في قلبه مهابة الشيخ، فلان قلب قازان على الـرغم من سطوته وجبروته!!

وصف أحد الحاضرين ما دار: «جلس الشيـخ الى السلطان قازان حيث تجم الاسود في آجامها، وتسقط القلوب داخل أجسامها، خوفاً من ذلك السبع المختال، والنمرود المحتال، والاجل الـذي لا يدفـع بحيلة محتال. . جلس اليه، وأومأ بيده الى صـدره، وواجهه ودرأ في نحره».

وعجب السلطان قازان لهذا الشيخ الأعزل!.

لكأنه هو المنتصر والسلطان أسير ذليل!!

انه مع ذلك في قبضتك يا قازان، وتستطيع أن تـأمر بقتله، وأمـراء جيوشك من حولك ينظرون في تربص يخالجه الذهول!!

ما الذي يكف يديك عنه؟!

انك لتملك كل مـا ينبغي أن يثير فيـه الرعب، وهـو لا يملك شيئاً على الاطلاق!..

أي سـر في هـذا الشيـخ يجعلك تحتمله، وتتنحّى في جلستـك، كلما دفع بيده في صدرك، أو لوح بذراعيه في وجهك؟!

ما بال هذا الشيخ يصنـع بك، مـا يصنع المـدرب الحاذق بـالسبع الكاسر، يروضه حتى يخضعه، ويصبح كالقط الأليف!!.

انك لمسلم مثله يا قازان، وأنت بعد سلطان قـاهر، يخلع اسمـك قلوب الآخرين!!

وارتفع صوت الشيخ: «الله القاهر فوق عباده. . صدق الله العظيم».

ونظر اليه السلطان متهيباً. .

أي ايمان بالله يجعل هذا الشيخ يشعر في أغوار نفسه، انه أقوى من كل هذه الآلاف المؤلفة المدججة بالسلاح؟! انك أنت نفسك لتتزايل أمامه الى الاعماق يا سلطان التتار!

واستمر الشيخ يقول للمترجم: «قل للسلطان انك تزعم أنك مسلم، ومعك قاض وامام وشيخ ومؤذنون على ما بلغنا، وأبوك وجدك كانا كافرين، وما عملا الذي عملت، عاهدا فوفيا، وأنت عاهدت فغدرت، وقلت فما وفيت، وجرت»

ها هو ذات يتهمك بخيانة العهد وبالغدر والجور، أمام رجالك وأتباعك واللائذين بك من علماء دمشق وأمرائها ووجهائها. . ؟!!

من لك ببطش جنكيزخان، وهولاكو؟!

وتحدث حساد ابن تيمية وخصومه، فاتهموه بالغرور والصلف، وحاولوا في نفاقهم للسلطان، أن يغروه به، ليقتله تنفيذاً لحكم الله فيمن يخرج على السلطان، ويبغي الفتنة في الأرض، ويفرق كلمة الأمة التي اجتمعت اليوم على الولاء للسلطان العظيم قازان. . !!

ولكن السلطان أقبل على الشيخ، مصغياً له، شاخصاً اليه، وقد أوقع الله في قلبه محبة للشيخ ومهابة. . وان من الحجارة لما يشقق فيخرج منه الماء!!

قـال السلطان: «لم أر مثل الشيـخ تقي الدين بن تيميـة، ولا أثبت قلباً منه».

وأراد السلطان أن يتقرب الى الشيخ، ويكرمه، فأمر بالطعام..

صفت المـوائد بـأشهى المأكـولات، وأقبل السلطان على الشيـخ ليأكلا معاً على مائدة واحدة.. ومعهم النفر الذين جاءوا مع الشيـخ، أما علماء دمشق وأمراؤها وأعيانها الذين لاذوا بالسلطان، وجـاءوه من قبل، فقد تفرقوا على موائد أخرى، بعيداً عن السلطان..

وبدأ الجميع يأكلون الا ابن تيمية..

سـأل السلطان عن سبب امتنـاعـه، فقـال الشيـخ «كيف آكـل من طعامك، وكله مما نهبتم من أغنام الناس.. وطبختموه بما قطعتم من أشجار الناس؟!».

فكف السلطان عن الطعام.. ونظر الى الشيخ..

وساد صمت متوتر..!

ويصف أحـد مصاحبيه ما حدث في تلك اللحظة المرهفة:

«كنا معه على مائدة السلطان، فأخذنا نجمع ثيـابنا، خـوفاً من أين يقتل فنطرطش بدمه».

وبغته.. خرج السلطان عن صمته، فطلب من الشيخ الدعاء..!

دعـا الشيخ: «اللهم ان كنت تعلم انـه انما قـاتل لتكـون كلمة الله هي العليا، فأن تنصره، وأن كان للملك والدنيا والتكاثر، فأن تفعل به وتصنع».

وأمن السلطان على الدعاء..!

ومـا زال الشيخ بـالسلطان، حتى وعد السلطان، بـأنه سيسيـر في الناس سيرة مسلم حسن الاسلام، وسيسحب جيوشه الجرارة ويقفـل راجعاً الى بلاده . .

وخرج تقي الدين معززاً مكرماً. أما الذين صحبوه، فقد خافـوا أن يـرســل السلطان وراءهم من ينقضــون عليهم غـيلة، ويـقتـلونهـم جميعـاً . . وكان السلطان معـروفاً بـالبطش والـدهـاء كغيـره من ملوك التتار . .

قال أحد الذين صحبوه: «لما خرجنا قلنا له: كدت تهلكنـا معك. ونحن ما نصحبك من هنا. فقال الشيخ: وأنا لا أصحبكم. فـانطلقنـا عصبة، وتأخر، فأتاه أمراء التتـار من كل فـج، وصاروا يتـلاحقون بـه ليتبركوا برؤيته. فما وصل دمشق الا في نحو ثلثمائة فارس في ركابه، وأما نحن فخرج علينا جماعة (من قطاع الطريق) فشلحونا».

* * *

عاد ابن تيمية الى دمشق، فـأمن الناس، وحمـل اليهم وعد قـازان أنه لن يدخل دمشق، بل سيرحل عن الشام كله.

ومـا أن انصـرف ابن تيميـة من عنـد قـازان. حتى اجتمـع بقـواده وتشاوروا في الأمر، ثم أرسل منشوراً إلى أهل دمشق يؤمنهم فيه على حياتهم وأموالهم وأعراضهم، ولكنه طلب منهم أن يسلمـوه ما لـديهم من سلاح وخيل وأموال!

وحرضهم ابن تيمية على الا يسلموا شيئاً، فقد وعده السلطان أنـه لن يدخل دمشق، ولم يشترط عليه شيئاً . .

وانتظر ابن تيمية يوما فيومين. .

ومرت ثمانية أيام، ولم يف قازان بوعده، بل انطلق بعض جنوده مع بعض أفراد من الباطنية والحشاشين الذين حالفوا التتار، فهاجموا أطراف دمشق، وأحرقوا وأتلفوا، وسبوا النساء، وقتلوا الرجال. . كل ذلك تحت راية الاسلام!!. .

وخرج ابن تيمية مرة أخرى الى قازان، يشكو اليه عدوان جنده على دمشق، بعد أن وعد بأنه لا يدخلها!

وما زال ابن تيمية يجادل السلطان قازان، حتى وعده بأن سينسحب الآن بجيشه. . فطالب بفك الاسرى، ففك قازان الاسرى من المسلمين.

ولكن ابن تيمية أقنعه أن يطلق الاسرى من المسيحيين واليهود، فكلهم من أهل الشام، وهم أهل ذمة، في ذمة الله ورسوله.
وأطلق قازان الاسرى جميعاً، وأذن بالرحيل، وترك دمشق، والشام جميعاً. .

عاد الشيخ الى دمشق، ومر في طريقه بالقلعة فهنأ قائدها بانسحاب التتار، وحياه على ثباته وشجاعته، ودخل دمشق بالبشرى: «انسحب التتار».

ضجت دمشق بالفرح، وخرج النساء بأطفالهن مهللات، وأقيمت الزينات. وعاشت دمشق أياماً وليالي تحتفل بانتصارها دون أن تريق من دماء بنيها نقطة واحدة!

واتجهت القلوب بالاكبار للشيخ . . حتى لقد أصبح ملك دمشق غير المتوج .

فطالب الناس أن ينصرفوا الى أعمالهم ، وانصرف هو يدرس ويعظ ، ويقرأ ، ويكتب .

وعكف يجمع الآيات والأحاديث التي نصت على الجهاد ، ويحاول أن يستنبط منها حكماً عاماً ، ويدرس في ذلك كل ما خلفه السلف ، وبصفة خاصة الامام أحمد بن حنبل . .

أما العلماء والفقهاء وأولو الامر الذين كانوا قد هربوا ، فقد عادوا منكسرين !

وهدأ الحساد والخصوم ، فما كان أحد يستطيع أن يفوه بكلمة أو نبسة على الشيخ الذي أصبح ملء السمع والبصر والقلب ، من الناس جميعاً .

ورأى جماعة من الذين لاذوا بالسلطان قازان ، أنهم لا يستطيعون الحياة في دمشق بعد ، فآثروا أن يصحبوه ويلزموه ، وذهبوا معه ، وكان على رأسهم سيف الدين المنصوري .

* * *

وفي القاهرة عاصمة الدولة ، كان السلطان الناصر محمد بن قلاوون منذ عاد بالجيش المنكسر ، يعد العدة لكرة أخرى على التتار . .

كان دائم البكاء ، منذ انسحب بالجيش ، ودخل دمشق في فلول منهزمة عائداً الى القاهرة !

ما زالت تعذبه صور نساء دمشق، وقد خرجن حواسر يعتصرهن الذعر، وفي الاحضان أطفال يصرخون!

ما زال يذكر ازراء الناس به وبجيشه على طريق الفرار والانكسار من دمشق الى القاهرة!

مرائي الهزيمة تمر أمام عينيه، من خلال الدموع، في كل نهار وليل.

وانه ليذكر تحت وطأة الاحساس بالعار والمهانة، أن بعض الفرسان الأشاوس خلعوا ملابسهم العسكرية، وتنكروا، ليتفادوا زراية الناس وسخطهم..!

ولهو يبكي ويبتهل الى الله ألا يجعل ولايته نحساً على الأمة، اذ بالحمام الزاجل يحمل اليه رسالة عاجلة من دمشق، أن الشيخ تقي الدين بن تيمية، أحد كبار الفقهاء في دمشق، قد أقنع التتار بالانسحاب فانسحبوا..

من الشيخ تقي الدين بن تيمية هذا؟! لقد صنع وحده معجزة لم يقدر عليها عسكر مصر والشام جميعاً بقيادة السلطان الناصر نفسه!!

وأمر السلطان بالدعاء لابن تيمية، وأقسم أن يكافئه أجزل مكافأة، ولكن أحد الفقهاء قال له انه لا يقبل المناصب ولا الهبات أو العطايا.. فأعلن السلطان أنه سيجعل لابن تيمية الكلمة القاطعة فيما يشير به، وسيكون له الرأي الحاسم فيمن يتولون المناصب الكبيرة.

وبعد أيام أرسل السلطان قازان الى السلطان الناصر محمد بن قلاوون وفداً من ثلاثة رجال كبار: عراقي هو قاضي الموصل،

والثاني ايـراني والثالث تركي، وهما أميران.

وأمـر السلطان الناصـر فزين القصـر بالشمـوع وأقيم احتفال رائـع لاستقبالهم، شهده فقهاء مصر وقضـاتها وأمـراؤها وأعيـانها في أفخـر ثيـابهم. . وسطعت أضـواء الشموع على مـلابس الأمراء المـزركشـة المحلاة بالذهب. .

رحب السلطان بالوفد ترحيباً حاراً، وخـطب الموصلي، فـذكر أن الله تعالى أمرنا بالمسالمة، وجعل المسلمين اخواناً، ثم دعا للسلطان الناصر وأمراء مصر، وسلم رسالة مختومة، فأخذها السلطان وفضها، فاذا السلطان قازان ينهي اليه فيها أنه ما زحف الى بلاد الشام غازياً أو باغياً، ولكن رداً على عدوان عسكر الشام التابعين للسلطان النـاصر، فقد كانوا غزوا أطراف بلاده ونهبوها وأكثروا فيها الفساد، فخرج ذائداً عن حـوض الشريعـة، وزحف حتى بلغ دمشق، وكـان في وسعـه أن يفتحهـا، ولكنه عـاد الى وطنه حقنـاً للدماء، وحـرصاً على البـلاد ألا تخرب!

وهـو الآن يـطلب الصلح من سلطان مصـر والشـام، فـأذا أبى الا الحرب فهي الحرب، ولكن الصلح خير. .

وخـرج السلطان الناصـر الى قاعـة أخـرى، ومعـه عـدد من عليـة الأمراء وأهل العلم يتشاورون. .

وبعـد قليل دعـا اليه القـاضي العراقي رئيس وفـد قازان وقـال له: «أنت من أكابر العلماء، والدين النصيحـة، ونحن ما نقـاتل الا لقيـام الدين، فان كانت الدعوة الى الصلح من قبيل الحيلة والدهاء، فنحن

نحلف أن ما ستقوله لنا سيبقى سراً بيننا، لا يعلم به أحد سوانا» فأقسم القاضي العراقي أن السلطان قازان، راغب في الصلح حقاً وصدقاً . .

وكتب السلطان الناصر رداً الى قازان، نفى فيه أن عسكره بالشام قد اعتدوا من قبل على أطراف دولة قازان . .

ورحب بالصلح «واستقرار قواعده على ما يرضي الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام». ودعا الى التحالف لقمع أهل الشرك في سائر الممالك.

وأقام السلطان الناصر لضيوفه احتفالات كثيرة، وخرج بهم مع حاشيته والأمراء للصيد في الخلاء، فأقاموا أياماً وليالي، بهرهم فيها بذخ السلطان، وما عليه مصر من ثراء. . كانت الخيام أروع من القصور، والليل في الصحراء يضيء بالمشاعل، حتى لكأنه النهار! . .

واهتم الوفد بالتعرف على جيش مصر، وأبدى اعجابه بنظام الجيش . .

وعندما انتهت الزيارة حملهم السلطان بالهدايا الفخمة للسلطان قازان، وأنعم عليهم بالأموال والعطايا والألطاف، وزودهم السلطان بكل ما يحتاج اليه الطريق. ثم ختم رسالته بخاتم الدولة وسلمها الى رئيس الوفد: القاضي الغراقي.

* * *

عاد أعضاء الوفد الى سلطانهم قازان يصفون له ما شاهدوا في

مصر من غنى، وما عينوه من دقة في نـظام الجيش، وما أتيـح لهـم أن يتعرفوا عليه من أسرار أخرى. . !

كانوا كلهم جواسيس. . !

وفي الحق أن قازان، كان يطمع في الاستيلاء على مصر ومـا يليها ليحكم الدنيا من القاهرة، فـأرسل هـذا الوفـد ليعمل على كسب ثقـة السلطان، ويتعرف على كل ما تحتاجه خطة الغزو، وأرسل مع هؤلاء الثلاثة حـرساً ضخمـاً وفير العـدد، كلهم جواسيس، وزودهم بـالمال ليصطنعوا الأعوان. . فانطلقوا يدرسون كل شيء، وكل مكان. .

* * *

لم يكد يمضي عام على انسحاب قازان بعسكـره، حتى شاع أنـه يستعد لغزو مصر والاستيلاء على مقر السلطنة في القـاهرة، ويـزحف الى الغرب فيستولي على المغرب وأسبانيا وأوروبا. . ! وانه في طريق غزوه سيجتاح الشام! ويضع يده على دمشق. . !

ما كان انسحابه عن الشـام، أو دعاؤه بـالصلح الا خدعـة، الى أن يتعـرف على مصـر ودروبهـا، ويحشـد لهـا مـا يقهـرهـا من العـدة والعديد. . فيستولي على القاهرة عاصمة دولة مصـر والشام. . ومنهـا يحكم العالم كله!

من جديد يسود الذعر أهل دمشق والشام. . فاذا بالناس يـرحلون، واذا أهل دمشق يتزاحمون على الجامـع الكبير، حيث ألف ابن تيميـة أن يلقي دروسه، وفتاواه. .

ولم يلق ابن تيمية دروساً بعد، بل حض الناس على الجهاد. .

خـــرج الى الـطريق يخـــطب النـاس. . وانتقـــل من مسجـد الى مسجد. . يحرض النـاس على القتال. . ويقنعهـم أن السلطان قـازان لا عهـد له، وهـو غادر فـاتك، يقـود فئة خـارجة عن الاسـلام، ومن والاهم فهومنهم، ومن خافهم، فقد عصا الله ورسوله.

قال: لقد أذن الله للمؤمنين بالقتال بقوله تعالى:

﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلمـوا، وان الله على نصرهم لقـدير. الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله، ولـولا دفع الله النـاس بعضهم ببعض لهدمت صـوامع وبيـع وصلوات ومساجـد يـذكر فيهـا اسم الله كثيـراً، ولينصـرن الله من ينصـره، ان الله لقـوي عـزيز. الـذين ان مكناهم في الأرض أقـامـوا الصـلاة وآتـوا الـزكـاة وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور﴾.

ثم ان الله تعـالى بعد ذلـك أوجب القتـال: **﴿كتب عليكم القتـال وهـو كره لكم، وعسى أن تكـرهوا شيئـاً وهـو خيـر لكم، وعسى أن تحبـوا شيئاً وهـو شر لكم. والله يعلم وأنتم لا تعلمـون﴾**. وأكـد الله تعالى ايجاب القتال، وعظم أمر الجهاد، في عـامة السـور المدنيـة، وذم التاركين له، ووصفهم بالنفاق ومرض القلوب فقال تعـالى: **﴿قل ان كـان آباؤكم وأبنـاؤكم واخـوانكم وأزواجكم وعشيـرتكم وأمـوال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن تـرضونهـا، أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره، والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾**. وقال تعالى: **﴿انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله، ثم لم يـرتابـوا وجاهـدوا بأمـوالهم وأنفسهم في سبيل الله،**

وأولئك هم الصادقون﴾. وهذا كثير في القرآن. ثم تعظيمه الجهاد وتعظيم أهله في سورة الصف التي يقول فيها: ﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم. تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون. يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار، ومساكن طيبة في جنات عدن، ذلك الفوز العظيم﴾... وقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه، فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين، أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء». وقال تعالى: ﴿ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله، ولا يطأون موطئاً يغيظ الكافر، ولا ينالون من عدو نيلاً، الا كتب لهم به عمل صالح، ان الله لا يضيع أجر المحسنين. ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة، ولا يقطعون وادياً الا كتب لهم، ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون﴾.

هذا هو بعض ما كان يقوله الشيخ للناس في الجوامع والطرقات..

وهكذا عاش الشيخ أيامه ولياليه في شهر صفر سنة ٧٠٠ هـ، يستنفر الناس حيثما اجتمعوا، لقتال التتار، ليظفروا بالسلم والأمن، فالحرب أنفى للحرب.

وما أنفك يتحدث عن الجهاد قائلاً: «الأمر بالجهاد، وذكر فضائله في الكتاب والسنة، أكثر من أن يحصر، ولهذا كان أفضل ما تطوع به

الانسان، وكان باتفاق العلماء أفضل من الحج والعمرة، ومن الصلاة التطوع، والصوم التطوع، كما دل عليه الكتاب والسنة، حتى قال رسول الله ﷺ: (رأس الأمر الاسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد). وقال: (ان في الجنة لمائة درجة، ما بين الدرجة كما بين السماء والارض، أعدها الله للمجاهدين في سبيله). وقال: (من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمه الله على النار). رواه البخاري. . . وفي السنن: (رباط يوم في سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل). وقال: (عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله). . . وفي مسند الامام أحمد: «حرس ليلة في سبيل الله، أفضل من ألف ليلة يقام ليلها، ويصام نهارها». . . وهذا باب واسع، لم يرد في ثواب الأعمال وفضلها مثل ما ورد فيه، وهو ظاهر. . فان نفع الجهاد عام لفاعله ولغيره في الدين والدنيا. . ومشتمل على جميع أنواع العبادات الباطنة والظاهرة، فانه مشتمل على محبة الله تعالى، والاخلاص له، والتوكل عليه وتسليم النفس والمال له، والصبر والزهد، والقائم به بين احدى الحسنيين دائماً، أما النصر والظفر، واما الشهادة والجنة. . ».

هكذا كانت دروس الشيخ في تلك الأيام. .

ثم يعود الى أمه منهكاً، فتطعمه فرحة به، داعية له بالخير والسداد.

والمرجفون في المدينة يشيعون أن التتار قد استولوا على «حلب» في شمال الشام. .

ويفزع بعض الناس، ويلوذون بالفرار من دمشق. . أما الذين ثبت

الله قلوبهم، وأثر فيهم كلام الشيخ، فقد حملوا السلاح، وكان على رأس هؤلاء تلاميذ الشيخ وأتباعه، ولحقوا بعسكر الشام الذي رابط خارج دمشق، في انتظار قدوم السلطان الناصر على رأس جيش مصر..

وذهب الشيخ الى نائب السلطان الذي كان يقود عسكر الشام، وخطب في الجند، شاحذاً هممهم، وتلا قوله تعالى: **﴿ومن عاقب بمثل ما عوقب به، ثم بغى عليه لينصرنه الله، ان الله لعفو غفور﴾**.

وبات ليلته في المعسكر.

وقبل أن يعود الى داره بدمشق، طلب من نائب السلطان أن يأمر بألا يبرح أحد دمشق، فصدر أمره بهذا.

وعاد ابن تيمية الى أمه التي باتت ليلتها قلقة عليه، على الرغم من أنه استأذنها في أن يبيت ليلته في المعسكر، فأذنت له.

وخرج الى درسه.

ولكن الذعر يغشى المدينة، فقد أشاع المرجفون في المدينة، أن سلطان مصر والشام، بعد أن تحرك في طريقه الى الشام لملاقاة التتار، عاد بعسكره الى القاهرة! فلن يأتي بجيشه ليصد التتار، خوفاً على عرشه! وخشية أن ينكسر الجيش أمام قازان كما حدث منذ عام!!

***

وفي الحق أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون، لم يكن قد خرج بعسكر مصر ثم عاد، كما أشاع المرجفون في دمشق، ولكنه

كان ما يزال يعد العدة للخروج . . لم تزايله قط مرارة الهـزيمة الأولى التي ألحقهـا به التتـار، فقرر أن يحشـد لهم أسلحة جـديـدة وجيشـاً ضخماً يرهبهم، ويهزمهم هزيمة ساحقة تقضي عليهم، فتأمنهم مصر والشام الى آخر الزمان. .

وكان يريد أن يؤمن ظهره، فلا ينقض أحد منتهزاً فرصـة غيابـه في المعركة، فيثل عرشه منه.

انه لن ينسى ذلك الامير الذي طرده واستولى على عـرشه. . كـان الناصر ما يزال صغيراً.

قبض عليـه ذلك الأميـر وقبض على أمه، وسجنهمـا في القلعـة، وأعلن نفسه سلطاناً. . !!

واذ بـأمير آخـر كـان شـريكـاً في المؤامـرة، ينقض على السلطان الجـديـد فيقتله، وحين رأى حب النـاس للنـاصـر وأمـه واشفـاقهم عليهما، أطلق سراحهما، وأعاد الأم الى قصرها معززة مكرمة، ونفى محمد بن قلاوون الى الكـرك زاعماً أنـه يجب أن يظل بعيـداً عن أمه التي تدلله، ليربى تربية عسكرية، ثم يعود حين يشب ويصلب عوده، ويخشوشن!

وصلب عـود محمد بن قـلاوون، وأصبح شـاباً جلداً يجيـد فنـون الفـروسية، فـوثب أميـر ثـالث على السلطان وقتله، ودعـا محمـد بن قلاوون لتولي العرش!

ولم تأمن أمه حتى أخـذت موثقـاً من العلماء والفقهـاء، والامراء، وعامة الشعب، أن يحموا ولدها محمداً. .

ان السلطان الناصر محمد بن قلاوون لا يريد أن يترك في القاهرة نائباً عنه، يمكن أن يغتصب عرشه أثناء غيابه!

ونظر في الامراء وفكر فيمن عسى أن يوليه نائباً، واختار واحدا، فأحس أنه قد يطمع في العرش.. فاختار أميراً آخر، فوجده لا يقل طموحاً الى العرش عن صاحبه!

فقرر أن يعينهما معه على قلب الجيش، وعين أضعف الامراء، وأكثرهم خمولاً نائباً عنه..!

ثم انه جمع العلماء والقضاة والأمراء وأهل المشورة، ليتدارسوا أمر اعداد جيش أكبر من جيش التتار، وتجهيزه بأدوات قتال أفتك..

ورأوا أن الأمر يحتاج الى مال وفير..

ورأى أحد الأمراء أنه يجب أخذ مال من الرعية، وقد أفتى الشيخ العز بن عبد السلام للسلطان قطز، قبل أن يخرج الى معركة «عين جالوت»، بجواز أخذ دينار من كل فرد من الرعية..

وطلبوا من قاضي القضاة الشيخ ابن دقيق العيد، أن يقر تلك الفتوى.

ولكنه قال: «ان الشيخ العز بن عبد السلام لم يصدر تلك الفتوى الا بعد أن أحضر كل واحد من الامراء ما يملكه من ذهب وفضة وحلي نسائه وجواريه. وحلف كل واحد منهم انه لا يملك سوى ذلك القدر الذي أحضره، ولما كان ذلك المال غير كاف فقد أفتى بأن يؤخذ دينار من كل فرد من الرعية.. أما الآن فأنا أعلم أن كلا من الامراء له مال جزيل، وفيهم من يجهز بناته بالجواهر واللآلىء،

ومنهم من يعمل الاناء الذي يستنجي منه في الخلاء من فضة، ومنهم من يرصع مداس زوجته بأصناف الجواهر».

وخرج الشيخ ابن دقيق العيد..

وأصبح الناس يتحدثون عما قاله الشيخ ابن دقيق العيد، ففرحوا.

ورأوا المماليك يختالون في الشوارع بملابسهم الزاهية المرصعة فتكاثروا عليهم ساخرين: «بالامس كنتم هاربين واليوم تريدون أخذ أموالنا».

وشكا أمراء المماليك للسلطان، فأصدر أمره: «أي عامي يتكلم مع جندي كانت روحه وماله للسلطان».

وأوشكت الأمور أن تضطرب، فأمر السلطان الامراء أن يبيعوا الذهب والفضة وحلي وجواهر النساء والجواري، وفرض على أغنياء التجار أن يبذلوا من مالهم..

فتجمع لديه المال الوفير، ونشطت مصانع السلاح لاعداد أسلحة جديدة أفتك من أسلحة التتار.

والشائعات تملأ دمشق، أن السلطان سيترك عسكر الشام وحده يواجه التتار..!

فاتفق رأى نائب السلطان وأعيان دمشق وعلمائها، على أن يرسلوا الشيخ ابن تيمية الى السلطان في القاهرة، ليقنعه بالخروج لملاقاة التتار..

***

وفي طريقة الى القاهرة، نزل بغزة، بلد الامام الشافعي، شيخ الامام أحمد بن حنبل.. لا بد من وقفة على هذا الثرى العزيز الذي شهد طفولة الامام العظيم!!.

رحب به أهل غزة، وأخذوا يتبركون به، وألقى عليهم خطاباً في فضائل الجهاد..

وفي القاهرة استقبله السلطان محمد بن قلاوون بحفاوة عظيمة، وأظهر له الود والاكبار..

واجتمع مجلس السلطان، وأجلسه السلطان الى جانبه، وأثنى عليه..

وتحدث الشيخ عن حملة التتار، فأفهمه السلطان بأنه لا يريد أن يعجل بالخروج قبل أن يتم الاستعداد، لئلا تتكرر الهزيمة!!

ورأى الشيخ في رد السلطان تقاعساً عن نجدة أهل الشام وهم رعيته، فقال: «ان كنتم أعرضتم عن الشام وحمايته، أقمنا له سلطاناً يحوطه ويحميه ويستغله في زمن الأمن». ثم سكت قبل أن يكمل: «ولو قدر أنكم لستم حكام الشام، ولا ملوكه، واستنصركم أهله، وجب عليكم النصر، فكيف وأنتم حكامه وسلاطينه، وهم رعاياكم وأنتم مسئولون عنه.. فان تخليتم عن الشام ونصرة أهله والذب عنهم، فان الله تعالى يقيم له من ينصره غيركم، ويستبدل بكم سواكم.. قال تعالى: **﴿وان تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾**. وقال تعالى: **﴿ألا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم، ولا تضروه شيئاً﴾** صدق الله العظيم».

واستحسن ابن دقيق العيد ما قاله ابن تيمية، فأثنى على شجاعته وحسن استنباطه.

ولم يغضب السلطان. . فهو ما زال يذكر ما سمعه عن موقف ابن تيمية مع قازان، وهو من أجل ذلك يجله ويكبره ويحترم فيه الصدق والاخلاص وشجاعة القلب والغضب للحق.

أخذ السلطان يشرح للشيخ خطر المبادرة بمواجهة التتار بجيش يقل عدة وعدداً عن جيشهم، وأنه يحشد الجيوش المجيشة، لينزل بالتتار هزيمة تمحقهم باذن الله الى الأبد.

وقبل أن يرد الشيخ، جاء الحمام الزاجل يبشر السلطان أن التتار عادوا أدراجهم، فقد عرفوا أنباء الاستعدادات في القاهرة!

ولكنهم ربما عادوا بعد حين، بعد أن يعدوا جيشاً يواجه جيوش السلطان.

عمت الفرحة، وأقيمت الافراح، وسطعت ليالي القاهرة بالاضواء. . كما أضاءت ليالي دمشق بالبهجة.

أما ابن تيمية فقد عزم على العودة الى دمشق. . وحاول السلطان أن يقنعه أن يبقى في القاهرة عدة أشهر. . ولكنه شكر السلطان، فلا بد من العودة الى دمشق: الى أمه، والصحاب، والطلاب. .

لقد جاء مع البريد، وسيعود مع البريد. . الى الدرس من جديد. .



الفصل الرابع

ترك ابن تيمية القاهرة، واللهفة تضطرم في أعماقه، فهو مشوق الى أمه الرءوم، والى صحابه وطلابه، والى أشيائه التي يحبها: خزانة كتبه، ومجلسه في دار الحديث، وحلقته في الجامع الأموي. . آه لو أنه سافر على أجنحة الحمام!!

ومن بعيد لاحت له مآذن دمشق وقبابها، تسطع عليها أضواء المشاعل، وتناهت الى أذنيه أصداء الأغاريد والأناشيد، وصيحات الفرح. . ما زالت دمشق تحتفل كما احتفلت القاهرة. لا ضير، فهذا خير من الظلمات، ورجع الصرخات!!

وخاض الليل المتلألىء بالشموع، الخافق بالفرحة. . مسرعاً الى أمه. .

ورآه المحتفلون فتزاحموا عليه، يهتفون باسمه، ويدعون له، ويتبركون به. .

انه وحده من بين العلماء والملأ من أهل دمشق، هو الذي يتقدم لانقاذ المدينة، ونصرة الناس!.

هكذا صنع منـذ عام، فـأجلى قازان وجنـوده عن أبواب دمشق. . وها هو ذا اليـوم يذهب الى السلطان في القـاهرة يستنفـره. فما يكـاد التتـار يعلمون أن القـاهرة تستعـد بجنود لا قبـل لهم بها، حتى يـولوا الأدبار!

تأمل ابن تيمية احتفاء الناس به، وموقعه منهم، فدعا الله أن يجنبه الغرور. فلا يجتمع الغرور والايمان في قلب رجل واحد. .

وسأل الله أن يمكن له من خدمة الاسلام والمسلمين، وقهر أعداء الدين، والعودة به الى نضارته الأولى. .

ولم يخرج ليلته من بيته، على الرغم من الحاح الناس عليـه، فقد أحسن أن من البر بأمه، أن يبقى معها، ومع أخويه. .

***

وفي الصبـاح كـان في مجلسـه من دار الحـديث، ثم في حلقتـه بـالجامـع الأموي، فـطلابه ورواد الحلقـة، هم أصحاب الحق الأول عليه بعد أمه. .

وعندما فرغ من حلقته، ركب فرسه الى نائب السلطان.

واستقبله نـائب السلطان محتفياً بـه، متواضعـاً له، وأظهـر لـه من المودة والاكبار، ما لم يبده قط لأحد من علماء الشام أو أمرائه.

قال له نـائب السلطان مبتسماً: «رضينـا منك يـا شيخنا بـأن نكون بعد الأم الرءوم. . ولكن ألا تحسبنا بين المريدين وطلاب علمك؟».

فضحك الشيخ : «أنت الراعي وتستطيع الصبر، أما الطلاب ورواد الحلقة من الرعية فلا يصبرون».

كان الأمراء والفقهاء والأعيان في انتظار الشيخ عند نائب السلطان، فقد جمعهم منذ أرسل اليه الشيخ انه سيجيئه بعد انتهاء حلقته في الجامع الأموي .

هؤلاء جميعاً كانوا قد فروا من دمشق، عندما حاصرها التتار منذ عام، الا قليلاً، فيهم قائد القلعة!

ومن هؤلاء الحاضرين من لاذوا بالتتار حينذاك . !

كان الحاضرون في أبهى حللهم، تلوح عليهم مظاهر الغنى الفاحش، وأمارات الرضا عن النفس، كأنهم لم يقترفوا ذات يوم ما يشين الرجال! . . ما أصبرهم على العار . . !

وسأله نائب السلطان عن أخبار القاهرة، مما لم يحمله البريد، ولكن الشيخ لم يجبه، فقد كان لا يريد أن يقول ما عنده، أمام هؤلاء الرجال، الذين قد يفرون عند الروع الى العدو، بما عرفوه من أسرار . . !

لم يقل الشيخ شيئاً من أخبار السلطان، ولكنه ذكره بالخير، ودعا له بالنصر، وقال انه ترك القاهرة، والسلطان مكين وأمراؤها وعلماؤها في أحسن حال.

وذكر طرائف عن أهل القاهرة وهم يحتفلون بعدول التتار عن غزو الشام . .

وأدرك نـائب السلطان مـا يقصـده الشيـخ تقي الـدين، فلم يعـد يسأله، وبعد قليل فض المجلس واستبقى الشيخ . .

خـرج خصـوم الشيـخ وحسـاده ، والغيظ يـأكـل قلوبهم من نـائب السلطان والشيخ جميعاً.

وعنـدما خـلا نائب السلطان بـالشيخ ، حـدثه عمـا أطلع عليـه في القـاهرة من أعـداد للعدو، وطلب منـه أن تنشط مصانـع السـلاح في دمشق لابتكار أدوات حربية حديثة ، كما يفعلون في القـاهرة، فـالتتار لا ريب سيزحفون، يوم يستكملون استعدادهم، ولا خلاص منهم الا أن يضربهم عسكر مصر والشام ضربة رادعة، تكون هي القاضية!!

وأخذ نائب السلطان بنصيحة الشيخ . .

ثم طلب منـه الشيـخ ابـطال البـدع والمنكـرات، وشن حملة على الباطنية المنتسبين للشيعة الذين ظاهروا التتار منذ عـام، وعلى غيرهم ممن يكـاتبون الصليبيين في قبـرص، ويناصـرونهم على اخوانهم في الوطن والدين! . .

ولكن نــائب السلطان رأى أن تحتشـد كـل القـوى العسكـريـة استعداداً لما قـد يفاجئهم بـه التتار. فـلا يتشتت الجيش في أكثر من ميـدان! أما عن ابـطال البدع والمنكـرات، فأمـر لا بد منـه ، لتنشغل الأمة بما هـو أجدى عليهـا، وأنفع لهـا، وليكون كـل أفرادهـا أقويـاء أصحاء النفوس والأبدان، صالحين للجهاد كما يقول الشيخ . .

والشيخ يستطيع أن ينهض بالأمـر جميعاً، وهـو في هذا ينـوب عن ولي الأمر، ومن أتباعه شبان أقوياء مسلحون، وهم يستطيعـون تأديب

أنصار التتار والصليبيين، وأبطال البدع والمنكرات. .

وأذن الشيخ في تلاميذه وأصحابه وأتباعه، أن نائب السلطان، رخص لهم أن يقوموا بابطال البدع والمنكرات، وفي ردع من خرجوا على الأمة، وظاهروا الأعداء عليها. .

ومن جديد انطلق أتباعه يريقون الخمور في الحانات، ويهاجمون دور الفساد، ويسلمون من فيها الى القضاة!

ومضى أتباع الشيخ يعظون زوار قبور الاولياء، ألا يتوسلوا بها، ويفضحون ألاعيب المشعوذين الذين يدعون الزهد والتصوف، ويعرضون على الناس المتحلقين حولهم في الطرقات والميادين ألعابهم السحرية، كالدخول في النار ومداعبة الأفاعي، فيشغلون الناس عن جد الأمور، ويستولون على أموالهم في زمن صعب لم يصلح للهزل بعد!

ومضى أتباع الشيخ من الأتقياء الاقوياء، يتربصون بمن يشاع عنه أنه يقبض الرشوة فاذا تأكد لهم ما اشيع، شكوه للقاضي. .

وكان الشيخ يقود أتباعه أحياناً، وينصحهم ألا يغلظوا مع هؤلاء جميعاً. فليبدؤهم بالنصيحة، ذلك أن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر يجب أن يبين حكم الشرع بالموعظة الحسنة، فاذا لم يتعظ المخالفون، حق عليهم العقاب. .

والعقاب حق خالص لولي الأمر وحده، ولكن الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر يساعدونه.

ولهذا أوجب عليهم الشيخ الا يعاقبوا أحداً، ويقدموه بالشهداء عليه الى القاضي، ليقضي عليه بما أنزل الله . .

ثم خرج ومعه خلق كثير الى الجبل، حيث يعتصم الذين ناصروا التتار وكاتبوا الصليبيين. فلما أحسوا بالشيخ وحملته المسلحة، جاء شيوخهم نادمين عما بدر منهم، فكلمهم في عقائدهم، واستتابهم فتابوا . . «وحصل من ذلك خير كثير».

وضج قوم في دمشق مما يصنعه الشيخ تقي الدين بن تيمية وأتباعه، واستهال حساده أن يأمر الشيخ وينهى، ويتخذ من أتباعه شرطة وعسكراً . .

وجاؤا نائب السلطان، يشكون ابن تيمية.

قالوا: لقد دخل الغرور ابن تيمية، وركبه الصلف، فحسب نفسه ولي الأمر.

فقال لهم نائب السلطان: «أنه يفعل هذا باذني ونيابة عني».

فانصرفوا غاضبين، متربصين بالشيخ! ...

* * *

تواري أهل الفساد، فهدأ الشيخ وأتباعه . .

عاد الشيخ يقضي كل وقته بين البيت، والطلاب ورواد الحلقة.

كانت الحلقة مزدحمة بروادها الذين تعودوا ارتيادها، وبآخرين كان عددهم يزداد في كل يوم، منهم الأمراء والأعيان، وبعض مخالفيه . .

جلس في الحلقة يشرح ما جاء في الأثر: من بات آمناً في سربـه، معافى في بدنه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها.

قاطعه أحـد العلماء من خصـومه سـاخراً: «بـالأمس كنت تتصرف كأنك ولي الأمر! فهل أصبحت منذ اليوم زاهداً؟!».

واحتد الشيخ: «زهـد الشاكـر العامـل العاقـل المتوكـل على الله، وهذا هو ما أمرنا به، لا زهد المتنطع المتواكل الذي نهانـا عنه.. ولا زهد المبتدعين كبعض أصحابك ممن ينتسبون الى التصوف!...».

وحاول مقاطعة أن يرد، ولكن أهل الحلقة أسكتوه، فما جـاءوا الا ليسمعوا الشيخ لا مخالفيه!..

صمت الشيخ قليلاً وهو يعاهـد الله فيما بينـه وبين نفسه، أن يشن الحملة على هؤلاء جميعـاً.. عندمـا يجيء الـوقت، حين يفـرغ من قراءة كل ما كتبه الفلاسفة والمتصوفة..!

وعاد يكمل شرح ما جاء في الأثر، فذم كنز المـال، وفي الأمة ذوو حاجة، وضرب الأمثال من زهد الرسول ﷺ، وصحابته.. ثم استطرد يشـرح مسئوليـة ولي الأمر عن اخـراج الأموال قهـراً من كانـزيها، اذا احتاجت الأمة، أو كان فيها من لم يصل الى حد الكفاية..

ولي الأمـر يجب أن يكـون من الـزاهـدين الصـالحين لا مـن المسرفين. فما من أحد في الرعية يمكن أن يستجيب لولي الأمر، الا اذا كان هو نفسه، مثلاً يحتذى، فيفـرض هيبته على قلوب الرعية..

وخير ما يتحلى به هو أن يـظهر الـطاعة لله ورسـوله، فيمـا يلي من

أمور المسلمين. . وهنا لا غنى لولي الأمر عن المشاورة. . فالشورى توفر له الالمام بمصلحة الأمة، وتضمن له الرأي السديد فيما يقضي به، وتضمن له قبول الرعية لأوامره ونواهيه. .

والشورى لازمة لأولي الأمر جميعاً، لا للسلطان والامراء وحدهم. . : «وأولوا الأمر صنفان: الأمراء والعلماء، وهم الذين اذا صلحوا صلح الناس. فعلى كل منهما أن يتحرى ما يقوله ويفعله طاعة لله ورسوله. . عن أبي هريرة أنه قال: «لم يكن أحد أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ». وقد قيل ان الله تعالى أمر بها نبيه في قوله: **﴿فأعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر﴾** ليتألف قلوب أصحابه، وليقتدي به أولو الأمر من بعده، وليستخرج الرأي منهم فيما لم ينزل به وحي من أمر الحروب والأمور الجزئية وغير ذلك. فأولو الامر بعد رسول الله عليه الصلاة والسلام، أولى بالمشورة. وقد أثنى الله على المسلمين بقوله تعالى: **﴿وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون. والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش واذا ما غضبوا هم يغفرون. والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون﴾**. فوضعها الله تعالى مع الإيمان به واقام الصلاة وايتاء الزكاة. . . واذا استشار ولي الأمر، فبين له من يستشيرهم، ما يجب اتباعه من كتاب الله وسنة رسوله أو اجماع المسلمين، فعليه اتباع ذلك. ولا طاعة لأحد في خلاف ذلك. وان كان عظيماً في الدين والدنيا. فالشورى ملزمة واتباع ما يشار به ملزم».

وأعاد صياغة هذا الرأي في فصل من كتابه عن السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية. .

وتهامس خصومه.. ما معنى قوله «ان على ولي الأمر أن يتبع ما يشار به عليه، ولا طاعة له في غير ذلك، وان كان عظيماً في الدين والدنيا».

وفسروا قوله هذا بأنه يغمز السلطان، أو بالقليل نائب السلطان!!

ان الشيخ ليشتغل بالسياسة، فيرهب الحكام، ويتقرب الى العامة، ويروح ويجيء، وينهى ويأمر!! لعله يطمع في أن يكون سلطاناً..!!

ظل حساده ومخالفوه من العلماء في تربصهم به، ينالون كلامه وتصرفات، عسى أن يجدوا سقطة أو مطعناً فيقضوا عليه، ويستريحوا..!

انه شديد الوطأة عليهم، يسلقهم بكلماته، وهو حتى ان لم يقل كلمة، يزري عليهم بنظراته، وكأنه يعيرهم بأن منهم من هربوا يوم الروع، ومنهم من لاذوا بالتتار!

* * *

وذات مساء، تلقى نائب السلطان رسالة تتهم ابن تيمية بأنه يكاتب التتار سراً، وأنهم سيولونه على دمشق أو على السلطنة كلها...!!

وروع نائب السلطان من هذا الاتهام..! انه لم يلق ابن تيمية منذ مدة طويلة، هذا حق، ولكنه يعرف كل حركاته وسكناته.. فللدولة عيون لا تنام، وهي ترصد بصفة خاصة هؤلاء الشامخين المترفعين الذين لهم في قلوب العامة مكانة خاصة.. وأولهم وآخرهم هو ابن تيمية..

انه ليعرف عن الشيخ أنه بعد الفراغ من حلقته في الجامع، يعود الى أمه فيتحدثان قليلاً، ثم يعكف على مكتبته فيقرأ!! أي منصب يمكن أن يطمع فيه الشيخ وله الكلمة المسموعة عند أصحاب المناصب والهيبة وله الأمر المطاع؟!.

أهذا العالم الفقيه الجليل المجاهد، يكاتب التتار، ويتآمر معهم على السلطان؟!..

أدرك نائب السلطان المكيدة..

لن يسكت عن الذين مكروا بالشيخ هذا المكر السيء..

وبات ليلته يفكر في أي خصوم الشيخ يمكن أن يكيد له هذا الكيد المنكر!

وعاد يتأمل الرسالة.. أنه ليعرف خطوط العلماء من خصوم الشيخ، ولا خصوم له غيرهم!! طالما دبج هؤلاء الخصوم رسائل يطلبون فيها هبة أم منصباً..!!

لم يستطع أن يتعرف على كاتب الرسالة.. فهذا الخط غريب عليه.. ليس خط أحد العلماء!!

وأصبح نائب السلطان، فحشد من يأتمن من الأتباع والعيون، ليتحروا له الأمر.

فليشيعوا في المجالس الخاصة التي يعقدها حساد الشيخ، أن نائب السلطان يريد أن يلقى من كشف له عورة للشيخ ليمنحه منصباً كبيراً ومكافأة سخية!

وبعد أيام جاءوا بكاتب الرسالة . . !

واعترف الرجل أن الرسالة بخطه حقاً ، ولكن الـذي أملاهـا عليه ، هو أحد العلماء ! .

وقـطع نائب السلطان يـد كاتب الـرسالـة . وأما العـالم فقد جلد ، وسيق مقلوبـاً على ظهر حمـار ، وحولـه الصبية يسخـرون ! والمنـادي يذيع المكيدة على الناس ، ويعلنهم أن هذا هو جزاء من يكيد للشيـخ تقي الدين بـن تيمية ! ! . .

وبغتة ضاع صوت المنادي ، وخفتت ضحكات الاستهزاء ! !

غمرتها صرخات الفزع : «التتار يزحفون . . ! !» .

وطير الخبر على أجنحة الحمام الزاجل الى السلطان في القاهرة .

* * *

لكن السلطان الناصر محمد بن قلاوون صاحب مصر والشـام ، لا يبالي هذه المرة بزحف التتار . . !

لقد أعد لهم العدة والعديد . .

لقد وعى كثيراً من الدروس .

أنضجته المحنة ، ومصاولة الأحداث . .

في المرة الأولى خرج وهو بعد شاب صغير ، يقـود جيشه بنفسـه ، وحوله أمراء يريدون أن يثبوا عليه ، ليسلبوه الملك ! فلما طالب العرب والمسلمين ، أن يهبوا لنجدته ، لم ينجده أحد ! !

أما اليوم ، فقد أدرك أنه يجب أن يقود الجيش تحت راية الخليفة ،

وأمــره نــافــذ في جميع المسلمين، وطــاعتـه واجبــة، فهـو أميــر المؤمنين. . . !

عامين مارس فيهما صناعة الملك، فتدرب، وتعلم!

* * *

عنـدمـا كـانت الخـلافـة في بغـداد، كـانت الـدول والـدويـلات الاسلامية، تدين بالولاء للخليفة العباسي . .

ومهمـا يكن من استقلالهـا الفعلي، أو تمرد سـلاطينهـا وأمـرائهـا عليه، فيما كان أحد يستـطيع أن يجهـر بالعصيـان أو المخالفـة، لأنه حينئذ يخرج عن اجماع المسلمين، ويعصى ولي الأمر الشرعي!.

فلما استولى التتار على بغداد، وقتلوا الخليفـة العباسي، عـاشت الأمة الاسلامية بلا خليفة!.

أمـا الذين نجـوا من بني العباس، فقـد اتخـذوا القـاهـرة مستقـراً ومقـامـاً، ولقـوا فيهـا من التـرحيب والاشفـاق، مـا حمـل لهم بعض العزاء. !

وحين استولى الظاهـر بيبرس على الملك، رأى أن يبسط سلطانـه الروحي، على كل البلاد الاسلاميـة، فاصـطنع أحـد أقارب الخليفـة المقتول، وبايعه بالخـلافة، وبـايعه معـه العلماء والامـراء والملأ من أهل مصر. .

كانت خطة الظاهر بيبرس، أن يكون الخليفة رمزاً . .

هو الذي يعين سلطان مصر، فيكتسب بهذا التعيين شـرعية تقـوي

قبضته على الأمة الاسلامية جميعاً . .

غير أن الخليفة الجديد، أخذ الأمور بجد، ولم يرض أن يكون ملكاً يملك ولا يحكم . . يده مغلولة، لتنطلق يد السلطان بيبرس، فيصنع ما يريد . . !

وضاق السلطان بيبرس بتدخل الخليفة في شئون الملك، وخشي أن يبطش به، فتثور الفتنة . . فأقنع الخليفة بالزحف على بغداد، ليحررها من التتار، ويسترد عرشه، وجهز له جيشاً .

وأوعز بيبرس الى الخلصاء من أمراء الجيش ـ وكانوا مماليكه ـ أن ينسحبوا بالجيش، ويتركوا الخليفة وحاشيته، يواجهون التتار وحدهم!

فانقض عليهم التتار، وقتلوهم جميعاً، واستولوا على ما حمله من اموال طائلة، وسبوا النساء . .

وبايع الظاهر بيبرس رجلاً آخر من بني العباس، خليفة وأميراً للمؤمنين ولكنه اشترط عليه قبل البيعة ألا يتدخل في أمر من أمور الدولة، ويكتفي بأن يكون رئيساً روحياً للمسلمين!

ورضي الرجل، ومنح الظاهر بيبرس بركته، وأسماه قسيم أمير المؤمنين ، أي شريكه في ولاية الأمر، لتكون كل تصرفات السلطان الظاهر بيبرس شرعية، بموجب هذه الشركة، فلا يتهمه أحد بأنه سلب الخليفة حقه الشرعي في ولاية الأمر . . !

وهكذا أصبح السلطان هو ولي الأمر الشرعي، حاكماً فرداً، أما

الخليفة فهو القائد الروحي، يدين له الجميع بالولاء، ويسمونه أمير المؤمنين. وأنزله السلطان في قصر ضخم فخم، عامر بالجواري الشركسيات الحسان، ومماليك يخدمونه ويتجسسون عليه..

وأعطاه راتباً ضخماً، وتحملت الدولة مئونة القصر وتكاليفه بما فيها هبات الخليفة لمن يشاء.. وأصبح كل حظه من الملك أن يصلي بالناس في المناسبات الدينية الهامة..

***

على هذا النحو سارت الأمور منذ عهد السلطان بيبرس..

ولكن السلطان محمد بن قلاوون رأى أن ينتفع بالخليفة، ونفوذه الروحي على المسلمين في أقطار كثيرة.

فدعاه الى أن يقود جيش الجهاد.

واستنفر السلطان ابن قلاوون، سائر المسلمين، أن يهبوا للانضمام الى جيش مصر والشام، الذي يخرج للقاء جيش التتار، تحت قيادة أمير المؤمنين.

وأرسل بهذا رسائل بالحمام الزاجل، الى الملوك والأمراء المسلمين، فخجلوا أن يتخلفوا عن نصرة جيش الجهاد بقيادة أمير المؤمنين، وأرسل بعضهم ما يستطيع من مئونة الى جيش الجهاد..

ولكن بعض الباطنية في جبال الشام، ومن والاهم من الأعراب، أعلنوا أنهم يرحبون بالتتار، زاعمين أن التتار أحسن اسلاماً من غيرهم، وحكامهم أكثر عدلاً، وأنهم ما جاءوا بغياً على أحد، ولكن

لينقذوا الشام ومصر، من جور السلطان والأمراء المماليك، الذين يظلمون الرعية، وينهبون أموالها ـ لينفقوها على الزوجات والجواري والغلمان، وعلى ملذاتهم وشهواتهم . . !!

وطالبوا الناس بأن ينقضوا على الخزائن السلطانية، وقصور الامراء، فيستردوا أموالهم، التي تحولت في هذه القصور الى جواهر وحلي ترصع أحذية النساء!!

ثم انهم دعوا الناس، الى الخروج بأسلحتهم، للانضمام الى التتار، فمن لم يستطيع، فليلق سلاحه، ويلزم بيته، فيأمن!

فعلت هذه الأقوال أفاعيلها في بعض المستضعفين والفقراء من أهل دمشق . .

فبدلاً من أن ينتشوا السلاح لجهاد التتار، أخذوا يتصايحون على الأمراء، ويسبونهم، متسائلين: كيف يكون في دمشق من لا يجد الطعام أو الملبس الا بشق النفس، وفي أقدام بعض نساء القصور قباقيب ترصعها جواهر وحلي، يكفي ثمن الواحد منها حاجة أسرة فقيرة الى آخر العمر . !!؟

***

وها هو الشيخ يعظ الناس، ويذكرهم بأن جهاد التتار جهاد في سبيل الله، وحماية لأرواحهم وأعراضهم، وأموالهم . .

أي مال لنا يا شيخنا سنحميه، انما هي أموال الأمراء. ؟! . . أنموت دفاعاً عنها، أم عن ظلمهم لنا . . ؟ . . ما عسانا نخسر؟!

سيفرون أمام التتار، كما فروا منذ حين، ويتركوننا! . . فلنسالم التتار، فهذا يضمن حياتنا ويحمي حرماتنا!! فليذهبوا هم ومماليكهم ليحاربوا . . أما نحن، فانا ها هنا قاعدون . .

وذهب رجال الى الشيخ تقي الدين بن تيمية، يسألونه الرأي: لماذا يدافعون عن الأمراء، وما عرفوا منهم الا الجور والغطرسة واغتصاب الحقوق؟

أقنعهم الشيخ بأنهم انما يدافعون عن أنفسهم وأهلهم . . عن بلادهم وأعراضهم . . ويذودون عن حوض الشريعة!

ذهبوا الى غيره من العلماء وعادوا يقولون له ان الله أمر بقتال الكفار وحدهم، وهؤلاء ليسوا كفاراً . .

قال الشيخ: «ان الله تعالى لم يأمر بقتال الكفار لأنهم كفار، ولكن لأنهم اعتدوا . . فالاعتداء لا الكفر هو سبب القتال. لأننا أمرنا بألا نكره أحداً على الاسلام: **﴿لا اكراه في الدين، قد تبين الرشد من الغي﴾** صدق الله العظيم». ولو كان الكافر يقاتل حتى يسلم، لكان هذا أعظم الاكراه على الدين، ولكننا نقاتل لرد العدوان. يقول تعالى: **﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم، ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين، واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فان قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين. فان انتهوا فان الله غفور رحيم، وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين. الشهر الحرام**

بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين﴾. فالقتال فرض علينا لدفع المعتدين، حتى لا تكون فتنة. وهؤلاء جاؤا معتدين، فمتى يجب القتال علينا ان لم يجب اليوم؟!.

وخرج الرجال من عند ابن تيمية، وتركوه في حلقته، ثم عادوا يقولون: «بعض العلماء أفتانا أن آية **﴿لا اكراه في الدين﴾** منسوخة».

فقال لهم: «جمهور السلف على أنها ليست مخصوصة ولا منسوخة. بل يقولون انا لا نكره أحداً على الاسلام، وانما نقاتل من حاربنا، فان أسلم عصم دمه وماله وان لم يكن من أهل القتال لم نقتله.. وكان رسول الله ﷺ يقول لجنده: (انطلقوا باسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله. ولا تقتلوا شيخاً فانياً، ولا طفلاً، ولا امرأة، ولا تغلوا، وضموا غنائمكم، وأصلحوا وأحسنوا ان الله يحب المحسنين). ولقد مر عليه السلام بامرأة مقتولة فقال: (ما كانت هذه لتقاتل)! فقتلها حرام لأنها لم تعتد ولم تقاتل. انه عليه الصلاة والسلام لم يكره أسيراً على الاسلام. فكيف يقولون ان الآية منسوخة، وكل من هادنه من الكفار لم يقاتله، وهذه كتب السيرة والحديث والتفسير والفقه والمغازي تنطق بهذا، وهذا متواتر من سيرته عليه السلام، فهو لم يبدأ أحد بقتال.

ونهض الرجال ليغادروا الحلقة، ولكنه استوقفهم، وقد عرته الحدة غضباً من اللجاجة في أمر كهذا، والتتار يزحفون..

وسأل عن العلماء الذين أفتوهم؟!

لعلهم هم هذا النفر الـذين فروا يـوم حصار دمشق منـذ عامين، أو لعلهم هم هؤلاء الذين رآهم أيامهـا عند قـازان، يتزلفـون، منكسرين تقرباً اليه!!

وأدرك الشيخ أن الفتنة توشك أن تشتعل، والتتار يزحفون!!

فنشط الى الناس حيثما تجمعـوا في الجوامـع والطرقـات يعظهـم، ويعدهم بعدل الأمراء وبحياة أفضل، بعد أن ينهزم التتار عنهم.

فليس هـذا وقت حسـاب الأمـراء.. ولا هـو وقت اللجـاجـة في التفسير والفقه، ولا وقت اختلاف العلماء!!

ان السنـة واجماع الصحـابة على أن طـاعـة أولي الأمـر، في زمن الجهاد واجبة لازمة، حتى ولو كانوا جائزين!

على أننـا بعد أن يتحقق لنـا نصر الله، سنقـومهم، فنحملهم على العدل، وانصاف الرعية، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر..

وخفت غضبـة النـاس على الامـراء بعض الشيء، ولكنهـا لـم تختف!..

ظلت كالنار تحت الرماد، يحس وهجها، ولا يرى أجيجها..!

ثم رأى الشيخ تقي الـدين بعض زعمـاء الأعـراب في حلقتـه في الجامع الأمـوي، وعلى رأسهم أميرهم حسـام بن مهنا ابن عيسى.. وهو فارس شجاع، حسن الرأي، محب للمعرفة، شديد التقوى.

لكم استـرعى الانتباه بحسن الفـطنة، وقـوة الاستيعاب، وسـرعـة البديهة، وخفة الظل في المناظرة..!

ولقد هم الشيخ أن يكلمهم في تعاهدهم مع الباطنية على محالفة التتار، فيبين لهم ما في عهدهم هذا من مخالفة للشرع والطبع. فهم أهل المروءة والنجدة من أبناء الشام، فكيف ينصرون عليه عدواً غازياً باغياً؟!

ولكنه خشي أن يشتد عليهم بعض تلاميذه من المتحمسين لآرائه، أو أن يحرج أميرهم حسام بن مهنا بن عيسى، والأمير حسام بن مهنا فيه الحياء، على الرغم من جسارته!!
لقد أمرنا الله ورسوله أن ندفع الحرج..

ثم أن مناظرة الأمير وصحبه أمام الآخرين، والزامهم الحجة، قد يثير العناد، فتتحول المناظرة الى لجاج، وتضيع الحقيقة!

والتفت الشيخ باسماً الى الأمير: «كيف حال الأمير حسام وصحبه الأمجاد؟.. اني مصل بكم العصر والمغرب غداً، فطاعم عندك ان شاء الله».

وضج الأمير وصحبه مرحبين في عبارات حارة، تداخل بعضها في بعض، من شدة السرور!

فلما كان الغد، لم يشغل الأعراب وأميرهم بغير استقبال الشيخ ومأدبته..

وجاءه بعض كبار مشايخهم ليصحبوه الى ديارهم، فوجد الأمير في استقباله على مشارف الديار، ومعه فرسان من أمهر فرسانهم.. فقدموا أمام الشيخ رقصة السيف، وبعض ألعاب الفروسية، ابتهاجاً بمقدمه.

ثم نحرت الذبائح تحت قدمي الشيخ تكريماً وترحيباً . .
وبعد صلاة العصر في مسجدهم بدأ الشيخ موعظته . .

تحدث عن القتال، وحكمة الجهاد، وواجب المسلمين اذا اعتدى عليهم غير المسلمين، أو اذا غزا أرضهم مسلمون آخرون بغياً وعدواناً . . وطلب الا يناصروا البغي، والا أثموا كالبغاة، وألا يحرضوا الرعية على العصيان في زمن الجهاد، فهذا ابتغاء للفتنة، وتخذيل عن نصرة الدين!!

فسأله أمير العرب: «لكننا عاهدنا الباطنية، وحالفناهم على أن نظاهر التتار جميعاً، وقد علمتنا أن رسول الله ﷺ قال ان آيات المنافق ثلاث منها انه اذا عاهد غدر، واذا وعد أخلف، فهل ترضى لي يا شيخنا أن أجمع خصلتين من آيات المنافق، وأنت الذي علمتنا فيما علمتنا أن النفاق من الكبائر، وأن الله تعالى جعل المنافقين في الدرك الأسفل من النار؟!».

وانتظر الجميع رد الشيخ، فأجاب: «أنا أعلم أنك اذا عاهدت أيها الأمير وفيت، واذا وعدت أنجزت، وأعرف فيك التقوى والغيرة على الدين، واغاثة الضعيف، ونجدة الملهوف. أنا أعرف كل سجاياك الحميدة يا أمير العرب، وأجد فيك ريح الصالحين الأوائل، من فرسان النهار ورهبان الليل، . ولكن أي عهد هذا الذي عاهدت، وأي وعد وعدت؟! لئن لم تنجز هذا الوعد ولم تف بهذا العهد، فما أخلفت، وما غدرت! انك تعاهد قوماً بغاة عادين آثمين، ولا عهد في معصية! وقد نهانا الله تعالى عن التعاون على الاثم والعدوان،

وقـال تعالى : **﴿وتعـاونوا على البـر والتقوى، ولا تعـاونوا على الاثم والعـدوان﴾**. فمن البر والتقـوى أن تجاهـد الغزاة البغـاة تحت رايـة قومك أهل الشام. ونقض مثل هذا العهد الذي عـاهدت هـو من باب التوبة النصوح. فتوبوا الى الله يرحمكم الله. وجـاهدوا في سبيـل الله بأنفسكم وأموالكم، ودافعوا عن دياركم».

وأعلن أمير العرب أنه يتوب الى الله هـو وقومـه، ويضعون أنفسهم تحت راية جيش الشام، وشيوخ العرب من حـوله يستغفـرون الله عما سلف منهم، ويهللون ويكبرون . .

وصلى الشيخ بهم المغرب، ثم طعموا. . .

وركب الشيخ، يصحبه ابن مهنا أمير العرب، تتقدمهما المشاعل، ومن خلفهمـا كوكبـة من شيوخ العـرب وفرسـانهم، حتى بلغ الشيـخ داره . .

وأمام باب الدار، قدم له الأمير فـرساً قـال انه خيـر ما عنـدهم من الخيـل العربيـة الأصيلة، وأقسم على الشيخ أن يقبـل الفـرس، فهـو ليس عطاء سلطان؛ ولا هدية أمير مملوكي من أولي الأمر!!

وقبل الشيخ الهدية شاكراً، وسألوه الصفـح عنهم، والدعـاء لهم، وانصرفوا عائدين . .

* * *

خـرج عسكر الشـام بقيادة نـائب السلطان، وأقبل عسكـر مصـر، يقـودهم السلطان، والى جانبـه الخليفة والأميـران، سـلار، وبيبـرس الجاشنكير، وهما أشد أمـراء المماليـك بأسـاً وسطوة، ودرايـة بفنون

القتال، ومعهم أحدث الآلات الحربية، والقراء يتلون القرآن، ويرددون آيات الجهاد، مستثيرين حماسة الجند، وأصداء النفير العزاف، ودقات الطبول، وحمحمة الخيل، ترج الآفاق.

والنداءات تتعالى «الله أكبر.. الله أكبر»!!..

والخليفة يخطب في المعسكر: «يا مجاهدون، قاتلوا عن دين نبيكم محمد ﷺ، وعن حريمكم».

وانضم العربان بقيادة الأمير حسام بن مهنا الى عسكر الشام، وجعلوا لأنفسهم مكاناً خاصاً قرب أحد جناحي الجيش..

ووقف ابن تيمية على صهوة جواده في ملابس عسكرية، يشد أزر الجميع...

وسمع بالقرب منه أحد رجال الجيش يهمس لصاحبه: «كيف نقاتل التتار وهم مسلمون مثلنا».. فخطب ابن تيمية في العسكر: «ما زال يهجس في صدور بعضكم هاجس يوسوس له أن التتار مسلمون مثلنا، فلا يجوز قتالهم. وهذه وسوسة الشيطان. فهؤلاء من جنس الخوارج الذين خرجوا على علي بن أبي طالب ومعاوية، ورأوا أنهم أحق بالأمر منهم، فحاربهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه. هؤلاء يزعمون أنهم أحق باقامة الحق من المسلمين، ويعيبون على المسلمين ما هم متلبسون به من المعاصي والظلم، وهم متلبسون بما هو أعظم منه بأضعاف مضاعفة.. فان رأيتموني في ذلك الجانب وعلى رأسي مصحف فاقتلوني!....».

ثم استطرد:

«انهم جاؤنا معتدين يغزون أرضنا ويبغون علينا فجاهدوهم، فقد وعدكم الله تعالى بالنصر. ومن بغي عليه لينصرنه الله» . .

وأخذ الشيخ يطوف على العسكر صائحاً: «جاهدوا في سبيل الله بعزيمة سلفكم الصالح، وانكم لمنصورون. . انكم منصورون».

فقال له الأمراء: «قل ان شاء الله».

فقال الشيخ: «أقولها تحقيقاً لا تعليقاً».

وسرى قبس من اللهب الذي يتأجج في أعماق الشيخ، الى قلوب المترددين، فاشتعلت الحماسة والحمية. . .

وطلب السلطان من الشيخ أن يكون الى جواره على قلب جيش مصر، فقال الشيخ: «السنة أن يقف الرجل تحت راية قومه، ونحن من جيش الشام لا نقف الا معهم».

ومال السلطان على أذن الخليفة، يستأذنه أن يأمر جيوش مصر والشام بالمسير لملاقاة الأعداء، فأذن الخليفة قائلاً للجنود: «يا مجاهدون. دافعوا عن دين نبيكم محمد ﷺ، وعن حريمكم».

وتحرك الجيش. .

ولاحظ الشيخ شعور الجنود بالاعياء والفتور. .

كان الوقت رمضان، والحر شديداً، ووطأة الصيام وحمارة القيظ والعطش ترهق الأبدان. .

فوقف الشيخ يفتي الناس بوجوب الافطار ليتقووا على الجهاد، فهذه هي السنة. .

وذكرهم بما صنعه رسول الله ﷺ في غزوة فتح مكة، وكان الوقت رمضان والحر شديداً . .

أفطر عليه الصلاة والسلام، وأمر الناس أن يفطروا قائلاً: «انكم ملاقوا العدو، والفطر أقوى لكم».

واعتلى ﷺ مكاناً مرتفعاً بحيث يراه الجميع، وأخذ يأكل ويشرب أمامهم . .

واتبع الشيخ سنة الرسول، فوقف على صهوة جواده ليراه الجميع، وأكل وشرب، وجال بين صفوف الجند يأكل ويشرب، ويأمرهم بالافطار . .

وأفطروا، فشعروا بعد أن أكلوا وشربوا بالقوة تدب فيهم، ونشطوا الى ملاقاة التتار . .

التقى الجمعان في مكان يدعى «شقحب»، وحارب ابن تيمية كفارس حاذق، وبهر فرسان المماليك ببسالته!

أيكون فقيه حرفته الكتابة والخطابة، أجرأ منهم في الحرب، والحرب حرفتهم؟! . .

وتباروا في ضرب العدو، وصوت الشيخ يمنحهم الثقة: الله أكبر . . انكم لمنصورون! .

وريع التتار مما يرون!!

ما عهدوا هؤلاء يحاربون بمثل هذه الجسارة من قبل . . !

وأذهلتهم الآلات الحربية الحديثة وقوة فتكها . .

واستمر القتال طوال اليوم الرابع من رمضان . .

وأدرك التتار أنهم سيلاقون هزيمة لم يعرفوها منذ «عين جالوت»!! . . فلجأوا الى أحد التلال، واختفوا وراءه والليل يقبل، ليخفيهم عن العيون!!

***

وتوقف القتال في انتظار ضوء النهار . .

ولجأ التتار إلى حيلة غريبة، فقد أرسلوا الى دمشق بعض أعوانهم الباطنية، ليذيعوا على أهل المدينة أن عساكر الشام انهزموا، ولن يعود منهم أحد، فقد قتل التتار من قتل منهم، وأسروا الباقين!!

أما أمراء المماليك الفرسان، فقد فروا . . . !

ذعر أهل دمشق، وخرج النساء الى الشوارع حاسرات مرسلات الشعور، باكيات نادبات يلطمن الخدود!.

وامتلأ ليل المدينة بالنشيج والصرخات، والفزع!! وسيطر الرعب على كل شيء . . وأخذ الناس يلعنون الأمراء الذين يظلمون الرعية في السلم، ويفرون في الحرب، واقتحموا الخزائن السلطانية، واستولوا على ما فيها من أموال.

ولجأ خلق كثير الى المساجد وأضرحة الأولياء، يدعون ويسألون الله اللطف في القضاء . . .

عاشت ليلتها في هلع وفوضى ورعب وأحزان لم تعرفها من قبل!

وسرى من الباطنية أعوان التتار، فرسان آخرون، فاندسوا بين

الجنود يخذلونهم . . وكان الجنود في جماعات متباعدة . . فأذاعوا في كل جماعة أن الجماعة الأخرى قد أسرها التتار أو أبادوها . . والنجاة بالنفس حكمة!!

وأضطرب الجند، وهم بعضهم بالفرار!!

وأسرع الشيخ الى السلطان ينبئه بخدعة التتار.

وسأله أن يأمر الجنود، بأن يصطفوا، وألا يخرج من الصف أحد، وبأن يرسل الى أهل دمشق من يدحض الأكذوبة، ويحمل اليهم الطمأنينة . . وأرسل السلطان المنادين، فأعلنوا الناس في دمشق أن العسكر بخير، وأن نصر الله آت عن قريب . .

وأمر السلطان فدقت الطبول، وعزف النفير، وانتظم الجنود في الصفوف على ضوء المشاعل، وابن تيمية يتجول بينهم على فرسه، يكشف لهم حيلة التتار، ويبين لهم حكم الشرع فيمن يفر، أو ينكص على عقيبه، مكرراً: انكم، لمنصورون، انكم لمنصورون.

وأعلن السلطان: «من يخرج من الاجناد عن الصف فليقتل، ولقاتله سلاحه وفرسه».

والفجر يشرق من بعيد . .

وعلى شعاع الفجر، قاد السلطان الجيوش الى التل الذي اختفى وراءه العدو فركبوه، وأعملوا فيه السيوف والآلات الحربية الحديثة . .

وعندما اقترب العصر يئس التتار من القتال فلاذوا بالفرار، ولكن ابن تيمية صاح في العسكر: «لا تتركوهم».

وطاردهم العسكر، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وأسروا الباقين، ولم ينج الا القليل. . وغنموا منهم مغانم كثيرة. .

* * *

عاد الجيش المنتصر بقيادة السلطان، والى جواره الخليفة والفقيه الفارس الشيخ تقي الدين بن تيمية. . . ودقات الطبول والأبواق العزافة، وتكبير الجنود، تعلن البشرى. . لقد نصر الله جنده!.

واستقبلت دمشق جيشها المنتصر بالأفراح والزينات. .

وأرسلت أنباء الانتصار على أجنحة الحمام الزاجل، الى كل بلاد المسلمين. .

واستمرت دمشق تحتفل بالانتصار عدة أيام وليال، سطعت فيها الزينات، ودوت الضحكات. . ووزع السلطان الهدايا والخلع.

وأقام في دمشق حتى صلى العيد. . .

وتركها في اليوم الثالث من شوال الى القاهرة. .

وفي القاهرة وجد في استقباله أقواس النصر، والطرقات مفروشة بالحرير، وعلى جانبيها أحواض ملئت بعصير الليمون والسكر. . والناس في أبهى حللهم يكبرون ويحمدون الله على النصر المبين.

السلطان على فرسه يبطىء السير رفقاً بالحرير المفروش على الأرض، والى جواره الخليفة يحيى الناس على الجانبين، وهم يهتفون له وللسلطان، ومن خلفهما أمراء الجيش المنتصر، يسوقون أسراهم من أمراء التتار وقوادهم، مصفدين في الأغلال، وخلفهم

العسكر وآلاف الأسرى الآخرين، وأرتال الابل تحمل الغنائم الكثيرة.

وصعد السلطان الى قصره بالقلعة وسط الهتافات والزغاريد، فأمر بمنح العطايا والهبات والخلع، أعيان البلاد وفقراءها على السواء..

استمرت الأفراح في القاهرة أياماً وليالي: في النهار تغمر الزوارق المزدانة بالرايات، صفحات النيل والخلجان والبحيرات التي تتخلل القاهرة، وتعمر الحدائق بالناس وأصحاب اللهو والحواة.. وفي الليل تتلألأ الأنوار في الطرقات وتزدحم السرادقات بروادها يستمعون لأهل الغناء والطرب، ويشاهدون الراقصات.

واستمر الحال نحو أسبوع، حتى ضج الصالحون من العلماء، فصعد الشيخ ابن دقيق العيد الى القلعة، وشكا للسلطان اسراف الناس في اللهو، حتى اقترفوا المنكرات جهاراً، في الزوارق والحدائق والطرقات!! وسأله أن يكف الناس عن هذا الفساد.

فأجابه السلطان قائلاً: «انك لتذكرني بالشيخ تقي الدين بن تيمية، سيد العلماء والفرسان».

فقال ابن دقيق العيد: «لو أن الشيخ تقي الدين بن تيمية كان هنا، وعاين ما عايناه من المنكرات باسم الابتهاج بالنصر، لقاء جماعته من الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، وحارب أهل الفساد!!.. ألا تأمر يا انسان (هكذا كان ينادى السلاطين والأمراء) بأن يتلى القرآن في المساجد حتى يختم، ثم يقرأ البخاري، وأن يستمر هذا من الأيام والليالي أضعاف الزمن الذي استغرقته الأفراح والمعاصي؟

عسى الله أن يرضى عنك ويغفر لأهل مصر ما ارتكبوه من المعاصي».

قال السلطان: «لك هذا يا شيخنا».

استطرد ابن دقيق العيد: «بعد هذا نستقدم الشيخ تقي الدين بن تيمية، فبنا اليه شوق، وأهل مصر بحاجة الى علمه».

قال السلطان: «ألححت عليه وأنا في دمشق أن يصحبنا الى القاهرة، لنتبرك به، ولينفع الله بتقواه وعلمه أهل الكنانة فما قبل».

لقد آثر ابن تيمية أن يبقى في دمشق، ليرى كيف يسلك مع الذين ناصروا التتار من أهل الشام، وظاهروهم على قومهم!!

لقد جاء وقت الحساب!!

الفصل الخامس

هدأ الناس واستقرت أمورهم، بعد الانتصار الكاسح الساحق على التتار. . الا الشيخ تقي الدين، فما هدأ، ولا استقر. . !

انـه ليحـاول أن يستخلص العبـرة، من كـل مـا مـر بـالأمـة من أحداث. . . !

لقد استقر رأيه على أن يحاسب المفسدين، والذين خانوا الأمانة، فناصروا التتار والصليبيين، حينما كان الجيش يحارب. .

سيظلون ثغرة يتسلل منها العدو. . وعلى المؤمنين سد الثغور.
حقاً. . لقد جاء يوم الحساب والعقاب.

ليس هؤلاء وحـدهم هم الذين يستحقـون العقاب، ولكنهم أيضـاً الولاة الذين يظلمون الـرعية، ويـدفعونهـا الى اليأس، حتى لتستـوي لديها أظفار الذئاب المغيرة عليها، وعصى رعاتها الظالمين. . !!

ثم. . صنـاع البدع والضـلالات، ممن يخرجـون بالأمـة عن نهج السنة، ويشغلونها بالأباطيل!
هؤلاء وبال يجب الخلاص منه.

ولكنـه ان انشغل بهـذا كله، لزعم حسـاده من العلماء، انـه تـرك الفقه وعلوم الدين، ليعمل بالسياسة طلباً للرياسة والسلطة والجاه!

لا . . ما اهتمامه بهذا البهتان . . ؟! . .

انـه ليعرف أن هـدف الشريعـة هو تحقيق المصلحـة للأمـة ودفـع الضرر، وأماطة الأذى!

واذن فالعلماء ليسـوا فيران كتب، ولكنهم حملة مشـاعل، وأدوات تنوير.

هم أولو الأمر كالولاة، وهم مسئولون أمـام الله، عن نصرة الحق، ودحض الباطل، واقامة المجتمع الفاضل . .

والا فما جدوى ما يحملون من علم؟!

انهم ان سكتـوا، حقت عليهم لعنـة الله، وضلوا ضـلالاً بعيـداً، فالرسول ﷺ بشر بالخسران في الـدنيا والآخـرة، قومـاً من العلماء لا يعملون بما تعلموه . . !

انهم في الحق لكاذبين حملوا التـوراة فلم يحملوها، ولم يعملوا بها . . فمثلهم كمثل الحمار يحمل أسفاراً . . . !

* * *

فليذهب الى نائب السلطان، فيكلمه في الباطنيـة، الذين نـاصروا التتار وكاتبوا الصليبيين زمن الحرب . .

غيـر أنـه تـردد بعض الشيء، فهـو لا يحب أن يـطرق أبـواب الحكام!!

لقد قام السلطان الناصر نفسه هنا أياماً بعد الانتصار، فما ذهب الشيخ اليه، فكان السلطان يدعوه كل ليلة بعد الافطار، ويسأله النصيحة والموعظة . .

ان الشيخ لا يجد عند الحكام الا ما يوجع القلب: أهل الزيف والنفاق يتزلفون، وبعضهم واحر قلباه من العلماء . !

الحكام تعودوا أن يسمعوا لغة غير التي يتقنها الشيخ . . استطعموا المداهنة والمديح . . والشيخ لا يعرف غير المصارحة والمكاشفة وقولة الحق! . .

ولكن تردد الشيخ لم يطل، فهو لا يذهب الى هذا الحاكم أو ذلك للمؤانسة ولكن دفعاً للضرر عن الأمة، وجلباً لمنفعة الناس.

وذهب الى نائب السلطان، فوجد ما كان يتوقعه: حلقة المنافقين وطلاب المنافع! . .

وخف نائب السلطان لاستقباله، متواضعاً له . .

طلب الشيخ من نائب السلطان أن يعلن الحرب على الباطنية الذين يعتصمون بالجبل، تأديباً لهم عما اقترفوه من خيانة الأمة، ومناصرة المعتدين الباغين عليها . .

وطلب منه نائب السلطان، أن يمهله رويداً، فحرب كهذه يجب أن يأذن بها السلطان نفسه . .

فقرر الشيخ أن يكتب هو نفسه للسلطان . . على أن يحمل الحمام الزاجل رسالته على جناح السرعة.

وتهيأ الشيخ للخروج، ولكن رؤساء اليهود بالشام أقبلوا، لأمر عاجل أهمهم . .

وألح نائب السلطان على الشيخ أن يبقى، ليجادل عنه رؤساء اليهود.

كانوا قد طلبوا من قبل رفع الجزية التي فرضت على أهل الذمة، منذ الفتح الاسلامي، حين خير الفاتحون أهل الكتاب بين الدخول في الاسلام، أو دفع الجزية . .

وكان نائب السلطان يجد حرجاً في الاجابة اليهم، ويجد حرجاً في رفض طلبهم، فهم يملكون أكثر التجارة، وقد يحدثون اضطراباً في حياة الناس وأموالهم.

وقدم رؤساء اليهود وثيقة، تعفيهم من الجزية، وزعموا أنها عهد لهم من الرسول ﷺ . . !

وقدم نائب السلطان الورقة للشيخ، وسأله الرأي . .

ولما قرأها الشيخ بعناية، قال ان الوثيقة مزورة، فأسلوبها ليس هو أسلوب الرسول عليه الصلاة والسلام، وفيها أخطاء في الكتابة والنحو، ما كان ليقع فيها أحد في عصر الرسالة، والعصر الذي يليه، فكيف يقع فيها الرسول نفسه؟!

ثم قال لهم انه عندما قابل قازان سلطان التتار، حدثه عن أهل الذمة فأطلق الاسرى من اليهود والمسيحيين، فهو لا يحمل عليهم، ولا يتعصب ضدهم، لأنهم في ذمة الله ورسوله ورعايتهم واجبة . .

ولكنه لا يرضى منهم بالكذب على رسول الله ﷺ، ولا بالاحتيال

على ولي الأمر، وعليهم أن يدفعوا الجزية، والا يرجعوا الى مثل هذه الاكـاذيب، والا وجب على ولي الامـر تعـزيـرهم. . أي حبسهم وجلدهم أو ما يراه ولي الامر من العقوبات! . .

وانصرف زعماء اليهـود، كاسفين آسفين، معتـذرين، وتعهدوا ألا يعودوا لمثلها أبداً . .

وانصـرف الشيـخ يكتب الـرسـالـة للسلطان النـاصـر محمـد بـن قلاوون، ليطير بها الحمام الزاجل الى القاهرة. .

كتب الشيخ عن الباطنية انهم: «لما قدم التتار الى البـلاد وفرحـوا بمقدمهم، فعلوا بعسكر المسلمين مـا لا يحصى من الفساد، وأرسلوا الى أهل قبرص الصليبيين فملكـوا الساحـل، وحملوا راية الصليب، وحملوا الى قبرص من خيل المسلمين وسلاحهم وأسراهم ما لا يحصي عـدده الا الله، وأقام سـوقهم بـالسـاحـل عشـرين يـومـاً يبيعـون فيـه المسلمين والخيل والسلاح على أهل قبرص. ولمـا خرجت العسـاكر الاسلامية من الديار المصرية، ظهر فيهم من الخزي والنكال ما عرفه النـاس منهم. ولمـا نصـر الله الاسـلام النصـرة العـظمى عنـد قـدوم السلطان، كـان بينهم شبيه بـالغبراء. كـل هذا وأعـظم منه عنـد هذه الطائفة، كان من أسباب خـروج جنكيزخـان الى بلاد الاسـلام، وفي استيلاء هولاكـو على بغداد وفي قـدومه حلب وفي نهبـه الصالحيـة، وغير ذلك من أنواع العداوة للاسلام. . . . وقد كان جيرانهم من أهل البقـاع وغيـرهـا، منهم في أمـر لا يضبط شـره، كـل ليلة تنـزل منهم طـائفة، ويفعلون من الفسـاد ما لا يحصيـه الا رب العباد. كـانوا في

قطع الطرقات واخافة سكان البيوتات على أقبح سيرة عرفت من أهل الجنايات: يرد اليهم النصارى من أهل قبرص فيضيفونهم ويعطونهم سلاح المسلمين، ويوقعون بالرجل الصالح من المسلمين فاما أن يقتلوه واما أن يسلبوه».

ثم تحدث عن اباحتهم المحرمات جميعاً.

وطالب في آخر الرسالة بأن يصدر السلطان أمره الى نائبه في دمشق بحربهم، والزامهم الشريعة، حتى تطمئن الأمة، ويسود سلطان الدين.

وطار الحمام الزاجل بالرسالة، وانتظر الرد.

* * *

على أنه خلال انتظاره لم يلتزم الصمت، بل جعل كل دروسه وعظاته، توجيهاً للناس ليتطوعوا لجهاد الباطنية، ان أذن لهم السلطان، وسيأذن ان شاء الله . .

قال الشيخ وهو يعظ الناس: «في رواية لمسلم أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: تكون أمتي فرقتين فتخرج من بينهما مارقة (أي فرقة مارقة) تلي قتلهم أولى الطائفتين بالحق. فهؤلاء الذين قتلهم أمير المؤمنين علي، رضي الله عنه، لما حصلت الفرقة بين أهل الشام وأهل العراق. وكانوا يسمون الحرورية. بين النبي ﷺ أن كلتا الطائفتين المفترقتين من أمته، وأن أصحاب علي بن أبي طالب أولى بالحق، ولم يحرض الا على قتال أولئك المارقين الذين خرجوا من الاسلام، وفارقوا الجماعة، واستحلوا دماء من سواهم من المسلمين

وأموالهم. فثبت بالكتاب والسنة واجماع الأمة، أنه يقاتل من خرج عن شريعة الاسلام . . ».

وأفتى الشيخ «ان قتال هؤلاء واجب على المسلمين جميعاً، ولا تكفي فيه فئة كالعسكر، عن سائر المسلمين، ذلك أنهم معتدون، فصار دفع عدوانهم «واجباً» على المقصودين بالعدوان وغير المقصودين، لاعانتهم، كما قال تعالى: **﴿وان استنصروكم في الدين فعليكم النصر﴾** وكما أمر النبي ﷺ المسلم بنصر المسلم . . . وهذا يجب بحسب الامكان على كل مسلم بنفسه وماله. ولكن خروج المسلمين لقتالهم لا يصح شرعاً الا باذن ولي الأمر وهو السلطان. . فلينتظروا أمر السلطان».

وسأله سائل: «اذا كان قتالهم يجب على كل مسلم قادر، ففيم انتظارنا حتى يأذن السلطان؟».

قال الشيخ: «لانه ولي الامر وهو الراعي المسئول عن الرعية بنص الحديث الشريف. ولا تعلن الحرب الا باذنه وله على الرعية الطاعة، والا اضطربت أمور الناس، وتحكم الهوى، وعمت الفوضى، وتفرق الشمل واشتعلت الفتنة! وقد جاء في الاثر أن مائة عام من سلطان جائر خير من يوم واحد بلا سلطان. فاذا أخطأ ولي الامر فلنا عليه النصيحة. قال رسول الله ﷺ: (ان الله يرضى لكم ثلاثة: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم.) . . »

* * *

ها هو ذا الشيخ ، ومعه نائب السلطان ، وسائر الناس ينتظرون رد القاهرة : أن يأذن السلطان للعسكر، ولمن يتطوع من الرعية، في قتال الباطنية الذين ناصروا التتار والصليبيين.

والشيخ ما زال كالعهد به يقرأ ويكتب في منزله، ولكن أكثر وقته موزع بين درسه في دار الحديث، ومواعظه وفتاواه في الجامع الاموي، ولقاءاته ببعض العلماء من المذاهب المختلفة، يستنفرهم ليفتوا بقتال الباطنية.

وكان لا بد له أن يستقصي فكر الباطنية ومعتقداتهم، ليشرحها للناس، فيثير حماستهم.

ووقف الشيخ على حقيقة الباطنية الذين يعتصمون بالجبل، فهم دولة خارج الدولة: لها عقائدها وأعرافها. .

انهم عدة فرق، كلهم ينسب نفسه الى الشيعة!!

ولكنهم غير الشيعة الزيدية، والشيعة الامامية، فهؤلاء لهم معتقدهم الحسن، ولهم اجتهادهم.

والشيعة الامامية تسير على نهج الامام جعفر الصادق، وقد كان من أعلم الناس بالسنة ، وقد تعلم منه الامام أبو حنيفة النعمان ، اذ صحبه سنتين قال عنهما : «لولا السنتان لهلك النعمان . » .

وكان الامام مالك لا يقطع درسه لمقدم احد، حتى الخليفة نفسه، الا اذا جاءه الامام جعفر الصادق. . !

والامام مالك لا يعرف المجاملة ، فحين ناظره الخليفة المنصور

في مسجد رسول الله ﷺ، حيث تعود الشيخ أن يلقي درسه، ورفع الخليفة صوته، قال له الامام مالك: «يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك في هذا المسجد، فان الله تعالى أدب قوماً فقال: ﴿لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾. وذم قوماً فقال: ﴿ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾ وان حرمته ميتاً كحرمته حياً».

الامام مالك الذي تعود هذه السيرة مع الخلفاء، كان اذا رأى الامام الصادق يدخل المسجد النبوي ليجلس حيث انتهى به المجلس، قطع الدرس وناداه وأجلسه الى جواره، ونزل له عن وسادته.

فهؤلاء الشيعة الامامية والزيدية حماة للدين. أمناء على السنة، وما زلنا نغترف من فقه الامام جعفر الصادق، فهؤلاء الشيعة الامامية، اخوان لنا.

وان اختلف معهم أهل السنة، فهو خلاف لا يمس حقيقة الشريعة أو جوهر العقيدة، بل هو خلاف في الفروع، كخلاف الأئمة الاربعة فيما بينهم.

أما الباطنية فهم في واد آخر، وان ادعى بعضهم مذهب الشيعة الامامية أو الزيدية.

وهؤلاء الباطنية بفرقهم المختلفة، يقولون ان الله تعالى يحل في نفس الامام، ويحق للامام أن يعفيهم من التكاليف كالصلاة والزكاة والصوم وحج البيت.

ومن هؤلاء فريق يسمى النصيرية وهم يذهبون الى أن الله تعالى

قـد حل في جسـد أمير المؤمنين علي بن أبي طـالب رضي الله عنـه، فهم يؤلهـونه. . ومنهم من يقـول ان جبريـل عليه السـلام أخـطأ فبلغ الرسالة محمداً بدلاً من علي!!

وقد حارب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أسلافهم الذين نـادوا بهذا، وقتلهم، وأمر باحراقهم.

ومن هؤلاء من يعتقد أن الله تعالى قد حل في جسـد الحاكم بـأمر الله الخليفة الفاطمي الـذي كابـده أهل مصـر، وقتله بعض أقربـائه. وهؤلاء هم الحاكمية الذين يعبدون الحاكم بأمر الله، ويزعمون أنه لم يمت، لأن مثله لا يموت، وأنه قد اختفى وسيعود!

ومن هؤلاء البـاطنية فـرقة تسمى الاسمـاعيلية، وهـم يعتقـدون أن امـامهم يعلم من الشريعـة ما لا يعلمـه غيره، فهـو علم خصه بـه الله تعـالى، وان الامـام لا يلزم أن يكـون ظـاهـراً، بـل يجـوز أن يكـون مستـوراً، والامام عنـدهم معصـوم لا يخـطىء. ومنهم طـوائف تؤلـه الامام علي بـن أبي طالب كرم الله وجهه.

وهؤلاء البـاطنية بكـل فرقهـم قـد اتخذوا اسمهم من اعتقـادهـم أن للشريعة ظاهراً وباطناً. وظاهر الشريعة هو ما يعرفه أهل السنة. . أمـا الباطن فلا يعرفه غيرهم. وللباطن باطن، وباطن البـاطن لا يعرفـه الا امامهم!!

ولهذا أولوا آيات القرآن وأركان الاسلام، وقالوا ان لهـا باطنـاً غير مـا يفهم من ظاهـرها: فـالصـوم عنـدهم هـو الامتنـاع عن الكـلام، ودليلهم الآية الكريمة على لسان مريم: ﴿اني نذرت للرحمن صوماً

فلن أكلم اليوم انسياً﴾. والـزكـاة عنـدهم هي بث علومهم لأهـل مـذهبهم، ليتـطهـروا بهـا، لأن الـزكـاة عنـدهم من التـزكيـة وهي الطهارة . .

ومن أمثلة ذلك أنهم أولوا الآية الكريمة: **﴿وأوحى ربك الى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون﴾** فالنحل هم دعـاة الامـام، والجبـال هم دعـاة البـلاغ، والشجـر هم الحجـج والبراهين.

وقالوا في الله تعالى قولاً عـظيماً، فـزعموا أنـه لا يوصف بنفي ولا اثبـات فلا يقـال عنه مـوجود ولا معـدوم، ولا قادر ولا غيـر قادر، ولا عالم ولا غير عالم . . فنفوا الصفات والاسماء الحسنى.

وهم يتعاطون الحشيش والاعشاب المخدرة، ويحتفلون بليلة لهم من كـل شهر تسمى ليلة الافـاضة، وفيهـا يجتمع الـرجـال والنسـاء، ويفضي بعضهم الى بعض في ظلام، وبعد اطفاء المصابيح. ويروى أن امرأة منهم أصبحت بعد ليلة من ليالي الافاضة، «فجزت ذوائبها، وخرجت تصرخ، وأخبرت أن ولدها غشيها في تلك الليلة».

* * *

غلت الدماء في العروق، وغمت النفوس بالغثيان، لما قاله الشيخ تقي الدين عن هذه الفرق الباطنية . .

كان الناس يعرفون أنها فرق فاسدة الاعتقاد، وأنها تظاهر الاعـداء عليهم . . وأنهم أيام خروج صلاح الدين ليحرر القدس وأرض الشام

وفلسطين، حالفوا الصليبيين ضده، وحاولوا اغتياله.

وكان الناس يعرفون أنهم يتعاطون الحشيش حتى عرفوا باسم الحشاشين.

ولكن ما من أحد كان يتخيل أنهم يمكن أن يغرقوا في أوحال الخطايا الى هذا المدى!! ذلك أن هذه الفرق الباطنية كانت تعتصم في جبل النصيرية لتعيش في مجتمع مغلق عليهم، لا يعرف أحد شيئاً عن قيمه وأعرافه..

كانت تأخذ بالتقية، فلا تكشف عقائدها ولا عاداتها لأحد، وتساير كل صاحب مذهب..

غير أن الشيخ ابن تيمية اهتم بهم منذ رآهم يناصرون الاعداء، فدرس معتقداتهم من بعض حلفائهم من الاعراب.. وتقصى أحوالهم وعاداتهم..

***

واذن السلطان بقتالهم، وأرسل أمره إلى نائبه بدمشق، أن يقود حملة من العسكر الى الباطنية ومعه الشيخ تقي الدين بن تيمية، ومن يتطوع للقتال.

وتحدث ابن تيمية في أمر القتال مع أحد زعماء الشيعة الامامية، وهو نقيب الاشراف فوافق أن يخرج برجاله لقتالهم مع ابن تيمية، أداء للواجب الشرعي، وتطهيراً لسمعة شيعة آل البيت.

خرجت حملة كثيفة على رأسها الشيخ تقي الدين بن تيمية، ومعه

نقيب الاشراف، ومن بعدهم العسكر بقيادة نائب السلطان. .

وتقدم الجند فحاصروا الباطنية من جانب، وحاصرهم الشيخ ورجاله من جانب آخر. . وشعر الباطنية بوطأة الزاحفين عليهم، فلاذوا بالغابات، واختفوا عن العيون.

وأفتى الشيخ بقطع الأشجار، وهدم المنازل. .

قال الشيخ: «. . . ان النبي ﷺ لما حصر بني النضير قطع اصحابه نخيلهم وحرقوه. . . . وقد اتفق العلماء على قطع الشجر وتخريب العامر عند الحاجة اليه. فليس ذلك بأولى من قتل النفوس. ان القوم لم يحضروا كلهم من الاماكن التي اختفوا فيها، وما أيسوا من المقام في الجبل الا حين قطعت الاشجار، والا كانوا يختفون حيث لا يمكن العلم بهم».

وعاد ابن تيمية ونقيب الاشراف ونائب السلطان ورجالهم الى دمشق، بعد أن هزموا الباطنية.

عاد الشيخ، الى دمشق ليجد كتاباً من السلطان ينعي فيه ابن دقيق العيد أمام دار الحديث في مصر، ويسأله الرأي فيمن يخلفه، وفيمن يتولى مناصب القضاء.

واضطرم حقد حساده عليه، ولكن الشيخ لم يبال، وأجاب السلطان الى مسألته.

* * *

عاد الشيخ منتصراً ليواجه الاعداء الآخرين.

كـانت طائفـة تنتسب الى التصوف، وتـدعى أنها من أتبـاع السيد أحمـد الرفـاعي، تزحم الـطرقـات، وتشغـل العـامـة وتستـولي على أموالهم بألعاب تبهرهم: كمداعبة الأفاعي السامة، والدخول في النار والخروج منا دون أن تمسهم النار.. !

وكانوا يقـولون انهم أصحـاب طريقـة في التصوف، ويضعـون في رقابهم أطواق الحديد، تميـزاً لهم عن الآخرين، ويسمـون أنفسهم: الفقراء الى الله تعالى.

وأعلن الشيـخ تقي الـدين أنـه ينـزه السيـد أحمـد الـرفـاعي، عن انتسابهم اليه..

فالسيخ قد قرأ عن الرفاعي، وقرأ له، وهـو يخالفـه الرأي، ولكنـه مهمـا يختلف مع آراء هـذا السلف من الصوفيـة، يعـرف مـا لهم من فضل، وان كان لا يخفي ما عليهم من مآخذ.. !

أما هؤلاء الرفاعية من أتباع مذهب السيد أحمد الرفاعي، فـالشيخ يـراهم من أهـل البـدع الـذين يجب أن يـطهـر منهم الأمـة، ويبـطل أحدوثتهم.

ومضى الشيخ يناقش شيوخ الرفاعية أمام العامة، ويتهم بـالشعوذة، وبـالخروج على سيـرة شيخهم الرفـاعي الزاهـد الورع، الـذي ينكر البدع..

وطالب الناس أن ينفضوا من حولهم، والا يشهدوا ما سمـاه أفانين شعوذتهم..

وشكـاه زعماء الـرفاعيـة الى نائب السلطان، وسـانـدهم عـدد من العلماء من خصوم الشيخ وحساده.

فطلبه نائب السلطان، وسأله ألا يشدد النكيـر على الرفـاعية، وأن يدعهم في حالهـم.

وكان نائب السلطان يعتقد في كراماتهـم. . !

فقال له الشيخ: «بل أنا أسألك ان تأمرهم بالكف عمـا هم آخذون فيه من بدعة ومنكر! ولا بد لكل واحد أن يدخل تحت الكتاب والسنة قولاً وفعلاً، ومن خرج عنهما وجب الانكار عليه». .

فأحضر نائب السلطان زعماء الرفاعيـة، وأخبرهـم أن ابن تيميـة لا يريد الكف عنهم، لانـه يرى في أفعـالهم منكراً وبـدعاً، تخـرج عن الكتاب والسنة.

فـاقترحـوا على نائب السلطان، أن يعقـد لهم مجلساً يحضـره هو والعلماء وابن تيمية، ليرى الجميع ما يأتوه من كرامـات، هي بركـات شيخهم الرفاعي.

وعقد المجلس، ودعي اليه العلماء وابن تيمية. .

فقال ابن تيمية قبل أن يبدأ الرفاعية ألعابهم: «تلك أحوال شيطانية بـاطلة، وأكثر أحـوالهم من باب الحيـل والبهتـان. ومن أراد منهم أن يدخل النار، فليدخـل أولاً الى الحمام، وليغسـل جسده غسـلاً جيداً ويدلكه، ثم يدخل بعد ذلك النار ان كان صادقاً. ولو فرض أن أحـداً من أهـل البدع دخـل النار بعـد أن يغتسـل، فـان ذلـك لا يـدل على صـلاحه ولا على كـرامته، بـل حالـة من أحوال الـدجاجلة المخـالفة

للشريعة اذا كان صاحبها على السنة. فما الظن بخلاف ذلك؟»

فقال زعيم الرفاعية غاضباً: «نحن أحوالنا انما تنفق عند التتار، ولا تنفق عند الشرع» فالتقط الشيخ تقي الدين بن تيمية هذا القول، وسأل نائب السلطان والعلماء الحاضرين، عن رأيهم فيما قاله شيخ الرفاعية!

فأنكره الجميع واشتدوا في اللوم على الرفاعية وشيخهم.

وأصدر نائب السلطان أمره أن «يخلع الرفاعية أطواق الحديد من أعناقهم، وأن من عاد منهم الى البدعة، وخرج عن الكتاب والسنة، ضربت عنقه.»

وخرج الرفاعية منكسرين.

* * *

أما الشيخ فقد بقي عند نائب السلطان، وسأله أن يأمر بابطال بدعة منكرة أخرى: فقد علم أن في أحد الجبال صخرة بارزة يتبرك بها العامة، ويسألونها قضاء الحاجة، ويطوفون حولها كما يطوفون حول الكعبة، وكل طواف الا الطواف بالكعبة بدعة، كالطواف حول الصخرة بالمسجد الاقصى!

وأصدر نائب السلطان أمره، بابطال الطواف حول الصخرة التي ذكرها الشيخ..

ولكن الناس ظلوا على حالهم!.

فطلب الشيخ من نائب السلطان أن يأذن له في الخروج لقطع الصخرة، فأذن له.

وخرج برجاله ومعه بعض الحجارين بمعاولهم، فقطعوا الصخرة.. وعادوا.

وفي طريق العدوة سأله أحد أصحابه: «ما بالك اليوم تحملنا على ألا نغير منكراً الا باذن السلطان أو نائبه؟.. أما كانت جماعتنا منذ عشرين عاماً ترهب أهل الفساد؟ أما كنا نمضي دون اذن من أحد فنكسر الحانات، ونريق الخمور، ونكبس البيوت المتخذة للفواحش، ونضرب الفساق، ونحلق شعور المتشبهين من الرجال بالنساء وغيرهم من الغلمان، ونرجم من يفعل فعل قوم لوط؟! أما كنا نغير المنكر بأيدينا، فما بالك اليوم تكف أيدينا حتى يأذن لنا السلطان أو نائبه؟!».

قال الشيخ: «سأجيبك في الحلقة، لتعم الفائدة ان شاء الله».

وعندما اكتملت له حلقته في الجامع الاموي، قال: «كنا نقاوم المنكر بأيدينا منذ نحو عشرين عاماً دونما اذن من ولي الأمر، ولكن عندما فتح الله علينا وزادنا علماً بفضله، تبين لنا أن ما كنا نقوم به ليس هو الشرع. فاعلموا منذ اليوم ان اقامة الحدود، وتعزير الخاطئين من ضرب وسجن وجلد خفيف ونحوه، واتلاف المال الحرام... كل ذلك من عمل ولي الأمر، فهو المسئول وحده عن انزال العقاب، وليس لأحد الأمة أن يقوم عنه بهذا الا اذا أذن له ولي الأمر..

ولي الأمر وحده هو الذي يحق له عقاب أهل الجنايات وقهر الناس على التزام الجادة، واتباع حكم الشريعة.

أما ما كنا نقوم بـه منذ عشـرين عامـاً فهو غلط سببـه نقص العلم . وقد أوقعتنا فيه الغيرة على السنة، وحمية الشباب وشرته، والجهل بما للراعي على الرعية من حقوق. فعفا الله عمـا سلف. ربنا لا تؤاخـذنا ان نسينا أو أخطأنا . »

وسكت الشيخ ، وسأل مستمعيه أن يحاوروه. وكانت هذه عادته.

فقال أحد تلاميذ الشيخ : «علمتنا يـا شيخنا أن الـرسول ﷺ قـال : (من رأى منكم منكراً فليغيره بيـده، فان لم يستـطع فبلسانـه، فان لم يستـطع فبقلبـه وهـذا أضعف الايمـان) . . فهـل تـرضى لنـا أضعف الايمـان؟ . . أيكتفي الـواحـد منـا بـأن يهتـدي ، ولا يبـالي بضـلال سواه؟» .

وقال رجل آخر من رواد الحلقة : «سمعنا منك انه جاء في الاثر أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه صعـد منبر رسـول الله ﷺ وقال: «أيهـا الناس، انكم تقرءون هذه الآية وتضعونها في غيـر موضعها **﴿عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم﴾** واني سمعت رسول الله ﷺ يقـول: (ان الناس اذا رأوا المنكـر فلم يغيـروه، أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه). فكيف تأمرنا يا شيخنا الا نغير المنكر بأيدينا؟» .

وقال ثالث: «أنت الـذي علمنا الحـديث الشريف: (ان المعصيـة اذا أخفيت لم تضـر الا صاحبهـا، ولكن اذا ظهرت فلم تنكـر أضرت العامة). فكيف تطلب منا أن نترك أهل الفسـاد يجهرون بـالمعاصي ويضـرون العـامـة، ونحن ننـظر، ولا نتحـرك لتغييـر المعـاصي بأيدينا؟ ! » .

قال الشيخ: «لعن الله تعالى بني اسرائيل لانهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه.. بل أنا أخرج معكم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر».

غير أن هذا يجب ألا يتجاوز ما أمرنا الشرع به. والا تجاوزنا حدود الله. ذلك أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين ولا يتم الدين الا بها. فان بني آدم لا تتم مصلحتهم الا بالاجتماع، لحاجة بعضهم الى بعض، ولا بد لهم عند الاجتماع من الحاجة الى رأس. حتى قال رسول الله ﷺ: (اذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم). وطاعة هذا الأمير واجبة شرعاً. وقد روى الامام أحمد في مسنده: (لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الارض الا أمروا عليهم أحدهم). فأوجب صلى الله عليه وسلم تأمير الواحد في الاجتماع القليل العارض في السفر، تنبيهاً بذلك الى سائر أنواع الاجتماع.

وان الله أوجب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يتم ذلك الا بقوة وامارة، وكذلك سائر ما أوجبه من الجهاد والعدل، واقامة الحج والجمع والاعياد، ونصر المظلوم، واقامة الحدود، لا تتم الا بالقوة والامارة. ولهذا روى (ان السلطان ظل الله في الارض). ويقال: «ستون سنة من أمام جائز أصلح من ليلة واحدة بلا سلطان. ولهذا كان السلف كالفضيل بن عياض، وأحمد بن حنبل، وغيرهما، يقولون: (لو كان لنا دعوة مجابة لدعونا بها للسلطان)... وهو يعني السلطان براً كان أو فاجراً. على أن تولية الابرار خير للامة من تولية الفجار.

فمن كان عاجزاً عن اقامة الدين بالسلطان والجهاد، لأنه ليس من

أولي الامر، فليفعل ما يقدر عليه من النصيحة والخير، وهو لا يكلف بما يعجز عنه.

وعلى المسلمين النصح لولي الأمر. قال عليه الصلاة والسلام: (الدين النصيحة، الدين النصيحة، الدين النصيحة. قيل: لمن يا رسول الله؟ قال: لله، ولكتابه ورسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم).

على أن ولاة الامور يجب أن يكونوا أذلة للمؤمنين، والا كانوا كفرعون وهامان، وقد جاء في الحديث: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من الكبر، ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الايمان. فقال رجل: يا رسول الله: اني أحب أن يكون ثوبي حسناً ونعلي حسناً، أفمن الكبر ذلك؟) قال: (لا. ان الله جميل يحب الجمال. الكبر بطر الحق، وغمط الناس).. صدق رسول الله. فبطر الحق جحده ودفعه، وغمط الناس احتقارهم وازدراؤهم، وهذه حال من يريد العلو والفساد كفرعون وهامان».

فقال أحد أصحابه: «ولكن السلف من الحنابلة كانوا يغيرون المنكر بأيديهم، وتنطلق جماعاتهم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تفعل كما كنا نفعل بأهل المنكر، أليس اتباع سنتهم وهم السلف الصالح أولى بنا؟».

قال الشيخ: «هؤلاء شانوا الحنابلة شيناً لا يغسله ماء البحار، كما قال أحد الصالحين من شيوخنا. فقد اشتدوا على الناس باسم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وصاروا يكبسون الدور، فان وجدوا نبيذاً أراقوه، وان وجدوا مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء، واعترضوا

في البيع والشراء، ومشى الرجال مع النساء والصبيان، فان رأوا ذلك سألوه عن التي معه من هي فأخبرهم والا ضربوه، وحملوه الى صاحب الشرطة، وشهدوا عليه بالفاحشة، فأزعجوا بغداد، وكره الناس المذهب الحنبلي، وسموا أتباعه الاراذل، وفيهم أورع الخلق وأتقاهم وأسمحهم، واتهموه بالضيق والغلو، وهو أكثر المذاهب تيسيراً على الناس. وقد أفتى أحد شيوخ المذهب، أن واجب ولي الامر هو الضرب على أيدي هذه الجماعات من الحنابلة، والزامهم طاعة ولي الامر، وحبسهم وجلدهم عقاباً لهم على ما ارتكبوه من جنايات.

لقد كان صاحب المذهب الامام أحمد أشد الناس في الحفاظ على السنة، ولكن لم يؤذ أحداً قط بقول أو فعل. وقد وقعت على خبر عنه يصلح لكم عبرة: كان له صديق فقيه، ينفس عليه أتباع أحمد ايثاره عليهم. وأرق الامام أحمد ذات ليلة وهو يفكر في مسألة فقهية دقيقة، فقام الى صاحبه ليحدثه في هذه المسألة، فوجد صاحبه بين اماء له يغنين ويرقصن. فخجل الامام أحمد، وعاد. وفي الصباح روى لبعض أتباعه ما كان، فقالوا له: (صديقك هذا يلهو بالغناء ويشرب النبيذ). فقال لهم الامام أحمد: (شرب أم لم يشرب فهو أفقهكم).

كان الامام أحمد رضي الله عنه ينهى أتباعه عن أزعاج أحد، ويلزمهم حدود النصيحة لولي الامر، دون أن ينازعوه سلطانه في توقيع العقوبات على أهل المنكر وأصحاب الجنايات».

فسـأله شـاب متحمس: «فاذا قصـر ولي الامر في محـاربة البـدع والفسـاد والامر بـالمعروف والنهي عن المنكـر، ألسنا مـأمورين بـأن ننهض عنه بهذا؟» .

قال: «من ذا الذي يـأمركم بهـذا يا بني؟!. . ان قصـر الحاكم أو خـرج عن حدود العـدالة وواجبـات ولي الامر، أصبـح حكمه ملكـاً دنيـوياً لا خـلافة نبـويـة، فهـو بـاجمـاع جمهـور الفقهـاء ملك على المسلمين وطاعته واجبة.

ان الصبر على طاعة الجائر أولى من الخروج عليه، لما في الثورة عليه من فتنة ينتج عنها قتل الابرياء. كلا الأمرين مكروه، ولكن أقوى المكروهين ـ أي الفتنة والقتل ـ أولى بالترك.

ومثل هذا الحاكم يطاع في العدل،ولا يطاع اذا أمر بمعصية، فـلا طاعة في معصية. قال ﷺ: (على المرء المسلم السمع والطاعة فيمـا أحب وكره، فان أمر بمعصية فـلا سمع ولا طـاعة). وقـال: (من ولي عليه وال فرآه يأتي شيئاً من معصية الله، فليكره مـا يأتي من معصيـة، ولا ينـزعن يداً عن طـاعته). وعلينـا له النصيحـة، ومواجهتـه بكلمـة الحق. قال ﷺ: (أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر).

أنـا أحدثكم عن ولي الامـر الذي يتـولى منصب الامامـة الكبـرى كالخلفاء والملوك والسلاطين. أما أولـو الامر في المنـاصب التي تلي الامامة الكبرى، فتغييرهـم ممكن من غير فتنة، ولذلك يجب المطالبة بتغييرهـم اذا جاروا».

وعندما انتهى درس الشيخ، خرج تلاميذه ورواد حلقته، يتعاهدون

فيما بينهم على ألا يزعجوا أحداً بعد باسم الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، وألا ينازعوا ولي الامر سلطاته في عقاب أهل المنكر والفساد وأصحاب البدع والجنايات.

ولكنهم عجبوا لما قاله الشيخ في الصبر على جور الحاكم الظالم حذر الفتنة!!..

أحق هذا؟!!

وسمعهم أحد العلماء من مخالفي الشيخ فقال: «أخطأ شيخكم... انه ما دعاكم الى الاذعان للجور، الا لانه محب للسلطان محمد بن قلاوون، ويريد أن يحميه من غضب الرعية».

قال أحد أتباع الشيخ: «فلتقل رأيك هذا في مواجهة شيخنا، فنتبين أيكم على حق».

قال العالم: «ما أحب أن أناظره، فقد يتهمني بالجهل، وأنا أسن منه بعشرين عاماً.. ولكن راجعوا قول الامام الاعظم ابي حنيفة النعمان».

فانصرفوا عنه قائلين:

ـ نحن ما نتبع الا أقوال الامام أحمد وشيخنا تقي الدين بن تيمية.

* * *

قالت ست النعم: «الا تترك الفقه قليلاً، وتتفرغ لتفسير القرآن يا تقي الدين؟ فهذا ثوابه عظيم يا بني».

قال تقي الدين: «كنت نهيتني عن التفسير يا أم».

قالت: «كان هذا وأنت شاب، أما الآن فأنت تقترب من الخامسة والأربعين ومن الناس من يدعوك شيخ الاسلام».

قال: «لا أستحق هذا اللقب بعد. أنا أدرس وأعد نفسي للتفسير، ولن أشرع فيه حتى يفتح الله علي بما أضيفه الى ما قاله الأولون».

سمع الباب يطرق، ففتحه، فوجد أمامه أمير العرب حسام بن مهنا زائغ النظرات، تحت جفنين نصف مطبقين.

ورحب به وسأله: «ما بال أمير العرب شارد البال؟ أي أمور الدنيا أو الدين يشغلك؟».

قال الأمير: «لا شيء.. غير أني أكثرت اليوم من تعاطي الحشيشة. اعذرني اذا طرقت بابك في هذه الساعة من الليل».

قال الشيخ: «مرحباً بك في أي وقت.. ولكن يا أمير العرب، ألا تعرف أن الحشيشة محرمة كالخمر؟!».

قال الأمير: «ما قلت لنا هذا من قبل، وما اطلعت في الكتاب أو السنة أو اجماع الصحابة على نص أو أثر يحرم الحشيشة».

قال الشيخ: «ما عروفوا الحشيشة والمخدرات في زمانهم بهيئتنا التي نعرفها اليوم في هذا الزمن الفاسد. ولكنها تفعل في العقل فعل الخمر فهي حرام».

قال الامير: «سألت عنها بعض العلماء من أصدقائنا، فأفتوا أنه لم يرد نص بتحريمها. وأنا أتعاطى الحشيشة مع بعض فضلاء علماء دمشق. ومنهم من لا يحسن الكتابة أو الخطابة، الا اذا تعاطاها، ومن

قراء القرآن، من لا يحسن صوته، وينسجم أداؤه، الا بالحشيشة».

قال الشيخ: «ان الحشيشة المصنوعة من ورق القنب وما شابهها من المخدرات، مسكرة وقد قال الرسول ﷺ: (كل مسكر حرام). ولم يحدد شكل المسكر ولا هيئته: فالسائل فيه كالجامد.

والحشيشة أخبث من الخمر. من جهة أنها تفسد العقل والمزاج، حتى يصير في الرجل تخنث ودياثة، فلا يغار على أهله، وغير ذلك من الفساد. والخمر أخبث من جهة أنها تفضي الى المخاصمة والمقاتلة. وكلاهما يبعد عن ذكر الله عز وجل وعن الصلاة. فالحشيشة نجسة، وهي داخلة فيما حرم الله لفظاً ومعنى بغير قياس. قال ﷺ: (ان من الحنطة خمراً، ومن الشعير خمراً، ومن الزبيب خمراً، ومن التمر خمراً، ومن العسل خمراً، وأنا أنهى عن كل مسكر.) وقال: (كل مسكر خمر وكل مسكر حرام). وما أسكر الفرق منه فملء الكف منه حرام (والفرق بفتح الفاء والراء مكيال يسع ستة عشر رطلاً).. أليست الحشيشة تخامر العقل وتغيبه؟ فهي مسكرة. وكل مسكر حدث بعد الرسول فهو داخل في الكلم الجوامع من الكتاب والسنة، فهو حرام بالنص دون حاجة الى قياس. وكل ما قاله العلماء غير ذلك في الحشيشة أو أنواع المسكرات فهو غلط أو جهل».

وكبر أمير العرب، وأعلن توبته، وأقسم أن يقوم الى العالم الذي كان يتعاطى معه الحشيش الساعة، فينهاه وجلساءه عن هذا المنكر!!

* * *

ذات مساء ذهب الشيخ الى نائب السلطان، فوجد لديه جماعة من شيوخ الصوفية، وعدداً من علماء المذاهب المختلفة. .

كان لكبار الصوفية قدر خاص عند نائب السلطان وغيره من أولي الأمر. كانوا يسترضونهم، ويسمرون بما لهؤلاء الصوفية من كرامات، ويلتمسون منهم البركات.

وتكلم الشيخ مع نائب السلطان في أمر بعض الأمراء، الذين ظلموا الرعية، حتى جعلوها تتمنى من يخلصها منهم، ولو كان عدواً مغيراً. .

ذكره بما حدث أيام غزوة التتار، واقتحام الناس قصور الأمراء، والخزائن السلطانية. . ثم استطرق الشيخ الى أساس اختيار هؤلاء الولاة، «لأنهم ليسوا أصلح من يلي الأمر، بل هي المجاملة والمحاباة. . ! وقد جاء في الحديث الصحيح: (من ولي من أمر المسلمين شيئاً، فولى رجلاً وهو يجد من هو أصلح منه للمسلمين، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين). وقال عمر بن الخطاب: (من ولي من أمر المسلمين شيئاً، فولى رجلاً لموادة أو قرابة بينهما، فقد خان الله ورسوله والمسلمين). وأنتم تولون علينا من أمراء المماليك أهل المودة وذوي القربى، أو من يطلب الولاية، أو من يسبق بطلبها. وقد دخل قوم على رسول الله عليه الصلاة والسلام يسألونه الولاية فقال: (انا لا نولي أمرنا هذا من طلبه).

وقد دلت السنة على أن الولاية أمانة. وفي الحديث الشريف (انها أمانة، وانها يوم القيامة خزي وندامة. الا من اخذها بحقها، وأدى

الذي عليه فيها). وقال عليه الصلاة والسلام: (اذا ضيعت الأمانة، فانتظر الساعة). قيل: (يا رسول الله، وما اضاعتها) قال: (اذا وسد الأمر الى غير أهله فانتظر الساعة).

ولم يعرف نائب السلطان بم يجيب الشيخ..

وقال أحد شيوخ الصوفية: «الشيخ تقي الدين من تيمية يمسي ويصبح مشغولاً بأمور الدنيا والسياسة أكثر من انشغاله بالشريعة».

قال الشيخ: «وما مقصد الشريعة الا اصلاح الناس، وعمارة الأرض، وحسن سياسة الرعية؟».

قال الصوفي: «هلا انشغلت بالحقيقة؟!».

قال الشيخ: «السنة أن الحقيقة هي الشريعة، ولا حقيقة خارج الشرع».

قال أحد العلماء: «ما شأن نائب السلطان بما يقول يا شيخ تقي الدين؟ هلا كتبت به الى السلطان الناصر محمد بن قلاوون. انه يسألك الرأي فيمن يعينهم على دار الحديث والقضاء والخطابة والتدريس والوعظ وسائر المناصب. وينزل عند رأيك، حتى فيمن هم على غير مذهبك، ولست أفضل ولا أحيد من يحكم عليهم، فان لك خصومات. ثم انك حنبلي فكيف تعدل في حكمك على المالكية والحنفية والشافعية والامامية؟».

كانت الكلمات تشي في توترها برنة الضيق، ولفحات الحسد على الشيخ تقي الدين!

ولم يرد الشيخ...

قال عالم آخر: «ليتك تترك السياسة لتهتم بالعلم وحده!»

فرد ابن تيمية ساخراً: «لعلكما لا تعرفان الحديث الشريف: (من لم يهتم بشئون المسلمين فليس منهم) فاعرفاه وافقهاه يرحمكما الله».

قال نائب السلطان: «ليتك تذهب يا شيخنا الى القاهرة فتحدث السلطان الناصر بما كلمتني فيه. فأنت شيخ للاسلام!».

انصرف الشيخ، وقد أسقط من حسابه كلمات العاملين التي فضحت ما في أغوار النفس!

ولكنه شغل بكلام الصوفي..

ما هي هذه الحقيقة التي يتحدث عنها؟! لماذا يفصل الصوفية بين الشريعة والحقيقة!؟

لم يعتبرون أنفسهم أهل الحقيقة!؟

وبم كانوا أقرب الى الله تعالى من أصحاب الشريعة من العلماء والفقهاء كما يزعم بعض أقطابهم..؟!

* * *

لزم الشيخ مكتبته ليلته تلك، يعيد دراسة الصوفية وأفكارهم..

ما انفك في كل ليلة يبحث، وينقب عن كل آثار الصوفية، ويتدبر في معتقداتهم وسيرتهم..

ثم خرج، فصارح بعض أصحابه من الحنابلة، بأنه قد اقتنع بأن المذاهب الصوفية السائدة تخالف السنة!

انها لبدعة يجب انكارها، وابطال أحدوثتها!

ولكن أصحابه نصحوه ألا يبدأ معركته مع الصوفيـة، قبل أن يهيء لها أذهان العـامة وأولي الأمـر. فالنـاس يكبرون في شيـوخ الصوفيـة زهدهم، وورعهم، ويتحدثون عن كراماتهم..

ان لهؤلاء الصوفية لشأناً عظيماً عند العامة والخاصة على السواء..

ستكون الحملة عليهم صدمة للجميع بلا استثناء... حتى لبعض تلاميذ الشيخ وأتباعه المخلصين..!

وأشار عليه شيوخ الحنابلة ـ وكانوا أكبر منه سنـاً وأوفر تجـربة ـ أن يكتب ما يخالف فيه كبار الصوفية ويمحصـه، ليتدارسـوه معاً قبـل أن يباغت الناس بالهجوم على زهاد صالحين، لهم كل تلك المكانـة في القلوب.. ان مـا ينكـره الشيـخ من أمـر الصـوفيـة لم يجيء الـوقت لاعـلانه بعـد، ومن حسن الفطن أن يعلن رأيـه في الوقت المـلائم، وحسبه ما كان منه مع الرفاعية الصوفية!

***

الوقت الآن ملائم لمواجهة ما يعلنه مخالفوه من تأويل لصفات الله والأسماء الحسنى..!

من جديد يعـود هؤلاء العلماء ليشغلوا المسـاجد وحلقـات الدرس بآرائهم!

انهم لينكرون أن الله ينزل الى السمـاء الدنيـا، على الرغم من أن نزوله منصوص عليه في الحديث الصحيح.

وقف ابن تيمية يخطب الناس في صلاة الجمعة، فحدثهم عن صفات الله تعالى والأسماء الحسنى. . فأنكر تأويل ما ورد فيها من آيات وأحاديث، وقال للناس ان الله تعالى كما وصف نفسه، وكما وصفه رسوله. ولكن بكيفية خاصة لا يعلمها الا الله تعالى وحده. وعلينا أن نتبع الصحابة في فهمهم للصفات والأسماء الحسنى، وليس لنا أن نؤول، أو نفهم غير ما جاء في ظاهر النصوص.

ثم قال: «ان الله ينزل الى السماء الدنيا كنزولي هذا».

ونزل درجة من درجات المنبر.

وصف ابن الأثير ما وقع بعد ذلك: «فعارضه فقيه مالكي،وأنكر ما تكلم به، فقامت العامة الى هذا الفقيه، فضربوه بالأيدي والنعال ضرباً كثيراً حتى سقطت عمامته، وظهر على رأسه شاشية حرير، فأنكروا عليه لباسها (لأن لبس الحرير حرام على الرجال في رأي الامام أحمد بن حنبل) واحتملوا الفقيه المالكي الى دار قاضي الحنابلة، فأمر بسجنه وعزره بعد ذلك (أمر بجلده)، فأنكر فقهاء المالكية والشافعية ما كان من تعزيزه، ورفعوا الأمر الى نائب السلطان، فكتب بذلك الى الملك الناصر بمصر».

وفي انتظار رد السلطان، خرج نائب السلطان في رحلة صيد وغاب أياماً عن دمشق.

وحدث أن قل المطر، فخرج الناس الى المساجد لصلاة الاستسقاء. وبعد الصلاة قرأ أحد شيوخ الحنابلة من كتاب للبخاري يستسقي به فغضب بعض الحاضرين من الفقهاء لأنهم حسبوا الشيخ

الحنبلي قد اختار هذا الكتاب للبخاري، تأييداً لرأي الحنابلة في مسألة الصفات ونحوها، وتعريضاً بآرائهم.. فشكوا الشيخ الحنبلي الى القاضي الشافعي، فأمر بسجن الشيخ الحنبلي. ولما علم ابن تيمية بما جرى لزميله الحنبلي، ذهب الى السجن فأخرج السجين. فحلف القاضي الشافعي أن يعيده الى السجن، والا عزل نفسه. فما كان من الأمير الذي يقوم بعمل نائب السلطان الا أن استدعى الشيخ الحنبلي الى قصره وحبسه فيه تطييباً لقلب القاضي الشافعي. ولما قدم نائب السلطان ذكر له الشيخ ابن تيمية ما جرى في حقه وحق أصحابه الحنابلة في غيبته، فتألم النائب لذلك ونادى في البلد ألا يتكلم أحد في العقائد، ومن عاد الى تلك حل ماله ودمه. فسكنت الأمور بعد أن وقع في دمشق خلط وتهويش».

ثم جاء رد السلطان الناصر على رسالة نائبه يحمل أمراً بامتحان ابن تيمية في عقيدته، وسيثبت للمنكرين عليه أنه على الحق!

وعقدت المحاكمة من علماء المالكية والحنفية والشافعية، واتهموا الشيخ بأنه يشبه الله تعالى بالبشر ويجسمه. فأنكر عليهم هذا، وقال انه انما أراد ان يقرب المعنى للعامة، أما رأيه في الصفات والأسماء الحسنى، فهي كما وصف الله تعالى نفسه في القرآن، وكما وصفه رسوله، بكيفية لا يعرفها الا الله تعالى. وهذا هو رأي الأشعري الذي يدين به محاكموه..!

وانتهت المحاكمة بقبول عقيدة الشيخ والثناء عليه، وأعلنوا هذا على الناس.

وخرج الشيخ من المحاكمة، ليجد أنصاره وأتباعه العديدين. فهتفوا له وساروا أمامه بالشموع والمصابيح والمشاعل، وأخذوا يغمزون العلماء الذين خالفوه، ويقولون ان الشيخ أفحمهم، فعجزوا عن مناظرته . .

واشتعل التعصب من جديد بين أتباع المذاهب، فشكا العلماء الى القاضي الحنفي والقاضي المالكي بعض أتباع ابن تيمية، فحكموا بتعزيرهم!

وغضب ابن تيمية وشكا الى نائب السلطان ما يحدث لأصحابه، فأطلق سراحهم . . وأصدر أمره من جديد ألا يتحدث أحد في العقائد والا أهدر دمه وماله . .

ولم يهدأ خصوم الشيخ، بل نشطوا للايقاع به . .

أرسلوا الى السلطان يشكون ابن تيمية، ويتهمونه بالكفر وبأنه يحرض العامة على أولي الأمر، ويتصرف غير مبال بنائب السلطان، وكأنه هو السلطان نفسه!!

وأرسلوا بذلك الى الأميرين سلار وبيبرس الجاشنكير، وهما أقوى الأمراء، وأشدهم نفوذاً على السلطان في القاهرة.

كتبا للأميرين أن ابن تيمية يتهمهما بالبطش والظلم، وبأن هناك من هو أحق منهما بالأمر، ويفتي بوجوب عزلهما ليتولى من هو أصلح، لأنهما انما توليا محاباة من السلطان لهما . . وكان أحدهما نائباً للسلطنة بالقاهرة، والثاني رئيس ديوانه . .

وبعد أيام.. أرسل السلطان مرسوماً يستدعي فيه ابن تيمية لمحاكمته في القاهرة!!

وشعر نائب السلطان في دمشق بالخطر على ابن تيمية، فطلب منه ألا يبرح دمشق، وسيرسل هو الى السلطان مستشفعاً.. انه ليخشى عليه مكائد سلار نائب السلطنة، وبيبرس الجاشنكير رئيس ديوان السلطان..!

ولكن ابن تيمية صمم على السفر، فما من شيء يخشاه هناك!

ولكنه يعجب لتغير قلب السلطان عليه، وسماعه الوشاية به!!

ومهما يكن من أمر فلا بد للشيخ من أن يواجه الخطر.. وقد تعود اقتحام المخاطر والمكاره!..

سافر الشيخ الى القاهرة، يودعه اشفاق أخويه، ودخوع أمه، وأنصاره العديدين، والدعاء له بالسلامة والنجاة من كيد الكائدين، وحسد الحاسدين..!



الفصل السادس

ماذا دهى القاهرة؟!..

لكأنها مدينة مهجورة..!..

أين الزحام المرح، ونداءات الباعة، والضحكات المجلجلة؟

أين طلاب العلم، والنساء والأطفال؟!.. أين تسابق الناس لمساعدة الغريب القادم؟!..

أين كل ما أحبه في القاهرة، حين جاءها، منذ خمسة أعوام..؟! كل الحوانيت مغلقة، ولا أحد في الطرقات على الاطلاق!.

ومضى الشيخ ليلقى السلطان الناصر، في قصره بقلعة الجبل، خلال سكون لا يسمع الا وقع حوافر جواده على أرض الطريق...

وبلغ الساحة الفسيحة أمام قصر السلطان، فأدرك كل شيء..

ها هي ذي القاهرة، بكل رجالها ونسائها وأطفالها..! احتشد الناس في الساحة، وعلى أسطح المنازل، وغير بعيد منهم، فرسان المماليك يحاصرون قصر السلطان..!

سواعد الرجال تهز الصمت، والنداءات تدوي: «الله ينصرك يا ناصر.. يا ناصر يا منصور.. الله يخون الخائن»... سأل الشيخ عما يحدث، وانهالت الاجابات عليه من عامة الشعب ومن طلاب العلم، وشباب العلماء.

ـ الأمراء المماليك يحاصرون السلطان في قصره.. الله ينصر الناصر.

ـ استضعفوا المسكين بعد أن ماتت أمه، وكلهم عبيد أبيه!

ـ ضيقوا على السلطان في المال، وتحملهم.. سلبوه سلطته وصبر، وهم الآن يريدون قتله أو بالقليل خلعه!

ـ السلطان يحمينا من ظلمهم، ولكنهم يريدون واحداً منهم لينهبونا ويظلمونا كما شاءوا.

ـ لعن الله الجلابين الذين جاءوا بهم، والنخاسين الذين باعوهم لوالد السلطان.

ـ تصور يا مولانا الشيخ أنهم يحرمون السلطان من الأكل الذي يحبه؟!

ـ ولما سافر الى الاسكندرية، وأراد أن يشتري هدية يدخل بها على أهله، ويفرح بها عياله، لم يجد مالاً، فبكى وشكا، فمنحه أحد الكرام ألفي دينار!!

ـ كل هذا من أفعال بيبرس الجاشنكير الذي يتولى أمور ديوان السلطان.. يحرم صاحب المال من ماله، لينفقه على ملذاته، وعلى

المنافقين من الشعراء، والمداهنين من العلماء!

ـ رحم الله الشيخ ابن دقيق العيد شيخ علماء الحديث في مصر. كان هؤلاء المماليك يرهبونه.. فلو أنه كان حياً اليوم لما جرؤ هذا الجاشنكير أن يصنع هذا بالسلطان.

ـ السلطان هو الذي صنع هذا بنفسه. ما الجاشنكير؟ انه الرجل الذي يذوق طعام السلطان قبل أن يقدم اليه؟.. أيجعله السلطان وزيره الاول؟.. كل ما عنده هو براعة النفاق، وحذق المصانعة، وطالما حذروا السلطان منه، ولكنه بدهائه وسعة حيلته، ركب السلطان!!

ـ والداهية الآخر سلار. أيجعله السلطان نائباً للسلطنة؟!.. العوض على الله في السلطان، استولى عليه المنافقون والمزيفون، وها هم يدبرون لقتله ليتولى أحدهم مكانه..

ـ لم يظهر بيبرس ولا سلار، ولكنهما ينتظران النتيجة، فاذا قتل السلطان، تولى أحدهما، ولدينا علماء مجهزون للبيعة!

ـ واذا نجا، وهزمنا نحن الجمع من فرسان المماليك، جاءاه يعتذران!

ـ هذا الأمير سلار حكايته غريبة. فهو يحمي اللصوص والفتاك والشطار والحرافيش والقوادين، والشذاذ ويكون منهم عصابة مسلحة يستقوي بها على السلطان.

ـ أنه يملك عدداً من البيوت والحانات، يؤجرها للفحشاء،

ويسميها بيوت كراء، وهي في الحقيقة دور بغاء.. وهو لا يكتفي بما يحصل عليه من أجرة، بل يأخذ النصف مما تربحه هذه البيوت!..

ـ لما علم السلطان الناصر بهذا خلعه، وسجنه وأغلق بيوت الفساد. فاحتشدت عصابة سلار من رجال وأنصاف رجال، وقوادين، ونساء.. حتى البغايا جئن في زينتهن، ووقفوا جميعاً أمام القصر السلطاني يسبون السلطان، ويفحشون، وتكاثروا بأسلحتهم على الحرس السلطاني، فأمر باطلاق سراح سلار، وأعاده الى منصبه، نائباً للسلطان، ونشطت تجارته من جديد..!

ـ كل بيوت الفساد والحانات في القاهرة تدخل في تجارة سلار، ويعيده السلطان نائباً له!..

ـ لقد اشترى هو وبيبرس ذمة مماليك السلطان جميعاً حتى الحرس السلطاني..!..

ـ شدوا يا رجال على هؤلاء المماليك، فلن يحكمنا القوادون واللصوص والفتاك والبغايا والشذاذ بعد اليوم.

ـ شدوا على فرسان المماليك، فسيقتلون السلطان!

ـ لن يقتلوا السلطان ونحن أحياء..!

***

واهتزت العصي وقضبان الحديد في أيدي الرجال، وانطلقت من المقاليع التي يحملها النساء والصغار، قطع صغيرة حادة مدببة من الحجارة، وتناثرت الصخور على فرسان المماليك..!

وشهـر الفـرسـان سيـوفهم، وحـاولـوا أن يقتحمـوا زحـام الشعب بخيلهم، ولكن قـطع الحجارة والصخـور المدببـة صدتهم، وشجت رؤوس بعضهم، فسقطوا من فوق صهوات الجياد.

وتحركت غابة كثيفة من قضبان الحديـد والعصي الغليظة، تـطوق فرسان المماليك..

وفجأة قدم أمير مملوكي رفيع المقام، فأصدر أمره الى الفرسان أن يغمدوا السيوف، وأن يتراجعوا عن الناس، وأن يصطفـوا بلا حـراك! وامتثل الفرسان لأمره.

ثم تقدم الى الناس وأمرهم أن يعودوا الى دورهم وأعمـالهم، وأن يفتحـوا حـوانيتهم، وأمـر طـلاب العلم أن يعـودوا الى معـاهـدهم، وحلقات شيوخهم..

فـلم يحفل به أحد من الناس، وارتفعت أصوات ساخـرة: «نحن أهل البلد، ولسنا مماليك مجلوبين نسمع لاوامرك».

فاصطنـع الهدوء، ونصحهم أن يفتحـوا الحوانيت، ويعـود النساء والصبية الى الدور، والا نهبها اللصوص..

تـزاحمت الأصـوات: «لا نعـرف لصـوصـاً غيـركم.. تخـونـون السلطان سيـدكم وابن سيـدكم؟!.. الله يخـون الخـائن.. نحن مـا نعود حتى يعوذ الفـرسان، ونعـرف أن السلطان في أمان: يـا ناصـر يا منصور.. الله يخون الخائن».

وأفسح الأمير الساحة من فرسان المماليك، فقد أدرك أنه اذا التقى

الجمعان، فستحدث مقتلة عظيمة في الفرسان والناس على السواء . .

ولم ينصرف الناس، حتى خرج اليهم السلطان، فهللوا وكبروا، وحياهم وشكرهم، ثم عاد الى قصره . .

* * *

دخل الشيخ على السلطان، فوجده مهموماً، مستغرقاً في التفكير.

واستقبله السلطان بابتسامة لم تفلح في تبديد الكآبة التي تغشى وجهه . . بدت فرحته بمقدم صديقه الشيخ، شاحبة على الوجه المنكسر الشارد . . !

وقبل أن يتكلم الشيخ، أخذه السلطان من يده وخرج به الى حديقة القصر . .

انه يريد أن يبثه همه، ولكن القصر مليء بعيون بيبرس الجاشنكير، وسلار . . انهم يسترقون السمع في كل مكان من القصر: خلف الستائر والاعمدة، حتى الجواري لا أمان لهن! . .

لم يعد بعد يستطيع أن يقول ما يريد، حتى في مخدعه . . !

أنه لكي ينجو بنفسه، يجب أن يصانع أعداءه، ثم يتخلى عن الملك في صمت . . فهو اما أن ينزل عن عرشه ثمناً لحياته، أو يفقد حياته . . وانه ليختار الحياة . .

سينتظر حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً . . !

ونصحه ابن تيمية بالصبر والمصابرة، وسينصره الله كما نصره في مواطن صعبة من قبل . . فمن آيات رضا الله عنه، أن الرعية كلها تذود عنه، وفيها طلاب العلم والعلماء . .

فشكا السلطان من العلماء . . ما عاد فيهم رجال مثل ابن دقيق العيد رحمه الله!

وكثير منهم يتهمون السلطان بحماية الكفرة وأهل الضلال، لانه يحمي ابن تيمية، ولا يجيبهم في الأمر بقتله! . ذلك بأنه في صفات الله والأسماء الحسنى، يخالف رأيهم، وبأنه حمل على الأحمدية وهم من خيرة الصوفية، وبأنه هاجم بعض آراء محيي الدين بن عربي!! وزادوا على هذا اتهاماً بأنه يحرض العامة في دمشق على أولي الأمر، ويثير الفتنة . . . وهذا كله حده القتل . . .

واذن فلم يتغير قلب السلطان ولكنه مغلوب على أمره . . !

وما برح الشيخ يواسي السلطان، ويذكره بآيات الصبر، وما ورد في فضله من أحاديث شريفة، حتى هدأ . .

استراح السلطان الى ظل شجرة باسقة ودعا الشيخ ليجلس الى جواره، وأمامهما حوض من المرمر، تنبثق منه نافورة يتطاير رذاذ مائها . .

وهبت نسمات ندية، معطرة بأرج حديقة القصر، فخففت عنهما وطأة الحر في ذلك اليوم اللافح من رمضان. وشاعت في أعماق

الشيخ سكينة مطمئنة، وأطرق قليلاً، ثم هتف: «وبشر الصابرين».

وأقبل الأمير سلار نائب السلطان، والأمير بيبرس الجاشنكير على فرسيهما..

فوجيء السلطان بهما أمامه..

قال السلطان: «كيف عرفتما بمكاني؟».

قال بيبرس: «نحن لا نخطيء مكانك أبداً. حيثما كنت نلحق بك».

وعجب الشيخ ابن تيمية من أمرهما.. انهما ليخاطبان السلطان راكبين.. الأدب أن يترجلا في حضرة السلطان..!

قال الأمير سلار: «جئنا معتذرين عن سوء أدب الفرسان الذين حاصروا قصرك، وسننزل بهم أشد العقاب».

وسكت السلطان.. ثم قال: «هلا رحبتما بالشيخ تقي الدين بن تيمية؟»

وترجل الأمير سلار، وأقبل على الشيخ: «مرحباً بك في مصر يا شيخ تقي الدين». أما الأمير بيبرس الجاشنكير، فقد ظل على فرسه، يسأل السلطان: «كيف تضيف رجلاً يحرض علينا الرعية، ويطعن في الصوفية، ويتكلم في صفات الله بما ينكره علماء مصر؟! أتريد أن ترهب العلماء الذين سيمتحنونه.. انه لا يستحق منك الضيافة، ولا حتى السلام».

فقال الشيخ في تؤدة: «السلام على من اتبع الهدى».

قال السلطان: «ليته يقبل ضيافتي!».

فرد بيبرس: «انه لا يقبل ضيافتنا ولا عطاءنا، لأنه يرى في هذه الأموال شبهة غصب يتدنس بها».

قال الشيخ: «أنعم الله علي براتبي من التدريس، وهو يكفيني، ولا حاجة لي في دنياكم».

فقال بيبرس محتداً: «تحارب الصوفية وتتكلم بكلامهم؟!.. عجباً لك».

قال الشيخ: «ما حاجتي الى دنياكم» ورد في الأثر عن أمير المؤمنين عمر وأمير المؤمنين علي، رضي الله عنهما، قبل ظهور الصوفية بقرون!

ونظر الشيخ الى الأمير بيبرس متعجباً.. ما هكذا عرفه من قبل!

كان في حرب التتار فارساً شديد البأس، وبعد النصر التقى به في مجلس السلطان، فوجده شديد الحرص على أن يظفر منه بكلمة رضا!.. رأى اكبار السلطان للشيخ، فحرص على استرضاء الشيخ، وكسب مودته!!.. أما اليوم والسلطان كسير، فهو يتعالى ويتكبر!! ما نهاية هذا الكبر..؟!

قال سلار: «سنعقد لك مجلساً من علماء القاهرة ليمتحن عقيدتك يا شيخ الاسلام».

فاخذ بيبرس: «من جعله شيخ الاسلام؟! علماؤنا يتهمونه بالكفر، وأرفقهم به يتهمه بالضلال».

قال سلار: «لا حكم قبل الامتحان. . لكن ابتعد عن السلطان يا شيخ تقي الدين، فقد ساء فيه العلماء!»

ورد الشيخ: «الله يهدي من يشاء».

قال سلار: «تفضل أنت الآن مصحوباً بالسلامة».

وما أن ترك الشيخ المكان، حتى امتطى الأمير سلار صهوة جواده من جديد.

وارتفعت أصوات الأميرين وهما على فرسيهما، يعنفان السلطان بلغة لم يفهمها الشيخ. . كانا يتحدثان بالتركية. .

ومضى الشيخ، فزار قبر الامام الشافعي، وقرأ الفاتحة. وكان في الطريق الى القاهرة قد استراح في غزة، وحاضر أهلها في المسجد عن مناقب الامام الشافعي، الذي ولد وشب في مدينتهم. . .

وروع الشيخ من الزحام على قبر الشافعي. ! الناس يتمسحون بالضريح ويقدمون اليه شكاوى مكتوبة، ويسألون الامام في قبره حسن الشفاعة.

وخرج الى قبر ابن دقيق العيد، فزاره وقرأ الفاتحة، وسأل الله له الرحمة. .

ثم عاد الى الخان الذي سيقيم فيه. . وفي الطريق، وجد مواكب من رجال في ملابس عجيبة تتدلى شعورهم على أكتافهم، يدقون الدفوف، وترتفع أصواتهم بالغناء، وهم يتطرحون على ايقاع الصناجات!! وعلى الجانبين زحام نساء، ورجال!!

أقام الشيخ أياماً في الخان، لا يزوره أحد، ولا يرى من حوله غير البصاصين والجواسيس! .

فلما عرف بعض الصالحين بوجوده دعوه الى دورهم.

كانت جلسات الشيخ في دور العلماء، حافلة بالمناظرة حول آرائه. . أقبلوا عليه مرحبين به. . فنصحهم شاكراً ألا يزوره حذر الجواسيس، فلم يبالوا، ودعوه الى مآدب الافطار والسحور. ودعاه بعضهم الى القاء دروس في المساجد فلما حاضر الناس أعجبوا به، وبدأ اسمه يتردد بالاكبار بين العامة. .

وأبدى لهم عجبه لما يراه من احتفال أهل القاهرة بأمرين: بشهر رمضان، وأضرحة الصالحين!!

كل البيوت تعلق المصابيح على أبوابها، والحوانيت تفتح من بعد صلاة العشاء الى السحور، مزدانة بالرايات والكور الملونة تسطع عليها الأضواء. . والصبية في الشوارع بفوانيسهم الصغيرة المزركشة يتغنون برمضان. . وأكداس من الحلوى والمكسرات، تغمر الأرصفة أمام الحوانيت. . وفي المساجد الكبرى وأمام بيوت الأثرياء، تفرش الأسمطة بأفخر ألوان الطعام، يأكل منها من يشاء. .

وفي صلاة العصر، يعبق البخور في المساجد الكبرى التي بها أضرحة للأولياء، ويتزاحم الناس بعد الصلاة على الأضرحة يقبلون الأرض، ويتمسحون بها، ويتوسلون بسكان القبور. . !

وسأله أحد العلماء: «عساك تنكر هذا كله وتراه من البدع والضلالات!»

قال الشيخ: «ما قرأنا عن هذا في عهد الرسول أو القرون الثلاثة الأولى التي انتهت بظهور الامام أحمد».

قال علم من الحاضرين: «ما كل ما استحدث بعد عهد الرسالة والصحابة والتابعين واوئمة العظام، يعتبر بدعة!»

وقال عالم ثالث: «البدعة هي ما استحدث مخالفاً لأصل في الشرع».

ورد الشيخ تقي الدين: «هذا هو القول. أما احتفالكم يا أهل مصر بشهر رمضان، فهو أمر مستحدث ولكنه مستحب. فهو فرجة للناس، واظهار للفرحة بالشهر المعظم، وهذا من شعائر تعظيمه، وهو تيسير على الفقراء باطعامهم من خير ما يأكله الأغنياء.. وتقوية لأواصر المودة باجتماع الناس على الطعام. أما ظهور الصبية في الشوارع بالفوانيس المزركشة فأمر يبهج القلوب، ويعود الصبية على الفرحة بشهر الصيام، وتعظيمه.. وان كان تعظيم الشهر المبارك يتأتى من قراءة القرآن، والتزام أصول الصيام، وتفهم حكمته».

قال أحد العلماء: «ألم تشاهد زحام المساجد بالمصلين، وعكوفهم على قراءة القرآن بعد الصلاة، واهتمامهم بالدروس التي يلقيها العلماء عن الصيام وشروطه وحكمته وآدابه؟!.. ألا ترى هذا تعظيماً للشهر المبارك بعد عهد الرسالة والقرون الثلاثة الأولى؟!».

رد الشيخ: «ليست كل المساجد.. فقد عانيت هذا بنفسي في المساجد التي بها أضرحة. وشاهدت فيها من البدع ما أعجب من سكوتهم عليه!! ان هؤلاء المنتسبين الى التصوف يرفعون عقائرهم

في المساجد بالغناء، ويطرحون أجسادهم ويرقصون باسم الذكر. . وما هذا هو الذكر الذي أراده الله ورسوله. . ولو كان هذا من الشرع لسنة الرسول ﷺ ولجرى عليه صحابته والتابعون! ولكنه البدعة!! البدعة التي يجب انكارها، وتغييرها».

فقال له أحد العلماء: «هون عليك يا شيخ تقي الدين، وكف يدك عن صوفية مصر وما يصنعون، والا أدخلت نفسك مداخل لا تعرف عقباها».

رد الشيخ: «الحق أن يقال. أسنة ما يفعلونه أم بدعة. . ؟!».

قال العالم: «ما هو بالسنة ولا البدعة. ولكن لهم أحوالاً، وهم يذكرون الله على طريقتهم، فلا ضير في هذا».

تدخل شيخ آخر: «لنا معك حديث طويل عن الصوفية وأفعالهم، فلسنا نقر كثيراً مما يفعلون، ولكننا نعترف لبعض شيوخهم بالفضل».

قال الشيخ: «وأنا أيضاً أعترف بهذا الفضل لبعض شيوخهم لا لهم كلهم. كان الجنيد يعلم مريديه ان المدخل الحق للتصوف هو العلم الكامل بالكتاب والسنة. . ولكنهم ليسوا جميعاً كالشيخ الصالح الجنيد، فمنهم من غالى في الاشارة والابهام، حتى حسبت عامة الصوفية أن التكاليف الشرعية تسقط عنهم، وحسبهم الولاء للقطب، في حياته ومماته!. . ومن هؤلاء من يتحدث عن الحلول ووحدة الوجود، وهي مذاهب وثنية. . وما ظنكم بابن عربي المغربي الذي عاش في مصر، وتلميذه المصري الشاعر المتصوف أبن الفارض؟! أهما على السنة؟! أنا لا أسوي بين شيوخ الصوفية، فليس من نادى

بالحلول ووحدة الوجود كهذين الرجلين، مثل من جعلوا اتقان الكتاب والسنة مدخلاً للتصوف، وعرفوا التصوف زهداً ينزه النفس عن الطمع والصغار ومداهنة الحكام، فجعلهم تصوفهم مجاهدين أشداء في سبيل الله، مثل أبي الحسن الشاذلي، والسيد أحمد البدوي، والجيلاني وأبي العابس المرسي، وغيرهم وغيرهم. . وان كان من أتباع هؤلاء من سلك طريقاً آخر، فاستغاثوهم في أضرحتهم! .»

قال أحد العلماء: «فلتدع هذا الى غيره من شئونك يا شيخ تقي الدين فأنت مقبل على امتحان عسير، وقد علمت أن الأمير بيبرس الجاشنكير، أعد لك قاضي المالكية زين الدين بن مخلوف، وهو أقسى القضاة، ثم نصر الدين المنبجي، وهو متصوف يعتقد الأمير بيبرس في كراماته. . وكلا الرجلين فظ غليظ القلب لا يقبل خلافاً، ولا يحكم بما دون الكفر على مخالفيه فدع حديث الصوفية الآن، أصلح الله شأنك».

قال الشيخ: «لن أكتم قولة الحق مهما ألق في سبيلها. . فكلمة الحق أمام سلطان جائر جهاد في سبيل الله، بل هي أفضل الجهاد كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام».

قال أحد الشيوخ: «معاذ الله يا شيخ ما كان أحد منا ليدعوك الى كتمان الشهادة بالحق. ونحن ننكر على المنتسبين الى الصوفية كثيراً مما تنكره. ولكننا نراك أمام شرك تستدرج اليه، فلا تقع فيه! وننصح لك بحسن الحيلة أمام المكر السيء، وأنت فطن. وقد قال الله تعالى: **﴿ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة﴾**.

وقبـل أن يرد الشيـخ أضاف أحـد العلمـاء: «وأعلم يـا شيـخ تقي الدين حماك الله، أن الأمير بيبرس الجاشنكير، كان قد رسم بأن تبقى وحيداً محاصراً في الوحدة، حتى يضنيك السأم، فتضعف، فلما علم أنـك تـروح وتجيء، وتغشى السـاجـد والمجـالس، ولمـا نقـل لـه البصاصون والجـواسيس، انك تكسب تقـدير العـامة يـوماً بعـد يوم، خشي أن يكثر أنصارك، فيصعب ضربك. .»

تدخل عالم آخر: «وستخسـر أنت حب العامـة، وينقلبون عليـك وهم قوة، اذا جاهرت بمهاجمة الصوفية وما يفعلون. . فـأنت لا تعرف سلطانهم على العامة فضلاً عن الأمراء».

رد الشيخ: «أسكت والعامة يتشفعون بسكان القبور، ويتمسحـون بـالأضرحـة، ويصلون عليها، ويـدعون عنـدها؟!! لـو كـان هـذا من الشرع لأمرنا به الرسول ﷺ، وقـد أمر بكـل معروف، ونهى عن كـل منكر، وما ترك شيئاً يقرب الى الجنة الا وقد حدث أمته به، ولا شيئـاً يبعـد عن النار الا وقـد حذر أمتـه منه. فكيف بنهيـه ولعنه عن اتخـاذ القبور مساجـد؟ نهى عن الصلاة لله مستقبـلاً لها، وان كـان المصلي لا يعبد الموتى ولا يـدعوهم، كمـا نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس ووقت الغــروب، لأنهـا وقت صـــلاة المشـركين للشمس وان كـــان المصلي لا يسجـــد الا لله، ســـداً للذريعـــة. . فكيـف اذا تـحقـقت المفسـدة بأن كـان العبد يـدعو الميت ويـدعو بـه؟! ان أصـل عبـادة الأوثان جاء من تعظيم القبور، كما قال تعالى في سورة نوح: ﴿**وقالوا لا تذرن آلهتكم، ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً**﴾. قـال

السلف كابن عباس وغيره كان هؤلاء قوماً صالحين في قوم نوح، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم، ثم عبدوهم.

وأما ما حكى عنه بعض المشايخ من قوله اذا نزل بك حادث فاستوحني، فيكشف ما بك من الشدة حياً كنت أو ميتاً، فهذا الكلام ونحوه اما أن يكون كذباً من الناقل أو خطأ من القائل..

ومن المعلوم ان الله لم يرغب بمثل هذا، ولا رسله أمروا بذلك. بل قال الله تعالى: ﴿فاذا فرغت فانصب، والى ربك فارغب﴾ ولم يقل أرغب الى الأنبياء والملائكة، فكيف بمن هم دونهم، وقال تعالى: **﴿أدعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً. أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ان عذاب ربك كان محذوراً﴾**.

قال طائفة من السلف كان أقوام يدعون العزير والمسيح والملائكة، فأنزل الله هذه الآية.

وهذا رسول الله ﷺ لم يقل لأحد من أصحابه اذا نزل بك حادث فاستوحني بل قال لابن عمه عبد الله بن عباس وهو يوصيه: «احفظ الله يحفظك، أحفظ الله تجده أمامك. تعرف الى الله في الرخاء يعرفك في الشدة. اذا سألت فاسأل الله واذا استعنت فاستعن بالله».

وأما قول القائل ان من قرأ آية الكرسي واستقبل جهة الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه، وسلم عليه، وخطا سبع خطوات، يخطو مع كل تسليمة خطوة الى قبره. فهذا شرك برب العالمين!

ولا ريب أن الشيخ عبد القادر الجيلاني لم يقل هذا، ولا أمر به، ومن نقل مثل ذلك عنه فقد كذب عليه! . .

وقد ثبت في الصحيح عن النبي عليه الصلاة والسلام: (لا تجلسوا على القبور، ولا تصلوا اليها).

وما يفعله بعض الناس من الصلاة والدعاء عندما يقال انه قبر نبي أو قبر أحد من الصحابة كما يحدث في الموضع الذي يقال انه قبر هود بدمشق، أو أن تحته رأس يحيى بن زكريا ونحو ذلك، فهو مخطىء مبتدع مخالف للسنة. فان الصلاة والدعاء بهذه الأمكنة ليس له مزية عند واحد من سلف الأمة وأئمتها، ولا كانوا يفعلون ذلك، بل كانوا ينهون عن مثل ذلك، كما نهاهم النبي عن مثل ذلك ودواعيه. . .

فلا يقال عند قبر أحد من هؤلاء: (اشفني أو أغنني أو ارفع الكرب عني). فهذا كله من باب الشرك. . انما الدعاء لله وحده».

قال أحد الحاضرين: «متى يأتي امتحانك وتخرج منه بسلام يا شيخ تقي الدين؟ فأنا أخشى عليك بطش ابن المنبجي، وهو من الذين يتمسحون بالأضرحة، ويدعون سكان القبور بدلاً من أن يدعو الله تعالى».

ودخل أحد العلماء فقال انه علم أن الشيخ سيمتحن وشيكاً. فقد اتفق الأمير سلار والأمير بيبرس الجاشنكير على مجلس الامتحان. وكان الامير سلار قد أراد استبعاد الشيخ ابن المنبجي والشيخ ابن مخلوف، لسوء رأيه فيهما ولكن الامير بيبرس صمم عليهما، وأوشك

الأميران أن يختلفا، وقد اتفقا من قبل على ألا يختلفا على شيء مهما يكن خطره، ليستطيعا الاستمرار في الاستئثار بالسلطة دون السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وليستطيعا عزله آخر الأمر.

واتفق الأميران على ابعاد ابن المنبجي، وعلى أن يكون المجلس من قضاة يرأسهم ابن مخلوف.

* * *

عقد المجلس في القلعة لامتحان الشيخ تقي الدين بن تيمية في عقيدته.

بدأ زين الدين بن مخلوف مجلس الامتحان بسؤال لابن تيمية: «أنت متهم بأنك تقول ان الله يجلس فوق العرش حقيقة، وأنه يتكلم بحرف وصوت. أجب عن ذلك يا فقيه».

بدأ الشيخ اجابته بحمد الله والثناء عليه والصلاة والسلام على سيد المرسلين.

فلم يتركه ابن مخلوف يكمل، واعترضه في حدة: «أجب ولا تخطب».

فاتجه ابن تيمية الى القضاة أعضاء المجلس يسألهم: «من الحاكم في اليوم» قالوا له: «القاضي المالكي الشيخ زين الدين بن مخلوف».

فسكت ابن تيمية وهو يتأمل هذا القاضي المالكي، الذي اشتهر بالقسوة والغلظة، وبالتعصب ضد من يخالفه الرأي . .

وتذكر ابن تيمية قصة عالم فاضل من أكابر علماء المالكية في مصر، أوقعه سوء حظه أمام ابن مخلوف، وكانا مختلفين في الرأي، فاتهمه ابن مخلوف بالكفر فاستشفع الرجل بابن دقيق العيد، قاضي الشافعية وشيخ علماء الحديث في عصره. قال الرجل «ما تعرف عني؟» قال: «أعرف عنك الفضيلة، ولكن حكمك الى القاضي زين الدين بن مخلوف!».

ولم تنفع شفاعة الشيخ الذي لم يردها سلطان ولا أمير قط، وحكم زين الدين بن مخلوف على العالم الفاضل بالاعدام..!!

لن تسلم نفسك يا تقي الدين لهذا القاضي القاسي المتعصب، الذي لا يقبل من الرأي الا قول الامام مالك، وليته يحسن فهمه...!

ما أبعد ما بين المتزمتين المقلدين، وبينك يا تقي الدين!!

ولما طال صمت الشيخ تقي الدين بن تيمية، ألح عليه ابن مخلوف أن يجيبه. فعاد ابن تيمية يسأل: «الى من الحكم في اليوم». قالوا: «للقاضي زين الدين بن مخلوف».

قال الشيخ للقاضي: «كيف تحكم في وأنت خصمي: أنا لن أجيبك».

وتوقع الجميع أن يتنحى القاضي بعد أن رده ابن تيمية، ولكن ابن مخلوف غضب غضباً، وباغت الجميع بالحكم على الشيخ بالسجن.. وغادر المجلس، دون أن ينطق أحد بكلمة.. ودون أن يحدد مدة السجن!!

ذهب قاضي الحنابلة ومعه بعض العلماء الى الأمير سلار، وكانوا يعرفون أكباره للشيخ ابن تيمية، فشكوا له ما كان من أمر القاضي ابن مخلوف.

وتكلم سلار الأمير مع بيبرس، فصمم على تنفيذ الحكم ولكنه استجابة لشفاعة الأمير سلار، سمح لأخوي الشيخ اللذين جاءا من دمشق بأن يقوما على خدمته في السجن.

ولم يكد الشيخ يدخل السجن، حتى عم الأذى جميع الحنابلة.

* * *

مرت شهور على الشيخ في سجنه، فأرسل خطاباً الى أحد أصدقائه في دمشق، يصف ما جرى له في مصر.

وما أن علم نائب السلطان في دمشق بأمر الخطاب، حتى طلبه، وقرأه على الناس بعد الصلاة في الجامع الأموي..

وروع الناس مما جرى للشيخ، وطالبوا نائب السلطان أن يسعى في اخراجه واعادته الى دمشق. فوعدهم نائب السلطان بأن يسعى جهده لاستخلاص الشيخ، وقال: «كنت أتوقع ما جرى له، وقد نصحته ألا يذهب الى القاهرة، ولكنه صمم على الذهاب كما تعلمون. واني لأشهد اني ما رأيت أحداً في مثل علمه وفضله وزهده. ما رأيت مثله، ولا أشجع منه. وقد كنا نلح عليه أن يقبل شيئاً من العطايا السلطانية، ولكنه ما تدنس بشيء من ذلك».

وتألم العلماء الحاضرون ممن الفوا قبول العطايا والهدايا والكسى

السلطانية، وطلبها، وأوغلوا في التدنيس بها. . ! وأرسلوا شكوى الى السلطان لأن نائبه يسمي قبول العطايا السلطانية تدنساً!!.

وبعث نائب السلطان من دمشق، رسالة الى الأمير سلار، نائب السلطان في القاهرة، يذكره بفضل الشيخ، وحسن بلائه في جهاد التتار، ويطالبه بأن يعمل على اطلاق سراحه.

ولكن ابن مخلوف والأمير بيبرس الجاشنكير رفضا شفاعة الأمير سلار.

* * *

وقضى الشيخ عاماً في السجن. . وكان سجنه هو الجب، وهو شر أنواع السجون. .

فلما كانت ليلة عيد الفطر، ألح بعض العلماء على الأمير سلار في اطلاق الشيخ، ابتهاجاً بالعيد!

وكانت السلطة قد توزعت بين بيبرس وسلار، وأتفقا على الا يتدخل أحدهما في شئون الآخر، وعلى أن يبقى الناصر على عرشه، سلطاناً بلا سلطة.

وأصبح الأمير سلار حاكماً مطلق اليد في القاهرة.

فلم يستشر شريكه بيبرس، بل استدعى قضاة الشافعية والمالكية والحنفية، وذكرهم بفضل الشيخ، وحسن بلائه في الحرب ضد التتار، وأعلنهم أنه قرر اطلاق الشيخ من السجن في ليلته، ليشهد من غده الاحتفال بالعيد!

واذ رأوا اصرار الأمير، لم يغاضبوه. ولكنهم في الوقت نفسه لم تطب نفوسهم باخراج الشيخ من سجنه، فسكتوا. . .

فقال الأمير للقاضي الشافعي: «أنت مدين لشيخ الاسلام بن تيمية بمنصبك، فهو الذي أشار على السلطان بك، بعد وفاة ابن دقيق العيد».

وخجل القاضي الشافعي، فزعم انه يوافق على اخراج الشيخ.

واشترط القضاة الثلاثة، أن يتعهد الشيخ قبل خروجه، بالرجوع عما أعلنه في دمشق، عن صفات الله، وعن كيفية أستوائه تعالى على العرش، وكيفية نزوله الى السماء الدنيا الى آخر ما أعلن هناك من رأي وعقيدة!

فرفض الشيخ ما اقترحوه، وفضل البقاء في السجن على الاذعان لمفتريات خصومه!

عم يتنازل؟

انهم ليلصقون به ما لم يقله، وما لا يعتقده!

يلزمونه الاقرار بمفترياتهم عليه، والعدول عنها. . !!

وترددت الرسل بينه وبين الأمير سلار ست مرات في تلك الليلة، والقضاة ينتظرون اذعانه.

وجاء آخر رسول يحمل قول الشيخ ان هؤلاء القضاة لو كانوا على السنة، ولو كانوا يفهمون آراء أئمتهم الشافعي ومالك وأبي حنيفة رضي الله عنهم، لعرفوا أن آراء هؤلاء الأئمة العظام في صفات الله،

ومعهم هو اجماع الصحابة والتابعين من قبل.

ولكن هؤلاء القضاة لا يريدون الحقيقة، بل يريدون اذلاله، والازراء عليه، ولن يجيبهم الى ما يريدون!..

وانفض القضاة الى بيوتهم - غير مأجورين كما قال ابن كثير - ليحتفلوا بليلة عيد الفطر مع أهلها وأبنائهم..

أما ابن تيمية فاستقبل العيد في السجن، راضياً عن نفسه!.

غير أن الأمير سلار لم يرضى، فعقد مجلساً من القضاة الثلاثة بعد العيد، واستدعى أخوي الشيخ ليناظراهم بدلاً منه. وكانا يعملان بتدريس الفقه الحنبلي في دمشق.

ويصف ابن كثير هذا المجلس قائلاً: «أخذ القاضي المالكي ابن مخلوف يناقش أحدهما وهو شرف الدين، وظهر شرف الدين بالحجة على القاضي المالكي بالنقل والدليل والمعرفة، وخطأه في مواضع ادعى فيها دعاوى باطلة، وكان الكلام في مسألة العرش، ومسألة الكلام، ومسألة النزول».

وما ناظر شرف الدين الا بآراء أخيه وعقيدته، التي ذكرها في دمشق آنفاً، وهي الآراء التي اجتمع عليها الصحابة والتابعون والأئمة العظام من بعدهم.

وأعيد أخواه الى السجن معه..

ومرت ستة شهور أخرى على الشيخ في سجنه، وأهل الشام ينتظرون عودته في كل نهار وليل..

وجاء أمير الشام، حسام بن مهنا بن عيسى صديق الشيخ وتلميذه على رأس كوكبة من أشجع فرسان العرب ومشايخهم.

وزار الأمير سلار، فوجد معه الأمير بيبرس، فعيرهما بجحودهما فضل ابن تيمية.

فلولا ما بذله الشيخ من جهد مع السلطان التتار قازان، لاحتل التتار دمشق ثم القاهرة، ولكان الأميران وأولادهما وزوجاتهما عبيداً وجواري عند التتار!

ولولا استنفاره الناس وتجميعه العرب في الحرب الأخيرة ضد التتار فانضموا الى عساكر السلطان، وتركوا الحلف مع الباطنية، لولا هذا لما انتصرت جيوش السلطان، ولاستعبدهم التتار!

وذكر الأميرين وسائر الأمراء بفضل الشيخ عليهم وتقواه، ثم قال لهم: ان كنتم لا تعرفون فضله في مصر فهذا من جهلكم وجهل علمائكم، فدعوه يعش طليقاً بين محبيه وعارفي فضله.. ثم أقسم ليحررن الشيخ بنفسه، ويعود به الليلة الى دمشق، وخصومه راغمون!

وخرج تاركاً الأميرين في ذهول!

كانا يحسبان لعرب الشام حساباً كبيراً، ويعرفان أن لهم بعرب مصر قربى ومودة.

وهم ان غضبوا، وأعلنوا العصيان، أيدهم عرب مصر فما يقوى عليهم بعد عسكر السلطان في مصر أو الشام...

ستكـون فتنة لا يعلم أحـد أي الـرؤس تسقط فيهـا. . ربمـا رأسـا الأميرين، قبل كل الرؤس!!

ذهب الأميـر حسام الى السجن، فـأخـرج ابن تيميـة منـه وأراد أن يرحل به من فوره الى دمشق، ولكن الأمير سلار سـأل الشيخ أن يقيم في مصر ليعظ الناس وينفعهم بعلمه. . .!

ورحب الشيخ بالاقامة في مصر شهراً واحداً، ورأى في ذلك واجباً دينياً تفرضه عليه مسئوليته عن أحياء السنة، والأمـر بالمعـروف والنهي عن المنكر، ومحاربة البدع الشائعة. .

* * *

وأقام أمير العرب ورجاله يومين في ضيافة الأمير سلار، طـاف بهم خلالها على منتـزهات القـاهرة، وركبـوا نيلها، وشـاهدوا خلجـانها، وأهرام الجيزة، ثم عادوا الى دمشق.

وما ان غادر أمير العرب ورجـاله مصـر، حتى قدم القضـاة الثلاثـة على الأمير سلار، فطالبوه بالتأكيد من حسن معتقد ابن تيمية، قبل أن يسمـح له بغشيـان المساجـد أو القاء الـدروس في معـاهـد التعليم. فدعاهم سلار الى مناظرة الشيخ أمامه. وضرب لهم موعداً.

وفي الموعد اعتذر القضاة الثلاثة بالمرض.

فـأرسل سـلار الى الصفوة من علمـاء القـاهـرة، ودعـا ابن تيميـة وجمعهم في القلعة، فأقر ابن تيمية أن عقيدته التي كتبهـا وأعلنها من قبل، هي ما أجمع عليه الصحابة والتابعون وتابعوهم والأئمة العظام:

ان القران معنى قائم بذاته. واستشهد الشيخ برأي الامام جعفر الصادق وهو من أئمة آل البيت، واجماع أهل السنة على أنه من أئمة الدين. سئل عن القرآن: (أخالق هو أم مخلوق؟). فقال رضي الله عنه: (ليس بخالق ولا مخلوق، ولكنه كلام الله).. وهذا مما اقتدى به الامام أحمد في المحنة، ثم استطرد الشيخ: ورأي الامام جعفر الصادق هو رأي السلف قاطبة من الصحابة، والتابعين لهم باحسان، وسائر أئمة المسلمين: أن القرآن كلام الله ليس بمخلوق، وهو صفة من صفات ذاته القديمة، وليس بحرف ولا صوت، وأن قوله تعالى: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ ليس على ظاهره، ولا يعلم كنه المراد به، بل لا يعلمه الا الله، والقول في النزول كالقول في الاستواء بكيفية لا يعلمها الا هو.

ووافق القضاة على قول «ابن تيمية». وأقروا بصحة عقيدته..

وعجب الناس: فيم كان الخلاف وسجن الشيخ اذن؟!

* * *

عاد الشيخ يلقي دروسه في المساجد: من مسجد الى مسجد.

وتزاحم الناس عليه يصغون اليه، ويستفتونه.

وأحس خصومه من العلماء والفقهاء أن الناس يؤثرونه عليهم، ويضعونه فوقهم، وحاكم القاهرة بعد، يكن له من الاحترام، أكثر مما يبديه لهم...

وأثار هذا كله ضيقهم به، فتربصوا بما يقوله ويفتي به ليكيدوا له، حسداً من عند أنفسهم.

أدرك الشيخ أن اقامته في القاهرة ستطول، فما زال لديه ما يقوله ويفعله . .

وخشى أن ينتقم الأمير سلار من الذين أودعوه السجن. وفكر في أن يكلمه فيهم، ولكنه كان يشعر باعراض عن الأمير، منذ سمع في ساحة القصر يوم الحصار، ما يقوله عنه طلاب العلم، وعامة الشعب!

أيملك بيوتاً يؤجرها للفساد والفحشاء حقاً؟! أهو يعتمد على أهل الفسق، والجنايات، والشذاذ، ليحموه؟!.

لا دليل على ذلك، ولكن أقوال الخلق ألسنة الصدق! . .

ورأى الشيخ أن يكتب الى صديقه نائب السلطان في دمشق، يستشفعه عند حاكم القاهرة الأمير سلار، في أولئك الذين أساءوا اليه. فكتب: «تعلمون رضي الله عنكم أني لا أحب أن يؤذى أحد من عموم المسلمين، فضلاً عن أصحابنا بشيء أصلاً، لا ظاهراً ولا باطناً. ولا عندي عتب على أحد منهم ولا لوم أصلاً. بل لهم عندي من الكرامة والاعظام والتبجيل أضعاف ما كان، كل بحسبه، ولا يخلو الرجل اما أن يكون مجتهداً، أو مخطئاً، أو مذنباً. فالأول مأجور مشكور، والثاني مع أجره على الاجتهاد معفو عنه، والثالث فالله يغفر لنا وله، ولسائر المؤمنين. . . لا أحب أن ينتصف من أحد بسبب كذبه علي، أو ظلمه أو عدوانه، فاني قد أحللت كل مسلم، وأنا أحب لكل المسلمين، وأريد لكل مؤمن من الخير ما أريده لنفسي، والذين كذبوا وظلموا هم في حل من جهتي».

وأحس بشوقه الى أمه يبرح به . . ! وان اشفاقه عليها في وحدتها،

وهو في غربته، ليعصر قلبه، ويدفع الدموع الى عينيه!.. وها هو ذا مضطر لأن يطيل غيابه!..

فكتب اليها: «الى الوالدة السعيدة أقر الله عينيها بنعمه، وأسبغ عليها جزيل كرمه، وجعلها من امائه وخدمه.

انا نحمد اليكم الله الذي لا اله الا هو، وهو للحمد أهل، وهو على كل شيء قدير، ونسأله أن يصلي على خاتم النبيين وأمام المتقين، محمد، عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً.

كتابي اليك عن نعم من الله عظيمة، ومنن كريمة، وآلاء جسيمة، نشكر الله عليها، ونسأله المزيد من فضله. ونعم الله كلما جاءت في نمو وازدياد، وأياديه جلت عن التعداد.

تعلمون أن مقامنا الساعة في هذه البلاد، انما هو لأمور ضرورية، متى أهملناها فسد علينا أمر الدين والدنيا، ولسنا والله مختارين للعبد عنكم، ولو حملتنا الطيور لسرنا اليكم، ولكن الغائب عذره معه، وأنتم لو أطلعتم على باطن الأمور، فانكم والله ما تختارون الساعة الا ذلك. ولم نعزم على المقام والاستيطان شهراً واحداً، بل كل يوم نستخير الله لنا ولكم، وادعو لنا بالخيرة، فنسأل الله العظيم أن يخير لنا وللمسلمين ما فيه الخيرة في خير وعافية. وقد فتح الله من أبواب الرحمة، والهداية والبركة ما لم يكن يخطر بالبال، ولا يدور في الخيال، ونحن في كل وقت مهمومون بالسفر مستخيرين الله سبحانه وتعالى. فلا يظن أننا نؤثر على قربكم شيء من أمور الدنيا قط. بل

لا نؤثر من أمور الدين ما يكون قربكم أرجح منه. ولكن ثم أمـور كبار نخاف الضرر الخاص والعالم من اهمالها، والشاهد يـرى ما لا يـرى الغائب.

والمطلوب كثرة الدعاء بالخير، فـان الله يعلم ولا نعلم، ويقدر ولا نقـدر، وهـو عـلام الغيـوب. وقـال النبي ﷺ: (من سعـادة ابن آدم استخـارتـه الله، ورضـاه بمـا قسم الله لـه. ومن شقـاوة ابن آدم تـرك استخارته الله، وسخـطه بما يقسم الله لـه). والتاجـر يكون مسـافراً، فيخاف ضياع ماله، فيحتاج الى أن يقيم حتى يستوفيه، وما نحن فيـه أسر يجل عن الوصف، ولا حول ولا قوة الا بالله.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاتـه، كثيراً، كثيـراً وعلى سائـر من في البيت من الكبـار والصغار، والأهـل والأصحاب واحـداً واحـداً. والحمـــد لله رب العـالمين، وصلى الله على سيــدنـا محمــد وآلـه وصحبه. وسلم تسليما».

***

ما هي تلك الأمور الكبار التي رآها ابن تيمية تجل عن الـوصف، فكتب الى أمه يستأذنها في الغياب لأنه يخاف الضـرر العام والخـاص من اهمالها؟! انه لم يؤثر على أمه شيئاً من أمور الدنيا قط، بل لا يؤثر من أمور الدين ما يكون القرب اليها أرجح منه، كما كتب لها..

انها لأمور ثلاثة، تضطره الى البقاء في القاهرة.

أولهـا: أنه وجـد علماء مصـر أشد من علمـاء الشام، في تعصبهم لمذاهبهم، وفي التمسك الحرفي بعقيدة الأشعري.

والأشعري يتبع في فهم النصوص مذهب أهل السنة، وبصفة خاصة مذهب الامام أحمد، ولكنه يجادل المخالفين بالأدلة العقلية، لا بالنصوص المنقولة!. والعقل في رأي الشيخ يجب أن يكون تابعاً للنقل.. فالنقل هو الذي يقيم البراهين، ثم يأتي العقل فيؤيدها أو يفسرها!

والأشعري صاحب العقيدة المعروفة باسمه، علم عاش في القرن الرابع الهجري، وكان من شيوخ المعتزلة الذين يؤمنون بسلطان العقل، ويحكمونه في نصوص الحديث، ويصرفون ظاهر بعض الآيات عن معناها الى معنى خفي لتتفق مع العقل في رأيهم، ويقولون ان القرآن مخلوق، وان الانسان مسئول عن عمله، والا لما جاز عليه الثواب والعقاب...

وكانت لهم صولة في عصر المأمون، فأنزلوا المحنة بالامام أحمد ابن حنبل حين خالفهم آراءهم وبصفة خاصة في خلق القرآن.

وأصبح الناس ذات يوم، فوجدوا الأشعري يخطبهم وعليه بردة جديدة، فقال لهم أنه يخلع مذهب المعتزلة، كما يخلع بردته تلك، ثم قال انه يدين «بالتمسك بالكتاب والسنة من غير تأويل، وبما روى الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، وبما كان عليه أحمد بن حنبل، نضر الله وجهه، ورفع درجته، وأجزل مثوبته. نحن لمن خالف قوله مجانبون، لأنه الامام الفاضل، والرئيس الكامل الذي أبان الله به الحق عند ظهور الضلال، وأوضح به المنهاج، وقمع به بدع المبدعين، وزيغ الزائغين، وشك الشاكين، فرحمة الله عليه من أمام

مقدم، وكبير مفهم، ورحمة الله على جميع أئمة المسلمين».

ثم شرح رأيه الجديد. قائلاً: « ان الله استوى على عرشه كما قال: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾، وان له وجهاً كما قال: ﴿ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام﴾ وأن له عيناً بلا كيف كما قال: ﴿تجري بأعيننا﴾. . . . ونقول ان القرآن كلام الله غير مخلوق، ونؤمن بقضاء الله وقدره، خيره وشره، وأن ما أصابنا لم يكن ليخطئنا، وما أخطأنا لم يكن ليصيبنا. . . ونرى ألا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ارتكبه. . . ونقول ان الله يخرج من النار قوماً بشفاعة محمد ﷺ. وان الايمان عمل يزيد وينقص. . . ونرى الدعاء لائمة المسلمين بالصلاح، والاقرار بامامتهم، وندين الخروج عليهم بالسيف، وترك القتال في الفتنة. . ونقول ان الصالحين يجوز أن يخصهم الله بآياته. . . ونرى مفارقة كل داعية لفتنة ومجانبة أهل الأهواء».

وقد اعتنق عقيدته كثيرون من أتباع المذاهب الأربعة، وقوي المذهب بمساندة الحكام له، حتى أصبح الخروج عليه، خروجاً على ولي الأمر، وكفرا بالدين. . . !

وما كان ابن تيمية ليخالف الأشعري، فقد أقر الشيخ بأنه على عقيدة الأشعري، عندما امتحنه علماء دمشق في عقيدته منذ سنوات، حين اتهمه خصومه بالضلال، وطرح العقيدة الأشعرية!

غير أن الشيخ يرى أن الأشعري الذي تربى في مدرسة المعتزلة، يتبع طريقتهم في الاستدلال وهي ليست منهج أهل السنة في الجدال! فهو يغلب العقل، ويؤؤل بعض النصوص لتتفق مع العقل. .

ورأى ابن تيمية أن التأويل عند السلف هو التفسير، وكل آية في القرآن ورد فيها لفظ التأويل، فهي تعني به التفسير.

ما كان هذا الخلاف حرياً بأن خصومه، ولكن روح العصر كانت لا تسمح به، فقد كان العلماء يقلدون المذاهب الأربعة في الفقه، ويقلدون الأشعري في العقائد، ولا يسمحون لأحد بالمخالفة أو بالتحرر من أسر التقليد، ويعتبرون هذا كفراً أو بالقليل ضلالاً!

هكذا وجد ابن تيمية نفسه في حاجة الى البقاء في القاهرة ليناظر علماءها، ويقنعهم بخطأ فهم الأشعري لمعنى كلمة التأويل.. فهو ليس «صرف اللفظ عن معناه الظاهري الى معنى آخر خفي.... وأنه لا يمكن أن يكون هناك ألفاظ في القرآن، تصرف عن معناها الظاهري، الى معنى خفي، وسكت عنها الرسول. ذلك أنه بين القرآن كله وعلمه للصحابة وهؤلاء علموه للتابعين وهكذا لأن الرسول ﷺ لا يجوز عليه أن يتكلم بالكلام الذي مفهومه ومدلوله باطل، ويسكت عن بيان المراد الحق، ولا يجوز أن يريد من الخلق أن يفهموا من كلامه ما لم يبينه لهم ويدلهم عليه!».

وإذن فلا يمكن أن يقع تناقض بين ما يستنبطه العقل السليم أي المعقول، وبين المنقول الصحيح الثابت.. قال: «المنقول الصريح لا يعارضه معقول صريح قط، وقد تأملت ذلك في عامة ما تنازع العلماء فيه، فوجدت ما خالف النصوص الصحيحة الصريحة شبهات فاسدة يعلم بالفعل بطلانها، بل يعلم بالعقل ثبوت نقيضها الموافق للشرع.

وهـذا تـأملتـه في مـسائل الأصول الكـبـار، كـمسائل التـوحيـد والصفـات، ومسـائـل القـدر والثبـوت والمعـاد، وغيـر ذلـك، ووجدت مـا يعلم بصريـح العقل لم يخـالفه سمـع (أي نقل) قط. بـل السمع الـذي يقال انـه يخالفـه أما حـديث موضـوع أودلالة ضعيفة».

دخل الشيخ في محاورات طويلة مع علماء مصـر وفقهائهـا، حول آراء الأشعـري في التـأويـل. وهـو في محـاوراتـه يكسب احتـرامهم ومودتهم، على الرغم من الخلاف!

دعـاه أحد العلمـاء الى مـأدبـة عشـاء، مـع علمـاء من المـذاهب المختلفة. وبعد العشاء قال له: «يا شيخ تقي الدين. انك لتدخل في أمور كبار، تعذب بها نفسك، وصحبك، وتشق بهـا على غيرك! فمـا خلافك مع الأشاعرة في تأويل آيات الصفات؟ ألا ترى انـه يوقـع بك تشبيه صفات الله تعالى بنعوت البشر؟ ان التمسك بـظاهر النص على النحـو الذي تـدعـو اليـه مـع بعض الحنـابلة، لا بـد أن يـوقعكم في التجسيم والتشبيه، لأن ظاهر معنى يد الله وعين الله انما هو الجـارحة التي للبشـر.. ولهذا وقـع بعض شيـوخكم السـابقين في خـطأ شـأن الحنـابلة شيناً لا يغسله مـاء البحار، كمـا قال ابن الجـوزي وهـو من أفاضل شيوخ الحنابلة وعلمائهم. انكم بأخـذكم بالـظاهر تنـزلون الله سبحـانـه في مكـان الحسيـات. وأنتم أعـداء هؤلاء المجسمـين المشبهين. فلو انكم قـرأتم الآيـات والأحـاديث وسكتم، لمـا أنكـر عليكم أحد، ولكن حملكم اياها على الظاهر قبيح.

قال ابن تيمية: «أصلحك الله. نحن لا نبتدع في مذهب الامام أحمد ما ليس منه. وأنا أنكر على بعض شيوخ الحنابلة السابقين تمسكهم الحرفي بالظاهر. ورأيي أن القول في الصفات كالقول في الذات. فان الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته، ولا في أفعاله. فاذا كانت له ذات لا تماثل الذوات حقيقة، فالذات متصلة بصفات حقيقية لا تماثل سائر الصفات!».

فقال أحد العلماء ضاحكاً: «فهذا هو التأويل الذي تنكره على الأشاعرة».

قال ابن تيمية: «بل هو التفسير لا التأويل».

قال أحدهم: «قل لنا رأيك في ظاهر النصوص، أمراد هو كما هو؟ أم غير مراد فيصرف الى المعنى الذي يتفق مع ذات الله تعالى وصفاته كما يقول الأشعري»؟

قال صاحب الدار: «احذر مكر هذا الفقيه الحنفي يا شيخ تقي الدين! فهو صاحب حيل كشيخه الامام أبي حنيفة رضي الله عنه».

وضحك الجميع وهم يهمهمون: «رضي الله عنه».

واستمر العالم صاحب الدار يقول لابن تيمية: «فأنت يا فقيه ان قلت بأن ظاهر هذه النصوص هو المراد، فهو التمثيل بصفات المخلوقين أو ما هو من خصائصهم. وهذا ليس معتقدك ولا معتقد امامك أحمد رضي الله عنه، وان قلت بعكس ذلك فهو التأويل الذي تنكره».

قال الشيخ ابن تيمية: «اتفق أهل السنة وأئمة المسلمين على أن ظاهر هذه الآيات هو المراد. ولكنه ليس كظاهر الآيات المتفق على معناها. فنحن لا نفهم من ظاهر آيات الصفات أن علم الله كعلمنا. ولا أن قدرته كقدرتنا. فقوله تعالى: ﴿يحبهم ويحبونه﴾ و﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾. وقوله تعالى: ﴿ثم أستوى على العرش﴾.

نحن نفهم هذا كله على ظاهره، ولكن هذا لا يقتضي أن يكون ظاهره استواء كاستواء المخلوق ولا حباً كحبه، ولكنها بمعان تليق بذاته الكريمة».

قال عالم شافعي: «فهذا صرف للفظ عن معناه الظاهر يا شيخ تقي الدين. فما خلافك مع الأشاعرة؟».

قال الشيخ: «بل هو فهم للظاهر واتباع للامام أحمد، والامام مالك وسائر الأئمة... لا بد من التمسك بالظاهر... سئل الامام أحمد أيام المحنة عن أحاديث النزول والرؤية ووضع القدم. قال: (نؤمن بها، ونصدق بها، ولا كيف ولا معنى). وسئل عن الاستواء فقال: (استوى على العرش كيف شاء بلا حد ولا صفة يبلغها واصف) وهذا تفويض وتنزيه، وليس فيه تخريج للفظ على الظاهر أو غير الظاهر. ومن قبل قال الامام مالك: (الاستواء معلوم والكيف مجهول والايمان به واجب والسؤال عنه بدعة).

قال العالم الذي بدأ الحوار: (ان قول الامام مالك ومن بعده الامام أحمد، ليس أخذاً بظاهر اللفظ. بل هو تفويض وتنزيه. على أن الامام أحمد سئل يوم المناظرة عن معنى الآية الكريمة: ﴿وجاء

ربك والملك صفاً صفاً﴾. فقال: (يجيء أمره وقدرته). أليس هذا صرفاً للفظ عن معناه الظاهر؟).

قال الشيخ: «انه التفسير بمجاز الحذف لا التأويل».

قال العالم: «التفسير بالمجاز نوع من التأويل يا شيخ تقي الدين».

قال الشيخ: «ان السلف ما كانوا يطلقون اسم الظاهر على التشبيه بخصائص المخلوقين. فهذا غير مراد من آيات الصفات والأسماء الحسنى. فهم لا يرضون أن يكون المراد بالقرآن كفراً وباطلاً».

قال صاحب الدار: «ما كان السلف الصالح ومنهم الامام أحمد يفهمون الظاهر كما فهمه بعض متأخري الحنابلة وأنت نفسك تصرف بعض النصوص عن معناها اذا أوقعتك فيما لا يقبله عقلك! وهذا هو التأويل، وان كنت تتمسك بظاهر بعض النصوص فتدخل في أمور كبار تشقى أنت بها وتثير من يريدون أن يشنعوا عليك، وتضني بها محبيك. أنا أسن منك بعشرين عاماً يا بني، وما أرى في معتقدك ما يخالف الأشعري خلافاً يقتضي الخصومة. وقد أقررت بنفسك أنك على عقيدة الأشعري في جملتها، فما بقي عندك من وجوه خلاف لا يستحق عناء الخصومة. فهلا كففت يا شيخ تقي الدين عن الانشغال بهذا الأمر، فهو لا يمثل مصلحة دينية يجب تحقيقها أو مضرة يجب دفعها؟ ان لدينا من ألوان البدع والمنكرات ما يلزمنا بالعمل معاً.. وحسبك ما يفعله الصوفية هنا في مصر مما عاينت وعانيت... لقد جمعتكم الليلة لنصفي الخلاف فيما بيننا، ولنكون معاً صفاً واحداً في محاربة البدع والمنكرات».

قـال الشيخ : «لكم عـاينت منهم وعانيت! وقـد أدهشني سكوتكم نعنهم!».

قـال أحـد العلمـاء: «لقـد استـولـوا على عقـل السلطان وعقـول الأمـراء، وأرهبوهم بكـرامـاتهم واستيـلائهم على عقـول العـامـة.. ونخشى اذا ناهضناهم أن تكون فتنة».

وقال آخر: «اننـا قد نتهم بـالغضب لأنفسنا، وبـاتباع الهـوى!.. فهم يسمون أنفسهم أهل الحقيقة. ويزعمـون أنهم وحدهم اختصـوا بمعرفتها، أما نحن فيسموننا أهل الشريعة، لا نعرف الا ظاهر الدين. وهم يغالـون فيقولون ان الشريعة تفـرق بين العاصي والمـطيع، لكن الحقيقة لا تفرق بينهمـا أمام الخـالق، فهو خـالق كل شيء: اللذات والشهـوات، والمأمـورات والمنهيات. من أجـل ذلك تـرى أتبـاعهم يقترفون من المنكرات ما تقشعر منه الأبدان».

أضـاف آخر: «ان أحـدهم ليتباهى بهـا فيرسـل الى السلطان انـه يقترف كذا وكذا، فلا يقام عليه الحد اشفاقاً من كراماته!..».

قال الشيخ: «انكم مـا سكتم عن هذه المنكـرات حذر الفتنـة، أو بعـداً عن شبهـة الغضب لأنفسكم!.. ولكن الاشتغـال بـالخـلاف المذهبي، صرف همنا الى هذا الخـلاف، وعكفنا على تقليـد الأئمة الكبـار وألفنا الجمـود عنـد آرائهم.. فـاذا تكلفنـا مشقـة البحث عن الـرأي الحق في مذهب غيـر مذهب امـامنا، تحـرجنا من اتبـاعـه. لماذا؟.. لنتجمد على مذهبنا!.

ومنا من يغض من قيمة الأئمـة الآخرين. ولكن هؤلاء العلمـاء هم

ورثة الأنبياء، كما جاء في الحديث الشريف، وقد جعلهم الله بمنزلة النجوم التي يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، فهم خلفاء رسول الله ﷺ في أمته، والمحيون لما مات من سنته، بهم قام الكتاب، وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب، وبه نطقوا. فلنعلم انه ليس احد من الأئمة يتعمد مخالفة السنة في شيء دقيق ولا جليل. فانهم متفقون اتفاقاً يقيناً على وجوب اتباع الرسول ﷺ. وعلى أن كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك، الا رسول الله ﷺ. واذا وجد لواحد منهم قول قد جاء حديث صحيح بخلافه، فلا بد له من عذر في تركه. والأعذار ثلاثة: عدم اعتقاده انه حديث صحيح. أو عدم اعتقاده ارادة تلك المسألة بذلك الحديث، أو اعتقاده بأن الحديث منسوخ.

وقد كان هؤلاء جميعاً يوصون تلاميذهم: (اذا صح لكم حديث يخالف قولنا فاتركوا قولنا واتبعوا الحديث).

كان أبو حنيفة وأصحابه يفتون ببطلان الوقف، لأنه حبس للمال وقيد على الارادة في رأيهم، فلما استقبل الامام مالك أبا يوسف في المدينة، أراه أوقاف الصحابة، فعدل عن رأيه.

فقال له مالك: (لو رأى صاحبنا أبو حنيفة هذه الأحباس (الأوقاف) لعدل عن رأيه كما عدلت).

ونحن نعرف أن الشافعي حين جاء مصر، وعاش فيها، واطلع على فقه الامام الليث بن سعد، أعاد صياغة كتبه، وعدل عن كثير من آرائه. وقد أوصى أحمد بن حنبل، باعتماد ما كتبه الشافعي في مصر، وترك ما عداه.

وكـان الامام جعفـر الصادق ينـاظـر أبـا حنيفـة ومـالـك بن أنس، فيعدلان عن آرائهما بعد المناظرة.

كـان هؤلاء الأئمة يـوقر الـواحـد منهم الآخـر، ويفيـدون من آراء بعضهم البعض. فمـا بال أتبـاعهم يسفهـون من خـالفهـم ويجعلون خلاف الأئمة حرباً ضروساً؟!.

فلنتفق فيمـا بيننا على أن خـلافاتنـا يجب ألا تشغلنـا عن الحـرب على المنكـرات، والبـدع، وعن التعـاهـد على الـذود عن حـوض الشريعة، واحيـاء ما كـان عليه السلف الصـالح، في القـرون الثلاثـة الأولى للهجرة. ليعرف الناس ان الحقيقة هي الشـريعة، وأن علمـاء الشريعة هم أهل الحقيقة، وأن ما يقال غير ذلك ابتداع وضلال!

فمن يزعم انه يعرف من الدين أكثر مما عرفه الرسول عليـه الصلاة والسـلام؟! وهو قـد علم أصحابـه كل شيء، وهم علمـوا التـابعين، ومنهم تعلم تابعوهم، وأئمة الدين الكبار.

أنا لا أتحرج مثلكم من محـاربة متصـوفة هـذا الزمـان، وما أبـالي أرضي السلطان والأمراء والعامة أم غضبوا. . . ! ومـا أبالي أن يتهمني أحد بأنني أدافع عن نفسي أمام من يتهمون رجال الشريعة، بـأنهم لا يعرفون حقيقـة الدين!!. . لا بـد أن أدحض باطـل هؤلاء الصوفيـة، وألـزمهم بالسنـة. . فليكونـوا كـأسـلافهم العـظام الـذين أدركـوا أن طريقهم الى التصوف هو التزام الكتاب والسنة».

***

نـظر الشيخ تقيّ الـدين بن تيمية في أحـوال الصـوفيـة ونشـأتهـا،

فوجدها تستند الى نـوع من الزهـد ينكره الاسـلام، فهو رهبـانية نهى عنها الرسـول ﷺ . فقد جـاء في الحديث الصحيـح : لا رهبانيـة في الاسلام .

وقد جاءت امرأة أحد الصحابة الى السيدة عائشـة رضي الله عنها، فأنكرت أم المؤمنين ما رأته من عبوس الزائرة وذبولها، وعدم اهتمامها بهيئتها . فشكت المرأة زوجها، فهو يصـوم النهار، ويقـوم الليل، ولا يقربها! فلما حكت السيدة عائشة للرسـول ﷺ خرج فـاعتلى المنبر، ونهى عن الانقطاع للصيام والقيـام، وترك النسـاء، فهو اتقـاهم، وهو يصوم ويفطر، ويقوم وينام، ويتزوج النساء ومن خـالف سنة الـرسول فليس منه .

وبعد أيام جـاءت المرأة، فـوجدتهـا السيدة عـائشة، حسنـة الهيئة مضيئة الوجه، فسألتهـا عما غيـرها؟ فقـالت لها: «أصـابنا مـا أصاب الناس» . .

* * *

كان الزهاد والصوفية الأوائل، مجاهدين في سبيل الله، لا يعتزلون الحيـاة أو النـاس، ولكنهم يعفـون عن الـطمـع، ولا يشغلون القلب بجمع المال، بل يسعون في صلاح الأمة، وعمـارة الأرض، وحمايـة الثغور، ويحقرون من يفتنه زخرف الحياة، عما نـدبه الله لـه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . .

كــان من بينهم أغنيـاء، ولكنهم لا يكنــزون المـال، أو يشتغلون بجمعه، بل ينفقونه على ذوي الحـاجات، ولا يحـرمون على أنفسهم

الطيبات من الرزق. . هكذا كان عبد الله بن المبارك، والليث بن سعد. .

فلما أراد حكام المسلمين أن يعطلوا الشورى وينفردوا بالسلطة، شجعوا الزهاد والمتصوفة على اعتزال الحياة والناس، والانشغال بأمور أخرى غير تحقيق مصالح الأمة. . كما شجعوا الفكر الذي يذهب الى أن الانسان مسير لا مخير، وأنه يجبر على أفعاله. . واذن فليتقبل هذا الجبر! واذن فليتقبل استبداد الحكام!

وقد بلغ من حرص المستبدين على اقصاء أهل الورع والصلاح، أن أقاموا لهم مساكن فيها المساجد والحدائق والمطابخ. . ليسكنوا فيها، ولا يعملوا شيئاً الا العبادة! وأجروا عليهم الأموال الطائلة!. .

عاين ابن تيمية نفوذ الصوفية على السلطان والأمراء والعامة في مصر!

وقد تبعتهم العامة، فكانوا يقيمون الأذكار على أنغام خاصة، ويرقصون، ويتطوحون، حتى يسقطوا على الأرض، ويتمرغون، وهم يستغيثون أولياء الله الصالحين من أصحاب الأضرحة. . وكثير منهم انقطع للتسول حول المساجد. . !

لو أن كل واحد من هؤلاء عمل عملاً، لجعلوا صحارى البلاد العربية جنات، ولأقاموا العمائر، ولصنعوا الرخاء لأنفسهم وللآخرين. .

ولكنهم اكتفوا بمتابعة شيوخهم وأقطابهم، وانقطعوا من كل شيء: عن العمل والعبادات معاً، فبحسبهم أن يرضوا الأقطاب!!

وشاع ذكر كـرامات هؤلاء الأقـطاب، فأخـافوا النـاس، ولـم يجسر أحد على نقد الصوفية مهما يصنعوا، حذر الانتقام الالهي منه! . .

ولم ينـج بعض علماء الدين من هذا الخوف، وانهم ليروون قصة أحد أولئك الأقطاب. . كان لـه مجلس يطرب فيـه العامـة بالأغـاني، ويقيم حلقات للذكر، يجتمع فيها المجاذيب فيرقصون على أنغام . . ثم يقوم بعد هذا ليعظ الناس، فيلحن في القرآن والحديث.

وقام عليه بعض طلبة العلم، وشكوه الى مشايخهم، فاجتمع قضاة المـذاهب الأربعة وعقـدوا له مجلسـاً بالقلعـة. وامتحنوه في القـرآن والحديث، فوجدوه كما قال الطلاب، فأفتى القاضي المـالكي بمنعه من الوعظ، وامتنع الثلاثة الآخرون، فلم يتكلموا . . فتركهم القاضي المـالكي، ونزل من القلعـة غاضبـاً، فزلت قـدمه على سلم القلعـة، فوقع، وانكسرت رقبته . . !

فقام القضاة الثلاثة الآخرون، فقبلوا قدمي القـطب الصوفي فقـال لهم: نحن أهل الحقيقة لا نلحن، انما سمعكم هو الذي يلحن.

* * *

بدأ ابن تيمية معركته مع الصوفية بتفنيدالأفكار الصوفية الشائعـة، وكان الصوفية فرقاً متعددة، وان كـانوا جميعـاً يعتنقون مـذهب محيي الدين بن عربي، وتلميذه ابن الفارض.

وقد رفع ابن عربي المسئولية الأخلاقيـة عن المتصوف حين يغلبـه حب الله فيفنى في هـذا الحب. . «ان المحب غيـر مـطالب بـالقيـام بالآداب، انما يطالب بالأدب من كان له عقل، وصاحب الحب ولهان

مدله العقل، لا تدبير له فهو غير مؤاخذ في كل ما يصدر عنه».

هجر أتباع هذا المذهب من الرجال والنساء كل العبادات، وأهدروا الأعراف الخلقية، وارتكبوا ما شاءوا من المعاصي!!

جاء ابن عربي بمذهب أسماه «وحدة الوجود» وقال ان الموجود واجد، وان المخلوق اذا أحب الخالق حل فيه الخالق! وعندما يصل الى درجة الحب يصل الى غيبوبة هي السكر. وهي وحدة الشهود. وهي كوحدة الوجود.. وعندما يصير المتصوف الى هذا الحال. يصبح صاحب حال. وله حكم آخر! قال ابن عربي: «ان حكم صاحب الحال حكم المجنون الذي ارتفع عنه القلم، فلا يكتب له ولا عليه. وهل يحاسب المجنون الذي فقد عقله على ما يأتي من أفعال. أو يستحق من أجلها مديحاً أو ملامة؟ والله يعلم من عباده المحبين له أنهم غير مطالبين بالقيام بما كلفهم به فأسقط عنهم التكليف. بل زاد فأباح لهم مجاوزة الحدود. أي أحل لهم ما حرم على غيرهم. وأذن لهم أن يفعلوا ما يشاءون».

وهاجم ابن تيمية هذه الآراء في كل دروسه وحلقاته بالمساجد المختلفة، واتهمها بالخروج الصريح على الاسلام، بل على جميع الأديان السماوية، وما تعارف عليه الناس من أخلاق..! واستشهد بالمعروف بالآيات القطعية والأحاديث الصحاح...

ووضح للناس انه ليس عدوا للتصوف، ولكنه عدو لهذا الفكر الذي قاد صاحبه الى التسوية بين الايمان والشرك، اذ يقول:

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة   فمرعى لغزلان ودير لرهبان

وبيت لأوثـان وكـعبـة طـائـف والـواح تـوراة ومصحف قـرآن
أدين بـدين الحب أنى تـوجهت ركـائبه فـالحب ديني وايمـاني

ويقول :

الـرب حـق والـعـبـد حـق يـا ليت شعـري من الـمكـلف
ان قـلت عـبـد، فـذاك رب أو قـلت رب، أنـى يـكـلف؟

فهذا الاتحاد في الله والفناء فيه الذي يقول به ابن عربي وأتبـاعه، واعتبار وجود المخلوق هو وجود الخالق، هو قول أهل الالحـاد الذين هم أضـل العباد. وفنـاء المعبـود في العـابـد والمحب في المحبـوب وحـالة السكـر التي يغيب فيها الانسـان عن نفسه، فليست من لـوازم الطريق الى الله، ولو كانت كذلك لحدثت للرسول وصحابته.

أما الفناء الذي يدعو اليه السلف الصالح من الـزهاد والمتصـوفة، ومن تبعهم باحسان الى يومنا هذا فهو فناء شرعي، لأنه فناء العبـد في الـطاعة، «فيفنى عن غيـر الله بعبـادة الله، وعن محبـة سـواه بمحبتـه تعالى ورسولـه، وعن خوف غيـره بخوفـه، بحيث يكون الله ورسـوله أحب اليه ممن سواهما».

هـذا هو الـذي نادى بـه عدد من كبـار الصوفيـة واعتنقوه، فـأفادوا الاسلام والمسلمين، وكانوا لا يخافون في الله لومة لائم.

أمـا هـذا الفنـاء والحب والاتحـاد، الـذي يـدعـو الى اسقـاط التكاليـف، واباحـة كل المحـرمات للمحب، فهـو الكفر. وبهـذا قال الصالحون من الصوفية. . فـالشيخ العـز بن عبد السـلام قال عن ابن عـربي : «شيخ سـوء مقبوح، يقـول بقدم العـالم، ولا يحرم فـرجاً».

وقال الشاذلي في أتباع مذهب ابن عربي: «هؤلاء كفار يعتقدون أن الصنعة هي الصانع».

واقتنع عدد من طلاب العلم وشباب العلماء ورواد حلقة الشيخ بما قاله، ومضوا يرددون حججه.

واقتنع عدد كبير من شباب الصوفية بآراء الشيخ، واشتد انكارهم على ما يفعله زملاؤهم في الصوفية، وعلى ما يعتنقونه.

ومضى الشيخ الى أصدقائه من العلماء يروي لهم ما كان من أمره مع أهل الطرق الصوفية: «هؤلاء الصوفية مختلفون، ولا يهتدون الى التمييز بين فرقهم، مع استشعارهم انهم مفترقون. ولهذا لما بينت لطوائف من أتباعهم ورؤسائهم حقيقة قولهم، وسر مذهبهم، صاروا يعظمون ذلك. ولولا ما أقرنه بذلك من الذم، لجعلوني من أئمتهم، وبذلوا لي من طاعة نفوسهم وأموالهم ما يجل عن الوصف، كما تبذل النصارى لرؤسائهم، والاسماعيلية لكبرائهم، وما بذل آل فرعون لفرعون».

وفرح العلماء من أصدقاء الشيخ بانتصاره..

غير أن الفرحة لم تطل، فقد كان من كبراء مصر، من يعتبر ابن عربي اماماً للدين، فهو على مذهب أهل الظاهر في العبادات، ينادي باتباع الكتاب والسنة، وترك المذاهب الأربعة.. ولكنه باطني في العقيدة.

كان لأتباع ابن عربي نفوذ كبير.. وعلى رأسهم الشيخ المنبجي شيخ الأمير بيبرس الجاشنكير وصاحب الكلمة النافذة عليه، وابن

عطاء الله السكندري، وهو متصوف ورع، وعالم من علماء الشريعة الذين يدرسون في الأزهر.

ولكن ابن تيمية لم يحفل بسخط هؤلاء، ومضى يكتب شعراً ساخراً في المتصوفة الذين كانوا يسمون أنفسهم الفقراء!

قال على لسانهم:

والله ما فقرنا اختيار ... وانما فقرنا اضطرار
جماعة كلنا كسالى ... وأكلنا ما له عيار
تسمع منا اذا اجتمعنا ... حقيقة كلها فشار

(فشار بمعنى فشر).

ومضى طلاب العلم وشبابه الذين تحمسوا لابن تيمية، يتغنون بهذه الأبيات على ايقاع الأنغام الصوفية في حلقات الذكر.

فاستخف الناس بالصوفية، وطاردوهم بهذه الأبيات، فكثرت الزراية عليهم..

فذهب ابن عطاء الله السكندري، ومعه الشيخ نصر المنبجي على رأس جماعة من الصوفية الى القلعة، فادعوا على ابن تيمية انه يطعن في الصوفية، ويزري بها ويحرض طلاب العلم على رجالها، وادعوا عليه أنه ينكر الاستغاثة بالرسول ﷺ والتوسل به، وينكر شفاعته للمسلمين.

فعقدت له محكمة من قضاة المذاهب الأربعة، وبعض العلماء.

ورأى ابن مخلوف أن يعين قاضيين من مذهبه المالكي، ولم يشهد هو المحاكمة.

قال الشيخ وهو يدخل إلى المحاكمة: «اللهم هب لي نوراً يهتدون به الى الحق».

وقف ابن عطاء الله السكندري يدعي بالاتهام. وآثر ألا يجعل الاتهام هو الهجوم على ابن عربي، فهو يعرف أن العلماء والقضاة الذين يحاكمونه في شقاق بعيد مع الصوفية، ولهم في ابن عربي وابن الفارض مثل رأي ابن تيمية، وان كانوا لا يفصحون.. . حتى ابن مخلوف شيخ المالكية ينكر الصوفية وآراءهم وأحوالهم، ولكن يكتم رأيه نفاقاً للأمير بيبرس الجاشنكير.. !

قال ابن عطاء الله السكندري: الفقيه ابن تيمية ينكر الاستغاثة بالرسول ﷺ . «وهذا مخالف للأحاديث الصحيحة. فهو ضلال».

قال الشيخ: «لم يصح عن الرسول ﷺ حديث واحد أمرنا فيه باستغاثته. بل صح عنه النهي عن ذلك. فقد نصح ابن عمه العباس ابن عبد المطلب بأنه اذا استغاث فليستغث الله، واذا استعان فليستعن بالله، فما يغني عنه من الله شيئاً. . والآيات القطعية الدلالة في القرآن الكريم تأمرنا بأن نستغيث الله تعالى وحده. فهو المغيث وهذا من أسمائه الحسنى التي لا شريك له فيها.

نعم لا يستغاث الا بالله ولا يستغاث بالنبي بمعنى العبارة. ولكن يتوسل به ويتشفع به. وقد جاء في الأحاديث الصحاح انه ﷺ رزق الشفاعة. وهو حديث جاء في مسند أحمد».

قال رئيس جلسة المحاكمة: «ليس في هذا ضلال ولا كفر، ولكنه قلة أدب».

وتشاور العلماء الموجودون فقالوا: «ليس فيما قاله شيء. . الا انه يصدم العرف السائد».

وصمم أحد القضاة من أتباع بيبرس أن يحكم بتعزير الشيخ، أي سجنه أو جلده.

فرفض الجميع. . وقال قاضي القضاة: «أما أن يكون ما قاله كفر فالحكم أن يقتل به، وأما أنه لا شيء فيه فلا موجب للحكم بتعزيره. وما قاله هو في الحقيقة قلة أدب. وقد قلتها له» وطلبت منه المحكمة أن ينصرف الى حاله.

***

عاد الشيخ الى مجالسه وحلقاته في المساجد المختلفة، يشدد النكير على الصوفية، ويتهم ابن عربي بالتناقض أو النفاق، كيف يدعو الى اتباع الكتاب والسنة، وهو في الوقت نفسه، يبيح لصاحب الحال ترك التكاليف الشرعية من صلاة وصيام وزكاة وحج، واقتراف المحرمات!!

وازداد تشنيع شباب العلماء على الصوفية، وانكارهم لما يأتونه.

فذهب الشيخ المنبجي، وطلب من الأميرين بيبرس وسلار، أن يخلصا الناس من ابن تيمية، فهو يثير الفتنة، والصوفية غاضبون يتوعدون الشيخ وأنصاره، فاذا اصطدم الفريقان عمت الفوضى وتهدد الأمن.

واستدعي ابن تيمية الى القلعة وخير بين أمور ثلاثة: أما أن يعود الى دمشق، أو يذهب الى الاسكندرية، وفي كلا البلدين يجب أن

يكف لسانه عن الصوفية، واما أن يسجن!.

قال: «السجن أحب الي مما يدعونني اليه».

ولكن أصدقاء الشيخ وتلاميذه وأتباعه الذين أصبحوا الآن عديدين، ألحوا عليه في العودة الى دمشق، حيث نائب السلطان هناك صديق له يعرف قدره ولن يضيق عليه.

أعلن الشيخ أنه عدل عن أختباره، واختار العودة الى دمشق.

وتهيأ للسفر: الى أمه، والصحاب، والطلاب.

* * *

وصل الى بلبيس، فلحق به من يستدعيه الى القاهرة!

لقد أصبح بيبرس هو السلطان فذهب الشيخ المنبجي ومعه الشيخ ابن مخلوف، فألحا على السلطان بيبرس في قتل الشيخ ابن تيمية فهو ينهى عن الاستغاثة بالرسول، وزيارة أضرحة الصالحين، ثم انه يحرض على الصوفية ويشق صوفهم، وهذا ابتغاء للفتنة، فهو يستحق القتل!

وتكلم بيبرس مع صديقه وشريكه سلار في أمر الحكم على الشيخ بالاعدام.

ولكن سلار رفض، واكتفى بأن يحكم عليه بالحبس.

وعقدت محكمة لتعيد النظر في أمره.. قال القاضي المالكي وكان مخالفاً لقاضي قضاة المالكية ابن مخلوف: «ما ثبت عليه شيء».

فقيل: «الدولة ما ترضى الا بحبسه».

قال قاضي القضاة: «الحبس مصلحة لـه. فالصـوفية يـأتمرون بـه وسيؤذونه. ففي الحبس حمايته».
فقال الشيخ: «أنا أتبع ما تقتضيه المصلحة وأمضي الى الحبس».
فقال القاضي المالكي: «يكون في موضع يصلح لمثله».
فقيل له: «الدولة لا ترضى الا بمسمى الحبس».
ولكنهم اتفقوا على أن يوضـع في حبس القضاة، وأن يكـون عنده من يخدمه.
وحبس القضاة بيت كبير مريح.. ليس كغيره من السجون.
وفي حبس اتلقضاة، أقبل عليه طلاب العلم، ومريدوه، ومحبوه، من الأمـراء والتجار يستفتـونه، ويسـألونـه أن يستمر في القـاء دروسه عليهم وهو في حبسه. فأجابهم الى ما يريدون!
مـرة أخرى ذهـب ابن المنبجي الى بيبرس الجاشنكيـر، وشكـا لـه التفـاف النـاس حـول ابن تيميـة في محبسـه.. وقـال ان الـدولـة لم تحبسه، بل أكرمته، وأنزلته في دار ضيـافة، يخف اليـه فيها الـرواد، ويتابع منها نشاطه.
ورسم السلطان بيبرس الجاشنكيـر بابعـاده من القاهـرة، ونفيه الى الاسكندرية.
وأنزلوه في بيت بالاسكندرية، عليه حرس غلاظ.
ولكن الناس الانوا الحرس، فتركوا الشيخ يـروح ويجيء، ويلتقي بمن يشاء.
. ووجد في الاسكندرية حركة صوفيـة قويـة من أتباع ابن عـطاء الله السكنـدري، فأخـذ يصـاول أفكـارهم، ويعيب أعمـالهم، وأكـد أن

العلماء الذين يسميهم الصوفية أهل الشريعة، ليسوا أعداء للصوفية، ولكنهم أغداء للبدع والمنكرات.

وذكرهم بما قاله الشيخ العز بن عبد السلام عن أبي العباس المرسي لما سمع شرحه. قال للناس «اسمعوا هذا الكلام فهو قريب العهد بالله تعالى».

وانشق الصوفية في الاسكندرية على أنفسهم..

وتابعه خلق كثير. وشعر باكبار طلاب العلم، والعلماء في الاسكندرية.

وتحسب مما يمكن أن يحدث!!

سيسمع السلطان بيبرس الجاشنكير بهذا، وفيأمر بوضعه في السجن، وحجبه عن الناس!!

أبيبرس الجاشنكير هو السلطان حقاً؟!

ورنت الكلمة في قلبه رنيناً غريباً..

وماذا صنعوا بالرجل الصالح السلطان الناصر محمد بن قلاوون؟!

قيل له: «لقد تنازل عن الملك طائعاً لينجو بنفسه، وعين أميراً على الكرك!».

وأغفى الشيخ، وهو يفكر فيما آل إليه الأمر بالسلطان الناصر.

ودعاالله أن يولي أمور المسلمين خيارهم.

***

صحا على أصوات تناديه في لهفة: «يا شيخ تقي الدين.. السلطان يطلبك.. تهيأ للسفر».

ها هو ذا بيبرس الجاشنكير، يطلبه ليضعه في الحبس من جديد،

حيث لا يرى ضوء الشمس بعد، ولا يعرف الليل من النهار.

ولكنه بلاء في الله يا تقي الدين، والعقبى للصابرين!!

وتثاقل وهو ينهض.

فدخل الحجرة عليه رجال يتعجلونه: الفرح يجلجل في أصواتهم، ووجوههم يعلوها البشر!

- «السلطان يطلبك.. عجل يا شيخ الإسلام».

- «شيخ الإسلام؟!! أي سلطان يطلبني؟!».

أبشر يا شيخ الإسلام.. عاد السلطان الناصر محمد بن قلاوون إلى ملكه أمس. وكان أول ما رسمه هو الإفراج عنك. وإحضارك إليه.

ونشط الشيخ يعد نفسه للسفر إلى القاهرة وهو يردد بصوت خاشع: ﴿ان ينصركم الله فلا غالب لكم﴾.. ﴿وبشر الصابرين﴾.

الفصل السابع

بلغ ابن تيمية القاهرة، بعد صلاة العصر. وحوله الأمراء المماليك الذين اصطحبوه من الاسكندرية. كأنهم حرس شرف..

وصحبوه الى مسكن مريح أعده له السلطان، الى جوار مسجد الامام الحسين.

ثم خرج الى الأزهر، في انتظار اذان المغرب، فعكف على نفسه، يقرأ القرآن وبعض الأوراد، ويتأمل في كل جرى له وللسلطان الناصر، ويتأمل في حكمة الله، وقضائه، ففاضت عيناه بالدمع..!..

وحمد الله على كل ما قدره وقضاه، وسأله اللطف في القضاء.. وبعد صلاة المغرب، فوجىء به ابن عطاء الله السكندري يصلي خلفه، فهش له، وهنأه بسلامة الوصول...

وحين أدرك المصلون أن ابن تيمية بينهم، هللوا وكبروا مرحبين به، واقبلوا عليه يهنئونه باطلاق سراحه، وبعودة السلطان الناصر.. الا قليلا أعرضو عنه!

وقال له ابن عطاء الله: «ألفت أن أصلي المغرب في جامع مولانا الحسين، وأصلي العشاء هنا، فانظر تقدير الله.. قدر لي أن أكون أول من يلقاك.. أعاتب أنت علي يا فقيه.».

فقال ابن تيمية: «أعرف انك ما تعمدت ايذائي، ولكنه الخلاف في الرأي. على أن كل من آذاني فهو منذ اليوم في حل مني».

قال ابن عطاء الله: «ماذا تعرف عني يا شيخ ابن تيمية؟».

قال: «أعرف عنك الورع، وغزارة العلم، وحدة الذهن، وصدق القول، وأشهد أني ما رأيت مثلك في مصر ولا في الشام حباً لله أو فناء فيه أو انصياعاً لأوامره ونواهيه. ولكنه الخلاف في الرأي. فماذا تعرف عني أنت لتدعي علي بالضلال اذ أنكر استغاثة غير الله».

قال ابن عطاء الله: «اني أعجب لك يا فقيه. فأنت نصير للسنة تستوعب الآثار حفظاً وفهما، كامل الفكر سريع الادراك، ولكنك تطلق عبارات أحجم عنها الأولون والآخرون، وتخرج فيها عن مذهب امامك أحمد، ومذاهب سائر الائمة».

فقال ابن تيمية: «من تعصب لمذهب بعينه، فقد أشبه أهل الأهواء، وغاية المتعصب لواحد من ائمة المذاهب، أن يكون جاهلا بقدره في العلم والدين، وقدر الآخرين. فيكون ظالماً، والله ينهى الانسان عن الجهل والظلم، ويأمر بالعلم والعدل. قال تعالى: ﴿**وحملها الانسان انه كانْ ظلوما جهولا**﴾. وهذا أبو يوسف ومحمد كانا أتبع الناس لأبي حنيفة وأعلمهم بقوله، خالفاه في مسائل لا تكاد تحصى، لما تبين لهما من السنة والحجة ما أوجب عليهما اتباعه.

وهما في ذلك يعظمان امامهما. وأنا أقول بما قام عليه الدليل عندي لا أداهن و لا أحابي. وما يظن أن أحداً من فقهاء هذا الزمان أشد حباً لرسول ﷺ مني، ولا أكثر اتباعاً له مني. فاذا صح عندي الحديث تركت أقوال الأئمة، وأخذت به، وبهذا نصحوا هم أنفسهم».

قال ابن عطاء الله: «أما آن لك يا فقيه أن تعرف ان الاستغاثة هي الوسيلة والشفاعة، وأن رسول الله ﷺ يستغاث، ويتوسل به، ويستشفع به،؟».

قال ابن تيمية: «أنا في هذه أتبع السنة الشريفة. فقد جاء في الحديث الصحيح: (أعطيت الشفاعة). وقد أجمعت الآثار في تفسير الآية الكريمة: **﴿عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾**، على أن المقام المحمود هو الشفاعة. والرسول ﷺ، لما ماتت أم أمير المؤمنين علي، رضي الله عنهما، دعا لها الله علي قبرها: (الله الذي يحيي ويميت، وهو حي لا يموت، اغفر لأمي فاطمة بنت أسد، ووسع عليها مدخلها، بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي، فانك أرحم الراحمين). فهذه هي الشفاعة. أما الاستغاثة ففيها شبهة الشرك بالله تعالى، ولهذا منعها سدا للذرائع. قال تعالى: **﴿ولا تدعوا مع الله أحداً﴾**. صدق الله العظيم. «وقد أمر الرسول ابن عمه عبد الله بن العباس ألا يستعين غير الله».

قال ابن عطاء الله: «أصلحك الله يا فقيه. أما نصيحة الرسول ﷺ لابن عباس، فقد أراد أن يتقرب الى الله بعمله لا بقرابته من الرسول، وأما فهمك ان الاستغاثة استغاثة بغير الله فهي شرك، فمن

. من المسلمين الـذين يؤمنـون بـالله ورسـولـه يحسب أن غيـره تعـالى يقضي ويقـدر ويثيب ويعـاقب؟!.. انمـا هي الفـاظ لا تؤخـذ على ظـاهرهـا، ولا خوف من الشـرك لنسـد اليـه الـذريعـة!.. فكـل من استغـاث الرسـول، فهو انما يستشفع به عند الله مثلمـا تقـول أنت، أشبعني هذا الطعام فهل الطعام وهو الذي أشبعك أم أن الله تعالى هو الذي أشبعك بالطعام؟. وأما قولك ان الله نهانا أن نـدعو غيـره، فهل رأيت من المسلمين أحـداً يدعـو غير الله؟ انمـا نزلت هـذه الآيـة في المشـركين الذين كـانـوا يـدعـون آلهتهم من دون الله! انمـا يستغيث المسلمـون محمداً ﷺ بمعنى التـوسل بحقـه عند الله، والتشفـع بما رزقه الله من شفاعة. أما تحريمك الاستغاثة لأنها ذريعة الى الشـرك، فـانك كمن أفتى بتحـريم العنب، لأنه ذريعـة الى الخمـر، ويخصي الـذكور غيـر المتزوجين سـداً للذريعـة الى الـزنـا..!..» وضحـك الشيخان.

واستطرد ابن عطاء الله: «وأنـا أعلم ما في مـذهب شيخكم الامام أحمد من سعة، وما لنظرك الفقهي من احاطة. فسـد الذرائـع عندكم مشـروط بظروفـه، فيمنـع المبـاح اذا أدى الى ضـرر يغلب وقـوعـه، كتحريم بيع السلاح في زمن الفتنة، أو تحـريم زيادة السعـر في البيع اذا كان الثمن يذفع على فترات، سـدا للذريعة الى الـربا. ان الأخـذ بظاهر المعنى يوقع في الغلط أحياناً يـا فقيه. ومن هـذا رأيك في ابن عـربي، وهـو امـام ورع من أئمـة الـدين. فقـد فهمت مـا كتبـه على ظاهره، والصـوفية أصحـاب اشارات وشـطحات روحيـة، ولكلماتهم أسـرار، فكان يتعين على من هـو في مثل حـذقـك، وحـدة ذهنـك،

وعلمك باللغـة أن يبحث عن المعاني المكنـونة الخفيـة، وراء ظاهـر الكلمات. فالمعنى الصوفي روح، والكلمة جسد، فاستقص ما وراء الجسد لتدرك حقيقة الروح. ثم انـك اعتمدت في حكمـك على ابن عربي، على نصوص قد دسها عليه خصومه!. . أما شيخ الاسلام عـز الدين بن عبد السـلام، فانـه لما فهم كتـابات الشيـخ، وحل رمـوزها وأسـرارها، وأدرك ايحـاءاتها، استغفـر الله عما سلف منـه، وأقر بـأن محيي الدين بن عربي امام من ائمة الاسلام.

وأما كلام الشاذلي، فليس أبو الحسن الشاذلي هو الذي قالـه، بل أحد تلاميذه من الشاذلية، وهو ما قال في الشيـخ ابن عربي، بـل في بعض المريدين الذين فهموا كلامه على غير وجهه».

وسكت ابن عطاء الله قليلا ثم سأل: «ما رأيـك في شيخك الامـام أحمد بن حنبل رضي الله عنه؟».

قال: «أحمد كان أعلم من غيره بالكتاب والسنـة وأقوال الصحـابة والتابعين لهم باحسان. ولهذا لا يكاد يوجد له قول يخالف نصاً، كما يوجد لغيره، ولا يوجـد لى قول ضعيف، الا وفي مـذهبه في الغـالب قول يوافق الأقوى، وأكثر ما انفرد به مخالفا مذهب غيره، يكون قـوله رَاجحـاً، كقبول شهـادة أهل الـذمـة على المسلمين عنـد الحـاجـة، وكالوصية في السفر، وغير ذلك من المسائل».

سـأل ابن عطاء الله: «مـا رأيك في أميـر المؤمنين الامـام علي بن أبي طالب؟».

أجاب ابن تيمية: «رضي الله عنه وأرضاه. في الحـديث الصحيح

أن رسول الله ﷺ قال: (أنا مدينة العلم وعلي بابها). وهو المجاهد الذي لم يبارز أحداً الا غلبه. فسن للعلماء والفقهاء من بعده أن يجاهدوا في سبيل الله باللسان والقلم والسيف جميعاً. وكان كرم الله وجهه أقضى الصحابة، وكلماته سراج منير أستضيء به في حياتي، بعد الكتاب والسنة، وآه من قلة الزاد وطول السفر!»

فقال ابن عطاء الله: «فهل يسأل أمير المؤمنين الامام علي رضي الله عنه وكرم الله وجهه، من شايعوه، فغالوا، وزعموا ان جبريل أخطأ، فجاء بالرسالة محمداً ﷺ بدلاً من علي!؟ أو عن الذين زعموا أن الله حل في جسده، فصار الامام الهاً؟!.. الم يقاتلهم وقتلهم!؟.. أما أفتى بقتلهم أينما ثقفوا..؟!»؛

قال ابن تيمية: «وبهذه الفتوى خرجت لقتالهم في الجبل بالشام منذ أكثر من عشرة أعوام».

استمر ابن عطاء الله: «والامام أحمد رضي الله عنه، أيسأل عما فعله بعض أتباعه، من كبس الدور، واراقة الخمر، وضرب المغنيات والراقصات، واعتراض الناس في الطرقات باسم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟!! أفما أفتى رضي الله عنه بتعزير هؤلاء، فجلدوا وسجنوا، وطيف بهم مقلوبين على ظهور الحمير؟! أم هل الامام أحمد رضي الله عنه مسئول عن تلك الأعمال التي ما زال أراذل الحنابلة يأتونها حتى يومنا هذا باسم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟!».

قال ابن تيمية: «فالشيخ محيي الدين بن عربي، بريء مما يصنعه

أتباعه من اسقاط التكاليف الدينية، واقتراف المحرمات؟!.. أترى هذا؟ ولكن أين تذهبون من الله، وفيكم من يزعم أنه صلى الله عليه بشر الفقراء، بأنهم يدخلون الجنة قبل الأغنياء، فسقط الفقراء منجذبين، ومزقوا ملابسهم. وعندئذ نزل جبريل وقال للنبي ان الله تعالى يطلب حظه من هذه المزق، فحمل جبريل واحدة منها وعلقها على عرشه تعالى؟!.. ولهذا يلبس الصوفية المرقعات ويسمون أنفسهم الفقراء!!».

قال ابن عطاء الله: «ما كل الصوفية يلبسون الخرق، و هأنذا أمامك، فما تنكر من هيئتي؟!».

قال ابن تيمية: «أنت من رجال الشريعة وصاحب حلقة فى الأزهر».

قال ابن عطاء الله: «والغزالي كان اماما في الشريعة والتصوف على السواء. وقد عالج الأحكام والسنن الشرعية بروح المتصوف، وبهذا المنهج استطاع احياء علوم الدين. نحن نعلم الصوفية أن القذارة ليست من الدين، وأن النظافة من الايمان، وأن الصوفي الصادق يجب أن يعمر قلبه بالايمان الذي يعرفه أهل السنة.

لقد ظهر بين الصوفية منذ قرنين من الزمان، أشياء كالتي تنكرها الآن، واستخفوا بأداء العبادات، واستهانوا بالصوم والصلاة، وركضوا في ميدان الغفلات... وادعوا أنهم تحرروا من رق الأغلال. ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الأفعال، حتى أشاروا الى أعلى الحقائق والأحوال، كما وصفهم القشيري الامام الصوفي العظيم فوجه اليهم الرسالة القشيرية، ترسم طريق الصوفي الى الله وهي تمسكه بالكتاب والسنة.

ان ائمة الصوفية يريدون الوصول إلى الحقيقة، لا بالأدلة العقلية التي تقبل العكس، بل بصفاء القلب ورياضة النفس، وطرح الهموم الدنيوية، فلا ينشغل العبد بغير حب الله ورسوله، وهذا الانشغال السامي، يجعله عبداً جديراً بعمارة الأرض، واصلاح ما أفسده حب المال، والحرص على الجاه، والجهاد في سبيل الله». .

قال ابن تيمية: «هذا الكلام عليك لا لك، فالقشيري لما رأى أتباعه يضلون الطريق، قام عليهم ليصلحهم. فماذا فعل شيوخ الصوفية في زماننا؟ انما أريد من الصوفية أن يسيروا على سنة هذا السلف العظيم من زهاد الصحابة والتابعين وتابعيهم باحسان. اني أقدر منهم من يفعل ذلك وأراه من ائمة الدين. أما الابتداع وادخال أفكار الوثنيين من متفلسفة يونان وبوذية الهند، كادعاء الحلول والاتحاد ووحدة الوجود، ونحو ذلك مما يدعو اليه صاحبك هو الكفر المبين».

قال ابن عطاء الله: «ابن عربي رضي الله عنه كان أكبر فقهاء الظاهر بعد ابن حزم الفقيه الأندلسي المقرب اليكم يا معشر الحنابلة. كان ابن عربي ظاهرياً في الشريعة، ولكنه يسلك الى الحقيقة طريق الباطن، أي تطهير الباطن! . . وليس كل أهل الباطن سواء! . . ولكيلا تضل أو تنسى، أعد قراءة ابن عربي بفهم جديد لرموزه وايحاءاته، تجده مثل القشيري، قد اتخذ طريقه الى التصوف في ظل ظليل من الكتاب والسنة. انه مثل حجة الاسلام الشيخ الغزالي، يحمل على الخلافات المذهبية في العقائد والعبادات،

ويعتبرها انشغالا بما لا جدوى منه، ويدعو الى أن تكون محبة الله هي طريقة العبد في الايمان. فماذا تنكر من هذا يا فقيه؟ أم أنك تحب الجدل الذي يمزق أهل الفقه: (كلما جاء رجل أجدل من رجل، نقض الدين). قال الغزالي: (اعلم أن الساعي الى الله تعالى لينال قربة هو القلب دون البدن، ولست أعني بالقلب اللحم المحسوس، بل هو سر من أسرار الله عز وجل لا يدركه الحس). ان أهل السنة هم الذين لقبوا الغزالي - شيخ المتصوفة - بحجة الاسلام، ولا معقب على آرائه، فقد غالي بعضهم في تقدير كتابه إحياء علوم الدين فقال: «كاد الاحياء أن يكون قرآنا..» ان أداء التكاليف الشرعية في رأي ابن عربي وابن الفارض، عبادة محرابها الباطن، لا شعائرظاهرية.. فما جدوى قيامك وقعودك في الصلاة اذا كنت مشغول القلب بغير الله؟!.. مدح الله تعالى أقواماً بقوله تعالى: ﴿والذين هم في صلاتهم خاشعون﴾، وذم أقواماً بقوله تعالى: ﴿والذين هم في صلاتهم ساهون﴾. وهذا هو الذي يعنيه ابن عربي بقوله: ان التعبد محرابة القلب أي الباطن، لا الظاهر!.. ان المسلم لا يستطيع أن يصل الى ادراك علم اليقين وعين اليقين، الا اذا أفرغ قلبه مما يشوش عليه من أطماع الحياة الدنيا، وركز في التأمل الباطني، فغمرّته فيوض الحقيقة. ومن هنا تنبع قوته. فالصوفي الحق ليس هو الذي يستجدي قوته، ويتكفف الناس، انما هوالصادق الذي يهب روحه وقلبه، ويفنى في الله بطاعة الله، ومن هنا تنبع قوته، فلا يخاف غير الله.. ولعل ابن عربي قد أثار بعض الفقهاء لأنه أزرى على اهتمامهم بالجدل في العقائد، مما يشوش على صفاء القلب،

ثم في فروع الفقه وافتراضاته فأسماهم فقهاء الحيض وأعيذك بالله أن تكون منهم . .

ألم تقرأ قول ابن عربي : (من يبني ايمانه بالبراهين والاستدلالات، لا يمكن الوثوق بايمانه، فهو يتأثر بالاعتراضات. فاليقين لا يستنبط بأدلة العقل انما يغترف من أعماق القلب). ألم تقرأ هذا الكلام الصافي العذب قط؟!».

قال ابن تيمية : (أحسنت والله . . ان كان صاحبك كما تقول فهو أبعد الناس عن الكفر، ولكن كلامه لا يحمل هذه المعاني».

قال ابن عطاء الله : «ان له لغة خاصة، وهي مليئة بالاشارات والرموز والايحاءات والأسرار والشطحات. . . ولكن فلنشتغل بما هو أجدى، . . بما يحقق مصلحة الأمة . فلنشتغل بدفع الظلم، وحماية العدل المنتهك. . أرأيت ما فعله الفاسقان بيبرس ورسلا بالرعية، منذ خلع الناصر نفسه، فانفردا بالحكم؟! والآن عاد السلطان الناصر، وهو يؤثرك على كل الفقهاء، ويسمع لك. فأسرع اليه وانصح له. .

* * *

في الصباح، جاء أحد الأمراء من رجال القصر السلطاني، يدعو ابن تيمية الى مقابلة السلطان. واستفسر منه الشيخ عما جرى للسلطان، فروى له الأمير كل شيء: لقد أراد الأميران سلار وبيبرس أن يثبا على السلطان، فيقتلاه، ولكن السلطان أحس المكيدة. فأعلن انه ذاهب الى الحج بكل أهله ومماليكه. وجهز له الأميران موكبا ضخما

يصحبه، ومئونه الحج، يحملها خمسمائة من الابل، وقدم له الامراء هدايا نفيسة نادرة.

وعندما بلغ السلطان مدينة الكرك، لجأ الى قلعتها، فأقام بها هو وأهله ومماليكه، وأعلن أنه تنازل عن الملك، ورد شارات السلطنة، ورد معها الابل بما حملت، وطلب أن يعود كل هذا لبيت المال، ورد هدايا الأمراء وطلب أن تعاد الى اصحابها..

ولكن الأميرين سلار وبيبرس، استوليا على كل ما رده السلطان، وحين طالب الأمراء بالهدايا، أغلظ لهم بيبرس، وتوعدهم، ولم يرد شيئاً..!

ورشح سلار نائب السلطان لتولي الملك، ولكنه قام فبايع بيبرس، وآثر أن يظل نائباً للسلطان.. ذلك أن سلار بدهائه رأى أنه لن يكسب من منصب الملك، الا القلق على حياته من دسائس الأمراء الآخرين، وأنه سيخسر تجارته بالمساكن التي يؤجرها لأهل الفساد، ونصيبه من سائر التجار، الذين بعتمدون على في رفع الأسعار.

ولما بويع بيبرس، نازعه بعض الأمراء في مصر حقه في السلطنة، ورفض البيعة له أكثر الأمراء من ولاة الأقاليم في ديار مصر وديار الشام فأغدق عليهم أموالا طائلة نهبها من بيت المال، وقامت عليه العامة ترفضه وتهتف بحياة السلطان الناصر وفي مقدمة هؤلاء طلاب العلم، وشباب العلماء، والصالحون منهم..

وبطش بيبرس بمعارضيه، وأطلق عليهم عصابة سلار من الشطار

والحـرافيش، البغـايـا، والفتـاك، والقــوادين، والمخنثين، بنهبـون أموالهم، ويشنعون عليهم! . واشتد غضب الأمراء والعامة.

أما العامة فألقوا الحجارة على موكب السلطان الجـديد بيبـرس، ونائبه سلار، وواجهوهما بالهتاف للسلطان الناصر. وأما الأمراء، فقد تركوا مصر، وانحازوا الى الناصر بالكرك.

والناصر يرسل بيبرس وسلار، متظاهراً بالخضوع والطاعة، وشـاع أن السلطان سيتحـرك الى القـاهـرة ليستـرد الملك، فـأرسـل بيبـرس وسلار رجالاً عربدوا على السلطان. وأهانوه، وأنذروه أن يرد الأمـراء الهاربين، وسائـر مماليكـه، وما عنـده من خيل وسـلاح، وإلاّ قيدوه، ونفوه الى القسطنطينية . . !

فـرد عليهم السلطان الناصـر رداً أظهر فيـه الموافقـة، وطلب مهلة لتنفيذ الأوامر السلطانية.

ثم أرسل الى الأمراء من ولاة أقاليم الشام ومصر رسالـة قال فيها: «لما اشتد علي الضنـك من الأمراء، خـرجت من مصر، وتـركت لهم الملك، ورضيت من الـدنيـا بـأحقـر المســاكن، وأضيق الأمـاكـن، ليستـريح خـاطري من النكـد، فمـا تـراجعـوا عني، وأرسـل بيبـرس يهـددني بالنفي، ويـطلب مني مـا لا أقـدر عليـه. وأنتم تعلمـون مـا لوالدي الملك المنصور عليكم من العتق والتربية، وما أظنكم ترضون لي بهذه الحال».

فـأجابـوه بأنهم ممـاليك أبيـه، وهم طـوع أمـره ان أراد أن يستـرد الملك.

وخرج السلطان الناصر الى دمشق بأهله، ومماليكه، ومن انضم اليه من الأمراء، فهرع اليه نائبه على دمشق له يقدم الولاء والاعتذار عما سلف منه من بيعته للسلطان بيبرس. . . !

وعلم الناس أن السلطان قد تحرك في اتجاه القاهرة، وكلما مر بولاية، انضم اليه أميرها، فقام أهل القاهرة يسبون بيبرس، فنثر عليهم الذهب، ولكنهم لم يحفلوا به، ولم ينحن أحد لالتقاط قطعة ذهبية!

وجن جنون بيبرس، واتهم سلار بالتآمر عليه، فأمر بمهاجمة بيوت الفساد التي يملكها سلار، وانقض جنود بيبرس على هذه البيوت فنهبوا ما فيها، وضربوا نساءهم وغلمانها وقواديها، واستولوا على الخمور والحشيش. .

وانتهز بعض الناس الفرصة، فدلوا على بيوت خصومهم، زاعمين أنها من بيوت الفساد التي يؤجرها سلار، فهاجم رجاله كثيراً من البيوت فسرقوا، وانتهكوا الحرمات، مما ضاعف السخط على بيبرس.

وجاء النيل منخفضاً، فشحت الأقوات، وارتفع سعر القمح واللحم والخضر، وبالغ التجار الكبار من شركاء سلار في رفع الأسعار، وأهمل عمال النظافة شوارع القاهرة، فانتشرت الحشرات السامة، والفيران، وجاء وباء، فرفع التجار أسعار الدواء، وشاعت الرشوة، وخرج الناس يحملون اكفانهم، وتجمعوا أمام القصر السلطاني بقلعة الجبل، يطالبون بيبرس برد ما نهبه من بيت المال، وترك الملك للسلطان الناصر، الذي اقترن عهده بالرخاء والأمن. . !

ولاذ بيبرس بالخليفة، وحمل اليه مالاً كثيراً، وبعض الجواري الحسان والغلمان.

كان الخليفة قد شغل بملذاته، يقضي ليلة سكران مخدراً، مستمتعاً بما أغرقه فيه سلار وبيبرس من متاع. . !. . واقتحم بيبرس مخدع الخليفة في ذلك النهار فوجده نائماً، فأيقظه، فعقد الخليفة وهو نصف نائم مجلساً من القضاة الأربعة، ومن العلماء الذين قبلوا دعوته، والأمراء القلائل الذين اصطنعم بيبرس وأغرقهم بالأموال.

وطالبهم الخليفة أن يجددوا البيعة للسلطان بيبرس، فبايعوه، وأفتى القضاة الأربعة ومن حضر المجلس من العلماء، أن الناصر محمد بن قلاوون خرج على اجماع الأمة، وأثار فيها الفتنة، فيجب قتله شرعاً. وأصدر الخليفة بياناً إلى أمراء المسلمين وعسكرهم وعامتهم، أعلنهم فيه «ان طاعة السلطان بيبرس واجبة عليهم، لدينه، وبذلك أفتى القضاة الأربعة، فمن عصاه فقد عصاني، ومن عصاني فقد عصى أبا القاسم ابن عمي ﷺ. وبلغني أن الملك الناصر ابن الملك المنصور شق العصا على المسلمين، وفرق كلمتهم، وشتت شملهم، وأطمع عدوهم، وعرض البلاد الشامية والمصرية الى سبي الحريم والأولاد وسفك الدماء. . . وأنا خارج اليه ومحاربه، ان استمر على ذلك، لأدفع عن حريم المسلمين وأنفسهم وأولادهم هذا الامر العظيم، وأقاتله حتى يفيء الى أمر الله تعالى، وقد أوجبت يا معشر المسلمين الخروج تحت لوائي، وهو اللواء الشريف، وقد أجمع القضاة الأربعة والعلماء والفقهاء على وجوب دفعه وقتاله ان استمر على ذلك، وأنا مستصحب معي لذلك السلطان المظفر ركن الدين بيبرس، فجهزوا أرواحكم».

عاد الخليفة الى مخدعه ليكمل نومه، وخرج القضاة الأربعة ومن حضر معهم من العلماء والفقهاء، ليذيعوا هذا البيان من فوق منابر

المساجد، فلما وصلوا الى ذكر السلطان الناصر، دوت المساجد بالهتافات: «يا ناصر يا منصور. لا سلطان الا الناصر محمد بن قلاوون. الله يخون الخائن...» فأصدر بيبرس أمره بمنع قراءة بيان الخليفة، ومضى يجهز جيشاً يقوده الخليفة، للخروج الى السلطان الناصر، غير أن أمراء الجيش امتنعوا عليه، ورفضوا محاربة الناصر!!

واستدعى بيبرس نائبه سلار، ومن بقي على الولاء من أمراء المماليك، والقضاة الأربعة، فأشار سلار على بيبرس أن يتنحى عن الملك، ويرسل الى السلطان الناصر معتذراً، ملتمساً تعيينه في فنصب خارج مصر. ووافق الأمراء على اقتراح سلار، فأعلن بيبرس أنه يخلع نفسه عن الملك، وسيتولى الأمير سلار الملك، حتى يعود السسلطان الناصر محمد بن قلاوون.

وعاد السلطان الناصر الى القاهرة، فخرج أهلها جميعاً يعلنون الفرحة بمقدمه حتى النساء والأطفال، وجاء أهل القرى يشاركون في الفرحة بزوال الكابوس، وعودة السلطان، فبالغ أصحاب الحانات وبيوت الكراء في رفع الأسعار، وتقاضى أصحاب الحوانيت التي يمر بها الموكب السلطانبي، أجرة ممن يقفون أمام حوانيتهم للترحيب بالسلطان!!

أما بيبرس، فقد خرج بأهله ومماليكه من القاهرة، بعد ان استولى على ما استطاع من بيت المال، غير أن السلطان لم يكد يستقر في قصره، حتى أمر بالقبض على بيبرس، واسترداد كل ما نهبه من بيت المال. وأرسل الى القضاة الأربعة والفقهاء الذين تابعوا بيبرس

سلطانـا يستفتيهم في أمره، فـأفتوا بقتله هـو وسلار! فكـلاهمـا طغى وبغى في الأرض، وأكثر فيها الفساد. فوجب قتله شرعاً. . !

وجاء بيبرس في الأصفاد، فارتمى على قـدمي السلطان يقبلهما، ويتعـطفـه. فـأمـره السلطان بـأن ينهض، فـوقف مـرتعـداً، فـأمـره بالجلوس.

وأخذ السلطان يذكـره بما اقتـرفه في حق النـاس وحق السلطنة. . وصـار يعـدد لـه: «أتـذكـر يـوم صخت علي بسبب فـلان؟ ورددت شفـاعتي في حق فلان؟ ويـوم منعت عني بعض ما طلبتـه من المال؟ ويوم حرمتني السكر والحلوى واللوز؟».

فأجاب بيبرس: «يا مولاي. كل ما قلته فعلته، ولـم يبق الا مراحـم مولانا السلطان، وايش يقول المملوك لأستاذه؟».

فقـال النـاصـر: «أنا اليـوم أستاذك، وأمس كنت تقـول لي عنـدمـا طلبت أوزاً مشوياً: «ايش يعمل بالوز. هو الاكل عشرون مرة باليوم».

وأمر السلطان باعدامه خنقاً.

أما سلار، فقد التمس من السلطان أن يعينه أميراً على الشوبـك، فأجابه. .

وسافر الرجل، غير أن السلطان سمع عن تجارته الشائنة، وعما نهبه من بيت المال، فأرسل في أثره من يرده مقبوضاً عليه، ويصادر ثروتـه التي يحملها معه، فجاءوا بنحو خمسين جملاً محملة بالذهب والجواهر والدنانير، والأقمشة المحلاة بالأحجـار الكريمـة. وألقاه السلطان في السجن بـلا طعام أو شـراب. . حتى اذا عذبـه الجوع والعـطش بعـد أيام، أمر السلطان فقدموا اليه أواني ثلاثاً، فلما كشفها في لهفة ليأكل

ويشبرب، وجد في احداها ذهباً، وفي الثانية فضة، وفي الثالثة جواهر. . ! . . فهلك غماً، وجوعاً وعطشاً . .

وجاء الخليفة فلم يستقبله السلطان، وأبقاه في الانتظار طويلا، فلما دخل يهنىء السلطان، قبض يده، وقال: «كيف تسلم على خارجي؟ . . هل كنت خارجياً وبيبرس من سلالة العباس؟». وعنفه على فسقه وفجوره، ثم أصدر قراراً بخلعه وسجنه في جب القلعة، ثم نفاه الى مدينة قوص بأقصى الصعيد حيث ألقي في سجنها . . !

أما القضاة والعلماء الذين بايعوا بيبرس فقد جاءوه مهنئين، فلم يقبلل منهم التهنئة، وقال لشيخهم: «يا قاضي، أنت تفتي المسلمين بقتالي؟». فقال: «معاذ الله أن تكون الفتوى كذلك. ! انما الفتوى على قدر كلام المستفتي».

فصرفهم السلطان في غلظة، وأمرهم ان يلزموا قصورهم التي اقتنوها بمنح بيبرس وسلار على خلجان القاهرة وبحيراتها وحدائقها. . وقال لهم انهم اشتروا هذه القصور بمال حرام، فلا حق لهم فيها!

وقرر السلطان أن يقتلهم جميعاً، ولكنه انتظر فيهم رأى ابن تيمية، وكلهم من خصوم الشيخ، اتهموه بالكفر، وآذوه، وحرضوا بيبرس وسلار على قتله، وكانوا يغرون به السلطان الناصر نفسه من قبل. . !

* * *

توالت الدقات الحذرة، على باب الشيخ تقي الدين بن تيمية، قبل الفجر. . واذا بالقضاة الأربعة، ومعهم بعض العلماء يقفون متهالكين أمام باب الشيخ . . !

وأكرمهم الشيخ بما وسعه، وبادروه بالاعتذار، واعترفوا له أن تعصبهم عليه، حملهم على السعي في قتله، وأن ما نـاله من أذى، فهـو بما عملت أيديهم، وسألوه الصفح والعفو الجميل، والشفاعة لهم عنـد السلطان، فهو لو أخذهم بما عملوا، لوجد في الشرع ما يبيح له قتلهم، أو بالقليل سجنهم!.. ومصادرة ما يملكون!

وقال لى المنبجي: «وأنا والله لن أخـالفك أبـداً، وحتى رأيك في شيخنا ابن عربي أقسم بالله أن أسكت عنه، وأن أفكر فيه».

فقال الشيخ مبتسماً: «ابن عربي هـو أقرب أهـل الاتحاد والحلول الى الايمـان. فهون عليـك، ولك رأيـك، فلا تعـدل عنـه خـوفـاً أو طمعـاً. وأما أنتم جميعاً فاعلمـوا أصلحكم الله، أن كل من سعى في قتلي، أو آذاني فهو في حل من جهتي».

فكبروا، وقام بعضهم فقبل يده. ثم انصرفوا شاكرين..

* * *

لم يكـد الشيخ يقصـد الى السلطان في قاعـة عرشـه، حتى هب لاستقباله، فتلقاه بالعناق على مدخـل القاعـة، وقبل يـده. ولم يفلح الشيخ في سحب يده، فقد أصر السلطان على تقبيلها قائـلاً: «أنا لم أقبل يد أحد الا ابن دقيق العيد رحمه الله، ويدك يا شيخ الاسلام أمد الله في عمرك، ونفعنا بدعائك ونصحك!.. لمن من العلمـاء ينحني الملوك ان لم يكن لأمثـاله وأمثـالك. أتعـرف يا شيـخ. جاءني أحـد العلمـاء فحاول أن يقبـل الأرض بين قدمي فصحت فيـه: «ليس هـذا للعلمـاء: أهل العلم منـزهون عن هـذا.. انمـا ينحني لكم الملوك، فما نهض حتى ركلته بعيداً».

فقال الشيخ: «أصلح الله أحوال الراعي والرعية.. العلماء ورثة الأنبياء، كما جاء في الحديث الصحيح».

قال السلطان: «قل لي يا مولانا شيخ الاسلام. لقد صح عندي أن الشرع يحتم علي قتل هؤلاء القضاة والعلماء الذين جددوا البيعة لبيبرس الفاسق المفسد زوزعموا أنهم يجددون بيعته لصلاحه ودينه، وأفتوا بأني خارجي يجب قتله، ولقد هممت بأن اصدر الحكم عليهم، وأعادة أملاكهم وقصورهم الى بيت المال. فقد ملكوها من الأموال التي اغدقها عليهم بيبرس وسلار، وهي أموال منهوبة من مال الله الذي استخلفنا فيه لاصلاح أمور الرعية.. ولكني انتظرت، وأمرنهم بالتزام دورهم وقصورهم. حتى يطمئن قلبي بما تفتي به، ولكن فكر قبل أن تصدر فتواك، في أمر ما يملك هؤلاء الشيوخ من اماء، فقد سمعت أن بعضهن حوامل، فما حكم الشرع فيهن؟!»

فقال ابن تيمية: «أصلح الله السلطان، وأصلح به احوال الرعية، قد والله أحسنت أن سكت عليهم، في انتظار مقدمي وفتواي فيهم. فالفتوى، أنه لا يحل قتلهم فعساهم كانوا مكرهين في تجديد بيعة بيبرس، وفي افتائهم بمحاربتك. وخوف الحاكم الباطش الفاسد، باب من أبواب الاكراه. ولا مسئولية على المكره. والعفو عنهم أحرى بك. والله غفور رحيم».

فقال السلطان: «أأنت تفتي بهذا؟. كيف؟ أنهم قد آذوك وأرادوا قتلك مرارا؟» قال ابن تيمية: «من آذاني فهو في حل مني، ومن آذى الله ورسوله، فالله ينتقم منه، وأنا لا أنتصر لنفسي».

فقال السلطان: «أما أنا فأنتصر لنفسي ولحقوق الناس. ماذا لو أطاع

الجند فتواهم، وخرجوا لقتالي. ما كانت فتواهم خوفاً، بل كانت طمعاً».

فقال الشيخ: «مهما يكن من أمرهم، فالعفو من مثلك أحرى، انك ان قتلتهم، فلن تجد بعدهم مثلهم».

وما زال الشيخ بالسلطان يحاوره، حتى لقد كاد يستعطفه في العفو عن هؤلاء القضاة والعلماء..

وأخيراً قال السلطان: «والله يا شيخ الاسلام اني لأعرف انهم جميعاً يستحقون الشنق على أبواب القاهرة، ولكني أعفو عنهم ارضاء لك، واستجابة لشفاعتك، واكراماً لخاطرك. على أن لي شرطاً: أن تقيم عندنا في القاهرة، تعلم في المدارس والجوامع، وتكون الى جواري فتعظني. هداني الله بك».

وافق الشيخ. وخرج يحمل بشرى العفو للقضاة والعلماء. وحرص السلطان على أن يذيع في الناس، أنه عفا عنهم، اجابة لفتوى ابن تيمية وشفاء..

مضى هذا النفر من خصوم الشيخ يلهجون بذكره، ويثنون عليه، وفي مقدمتهم القاضي ابن مخلوف. . قالوا: «ما رأينا مثل ابن تيمية، حرضنا على قتله، وسعينا في دمه، فلم نقدر، وقدر علينا فصفح ودافع وحاج عنا».

***

انصرف ابن تيمية الى التدريس، والاجابة على من يستنفتونه، وأرسل اليه دمشق يطلب كراريس كتبها، ليتم الكتابة في مصر.

ووجد في مكتبات القاهرة كل ما يحتاج اليه من مراجع.

كان قليل الذهاب الى السلطان، ولكن السلطان كان يدعوه اليه، اذا غاب عنه أياماً. وكان ينصح للسلطان، فيستجيب.

وتحدث الشيخ الى السلطان في كثير مما ينكره: فالنساء يذهبن الى العرافين لاستطلاع الغيب، وكتابة الأحجبة استبقاء لحب الأزواج، وليرزقن بالاولاد. وكان هؤلاء العرافون يستولون على أموال كثيرة من زائراتهم، ومنهم من كان يفسق بمن تطاوعه.. وقد اشتهر أمر عرافة ألفت أن تغلق الباب اذا قصدتها امرأة جميلة، فلما ماتت هذه العرافة، اكتشفوا انها كانت رجلاً!.

والنساء يذهبن الى الكتاب، لكتابة الشكاوى والمظالم، وهناك يلتقون بالرجال، ويتربص بهن بعض الغزلين من الشباب، مما ينشأ عنه فساد عريض!.

والنساء يخرجن الى الأسواق متبرجات، ويبالغن في زينتهن، مما يغري الرجال بالتعرض لهن!.. ثم انهن في ليالي الأعياد يبتن في القبور!.

وأصدر السلطان أوامره بمطاردة العرافين وتعزيرهم، وكبس بيوتهم، وتعزيز أولياء من يكون بها من النساء: آباء كانوا أم أزواجاً!.

وشهدت القاهرة رجالاً يجلدون ويسجنون، ويطاف بهم مقلوبين على الحمير، لأن نساءهم يزرن العرافين!

ومنع السلطان تردد النساء على الكتاب وخروجهن الى الشوارع بغير محرم، وخروجهن متبرجات أو متزينات، وأن يبتن في القبور.

وهكذا قضى السلطان على كل ما أنكره الشيخ من ذرائع الفساد.

وتكلم الشيخ الى السلطان في أمر الرشوة التي يقبلها بعض الحكام لقضاء حاجات الناس، ويدخل في هذه الرشوة قبول الهدايا من الحكام والوسطاء، فجلها حرام، وكلها ينطبق عليه قول الرسول ﷺ: «الراشي والمرتشي كلاهما في النار» وقد قال رسول الله ﷺ: «هدايا الأمراء غلول» أي خيانة.

أمر السلطان البصاصين والعيون، أن يراقبوا كل من ولي أمرا من أمور الدولة، فإن وجدوا فيهم من يرتشي أو يقبل الهدايا، أو وجدوا وسيطا مرتشيا، قبضوا عليه، وأمر السلطان بتعزيره بالجلد والسجن، وبأن يوضع مقلوباً على ظهر حمار، ويطاف به في الطرقات والأسواق، وينادي عليه المنادون! أما محاباة الولاة في المعاملة من بيع وايجار ومزارعة ونحو ذلك، مما لا يجوز للولاة الحصول عليه، فما حصلوا عليه الا بسبب مناصبهم، فقد، نصح الشيخ للسلطان أن يمنعها، ويعاقب عليها، وأن يسترد ما حصله الولاة من منافع، ويردها الى اصحابها، فان تعذر ذلك حاسب الولاة على ما امتلكوه كل عام، وأخذ منهم نصف ما كسبوه، وضمه الى بيت المال للانفاق على المصالح العامة.

وقال الشيخ للسلطان: «شاطر عمر من عماله من كان له فضل دين، ولا متهم بخيانة، وانما شاطرهم لما خصصوا به لأجل الولاية من محاباة وغيرها. وكان الأمر يقتضي ذلك، لأنه كان امام عدل يقسم بالسوية».

وليس لولاة الأموال أن يقسموها حسب أهوائهم، فانما هم وكلاء في هذا المال ليسوا ملاكا له. قال ﷺ: (اني والله لا يعطي أحداً ولا أمنع أحداً، وانما أنا قاسم أضع حيث أمرت). وقيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: (يا أمير المؤمنين، لو وسعت على نفسك في النفقة من مال الله تعالى) فقال: (انما مثلي ومثل هؤلاء كمثل قوم كانوا في سفر، فجموعوا مالا وسلموه الى واحد منهم لينفقه عليهم، فهل يحل لذلك الرجل أن يستأثر عنهم بشيء من المال!؟). وحمل اليه رضي الله عنه مرة مال عظيم فقال: (ان قوماً أدوا الأمانة في هذا لأمناء)، فقال أحد الصحابة: (انك أديت الأمانة الى الله تعالى فأدوا اليك الأمانة، ولو رتعت رتعوا)».

واستشاره السلطان في تعيين رجال للمناصب الكبرى، فقد عزل جميع من والوا بيبرس، فأشار عليه الشيخ. واقترح أسماء نواب السلطان في الولايات، وأسماء امراء المدن، وأمراء الجند، والوعاظ وغيرهم، على اسس تولية الأصلح، فالأصلح، والبعد عن الهوى والمحاباة.

وأخذ السلطان بكل ما اقترحه الشيخ. فقال الشيخ وهو يعظ السلطان: «المقصود بالولايات اصلاح دين الخلق الذي اذا فاتهم خسروا خسرانا مبينا، ولم ينفعهم ما نعموا به في الدنيا، واصلاح ما لا يقوم الدين الا به من أمر دنياهم. وهو نوعان: قسم المال بين مستحقيه، وعقوبات المعتدين، فمن لم يعتد أصلح الله له دينه ودنياه. ويجب أن يولي الأصلح. قال ﷺ: (من قلد رجلا عملا على عصابة

(أي جماعة) وهو يجد في تلك العصابة من هو ارضى منه، فقد خان الله وخان رسوله وخان المؤمنين). . والولاية تشمل كل من يلي شيئاً من أمور الدولة من نواب السلطان والقضاة ومن أفراد الأجناد ومقدمي العساكر وولاة الأموال والوزراء. . الى ائمة الصلاة والمؤذنين والمقرئين والمعلمين، وعمال البريد. . والعدول عن الأصلح لغيره لأجل قرابة بينهما او صداقة أو موافقة في مذهب أو بلد أو طريقة أو جنس كالعربية والفارسية والتركية والرومية، أو لرشوة يأخذها منه من مال أو منفعة، أو غير ذلك من الأسباب، أو لضغن في قلبه على الأحق او عداوة بينهما، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين. ودخل فيها نهي عنه في قوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا، لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون﴾** . . . والولاية لها ركنان: القوة والأمانة، قال صاحب مصر ليوسف عليه السلام: **﴿انك اليوم لدينا مكين أمين﴾**. قال تعالى في صفة جبريل: **﴿انه لقول رسول كريم. ذي قوة عند ذي العرش مكين. مطاع ثم امين﴾**.

والقوة في كل ولاية بحسبها: فالقوة في امارة الحرب ترجع الى شجاعة القلب، والى الخبرة بالحروب والمخادعة فيها، فان الحرب خدعة.

والقوة في الحكم بين الناس ترجع الى العلم بالعدل الذي دل عليه الكتاب والسنة، والى القدرة على تنفيذ الأحكام.

والأمانة ترجع الى خشية الله، وألا يشتري بآياته ثمنا قليلا، وترك خشية الناس. وهذه الخصال الثلاث التي اتخذها الله لكل من حكم

الناس في قوله تعالى: ﴿فلا تخشوا الناس واخشون، ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلا، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ ولهذا قال النبي ﷺ: (القضاة ثلاثة: قاضيان في النار، وقاض في الجنة. فرجل علم الحق وقضى بخلافه فهو في النار، ورجل قضى بين الناس على جهل فهو في النار، ورجل علم الحق وقضى به فهو في الجنة) والقاضي اسم لكل من يقضي بين اثنين أو حكم بينهما، سواء سمي خليفة، أو سلطاناً، أو نائباً أو والياً، أو كان منصوباً ليقضي بالشرع، أو نائباً له، أو حتى من يحكم بين الصبيان في الخطوط.. هكذا ذكر اصحاب رسول الله ﷺ وهو ظاهر.

واجتماع القوة والأمانة في الناس قليل، ولهذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: (اللهم اليك أشكو جلد الفاجر، وعجز الثقة). فالواجب في كل ولاية، الأصلح بجنسها، فاذا تعين رجلان أحدهما أعظم أمانة، والآخر أعظم قوة، فيقدم في امارة الحروب الرجل القوي الشجاع، وان كان فيه فجور، على الرجل الضعيف العاجز، وان كان أميناً. كما سئل الامام أحمد عن الرجلين يكونان أميرين في الغزو، واحدهما قوي فاجر، وأحدهما صالح ضعيف، مع أيهما يغزي؟ فقال: (أما الفاجر القوي فقوته للمسلمين وفجوره على نفسه، وأما الصالح الضعيف، فصلاحه لنفسه، وضعفه على المسلمين. يغزي مع القوي الفاجر).

ولهذا كان النبي ﷺ يستعمل خالد بن الوليد على الحرب منذ أسلم وقال: (ان خالداً سيف سله الله على المشركين). مع أنه قد

كـان يعمل مـا ينكره النبي ﷺ، حتى أنـه مرة رفـع يديـه الى السمـاء وقـال: (اللهم اني أبـرأ اليـك ممـا فعـل خـالـد). لمـا أرسله الى بني خذيمة فقتلهم، وأخذ أموالهم بنوع شبهة، وأنكره عليه بعض الصحـابة، حتى وداهم النبي ﷺ وضـمن أمـوالـهم (أي دفـع لـهم الـديـات والتعويضات) ومع هذا فمـا زال يقدمـه في امارة الحـرب، لأنه كـان أصلح في هذا الباب من غيره، وفعل ما فعله بنوع تأويل..

وكان أبو ذر رضي الله عنه، أصلح منه في الأمـانة والصـدق. ومع هذا قال النبي ﷺ: (يا أبا ذر، اني أراك ضعيفاً، واني أحب لك مـا أحب لنفسي، لا تأمرن على اثنين، ولا تولين مال يتيم). فنهى أبا ذر عن الامارة والولايـة، لأنه رآه ضعيفـاً. مع أنـه قد روي في الحـديث الشريف: (ما أظلت الخضراء، ولا أقلت الغبـراء، أصدق لهجـة من أبي ذر).

وهكـذا أبو بكـر خليفة الـرسول ﷺ، مـازال يستعمل خـالـداً في حرب أهل الردة، وفي فتوح العراق والشام، وبـدت منه هفـوات كان له فيها تأويل، وقد ذكر عنه أنه كان له فيها هوى فلم يعزله من أجلها، بل عنفه عليها لرجحان المصلحة على المفسـدة في بقائـه، وأن غيره لم يكن يقوم مقامه.

فان كانت الحاجة في الولاية الى الأمانة أشـد، قدم الأمين، مثـل حفظ الأموال ونحوها، فاذا لم تتم المصلحة بواحد، عين فيها عدد.

ويقدم في ولاية القضـاء الأعلم الأورع الاكفأ، فـاذا كان أحـدهما أعلمك والآخر أورع، قدم فيما قد يظهر حكمه ويخاف فيه الهـوى: الأورع وفيما يدق حكمه ويخاف فيه الاشتباه: الأعلم. ففي الحديث

عن النبي ﷺ، أنـه قـال: (ان الله يحب البصـر النـافـذ عنـد ورود الشبهات، ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات).

ويقدمان على الأكفأ، ان كان القاضي مؤيداً تأييداً تاماً من جهة ولي الحرب، أو العامة.

ويقدم الأكفأ، انْ كان القضـاء يحتاج الى قـوة، أكثر من حـاجته الى العلم والـورع. فان القـاضي المطلق يحتـاج أن يكـون عـالمـاً عـادلاً قادراً. بـل وكذلـك كـل وال للمسلمين. فـأي صفـة من هـذه الصفات نقصت، ظهر الخلل.

والمهم في هـذا الباب معـرفة الأصلح. وذلـك انمـا يتم بمعـرفـة مقصود الولاية. فاذا عرفت المقاصـد والوسـائل تم الأمـر، فلهذا لمـا غلب على أكثر الملوك قصد الـدنيا دون الـدين، قدمـوا في ولايتهم من يعينهم على تلك المقاصد، وكان من يطلب ريـاسة لنفسـه، يؤثر تقـديم من يقيم ريـاستـه، وقـد كـانت السنـة أن من يصلي بالمسلمين الجمعة والجماعة ويخطب فيهم، هم أمـراء الحرب الـذين هم نواب ذي السلطان على الجنـد. ولهـذا لمـا قـدم النبي ﷺ أبـا بكـر في الصلاة، قدمه المسلمون في امارة الحرب وغيرها.

على هـدى هذه المبـادىء التي بدأ الشيخ يصـوغهـا في كتـابـة (السياية الشرعية في اصـلاح الراعي والـرعية) سـار السلطان. فأعـاد ترتيب الدولة، وتوزيع المناصب، منتصحاً بكل ما قاله الشيخ.

* * *

استمـرت حياة الشيـخ في القاهـرة هادئـة منتجة: فهـو يذهب الى

مدرسته التي يعلم بهـا كل صبـاح، ثم يغشى المساجـد يعظ ويفتي، ويتلقى السلطان في بيته الطلاب والكبراء، والصالحين من العلمـاء، ويذهب الى السلطان ان دعاه.

ونصـح الشيخ للسلطان بـأن يقضي على الاحتكـار، فهـو أثـر من عهد سلار وبيبرس، والمحتكر ملعون بنص الحديث الشريف. وأفتاه بأن يسعر البضائع، وأن يصادر ما يخفيـه التجار منهـا، ويطرحـه على الناس بسعر يتيسر لهم.

وأخـذ السلطان بفتواه، فـامتلأت الأسـواق بالبضـائـع، وانخفض سعـرها، وتيسـرت الأمور، فلهجت الألسنـة بالثناء على الشيخ، وزاد حب العـامـة لـه، والتفـوا حـولـه، وان غضب عليـه كبـار التجـار، والمحتكرون!

وزاد حسـد منافسيـه وخصومـه، ونسوا انـه أنقذ رقـابهم من حكم السلطان.

وانتهزوا الفرصة عندما سئل عن أفعال الصوفية، فأنكر على بعض الصوفية ادعاءهم معرفة الغيب أو الكرامـات، وسمـى هذا كله دجـلا وشعوذة! فحرض خصومه عليه أتباع الصوفية وأشياعها، فتـربصوا لـه في الجامع وهو يتعبد بعد صلاة الظهر، وقد خلا المسجد.. فانقضوا عليه، فضربوه..

وتجمع العمامة من خارج المسجـد واندفعـوا الى الشيخ، فكفـوا عنه أذى ضاربيه.

شاع الخبر، فاجتمع خلق كثيـر من الحسينية، وجـاءوا بالهـروات

وقضبان الحديد، ليؤدبوا الذين اعتدوا على الشيخ . .

ولكن الشيخ ردهم، فلما وجد اصرارهم قال لهم: « اما أن يكون الحق لي أو لكم أو لله. فان كان الحق لي فهم في حل منه، وان كان لكم، فان لم تسمعوا مني ، ولم تستفتوني فافعلوا ما شئتم، وان كان الحق لله ، فالله يأخذ حقه ان شاء».

وهدأ الناس، مكبرين في الشيخ صفحه الجميل عمن آذوه! . . واذن لصلاة العصر، فحاولوا ان يقنعوا الشيخ بالصلاة في مسجد آخر، ولكنه أسرع الى المسجد الذي ضرب فيه، فأسرعوا خلفه واقاموا من أنفسهم حرساً عليه ، وألفوا بعدذلك أن يصحبوه لحراسته حيثما راح أو جاء. .

وجاءه من يصف له استبداد والي دمشق، فقد ارهق الناس بالمظالم، وفرض عليهم أموالاً كثيرة، وانتزعها منهم انتزاعاً، وسامهم سوء العذاب، فلما طالبه نفر من علماء دمشق بالعدل، أهانهم وضربهم. . فأسرع الشيخ الى السلطان بشكوى أهل دمشق، فعزل السلطان الوالي وحبسه. . واضطرم حسد بعض خصوم الشيخ من الفقهاء: أن أصبح مكينا عند السلطان، حتى ليعزل واليا من أنصاره بلا تحقيق، مصدقاً فيه مقالة الشيخ . . !. . ما عسى أن يصنع بهم السلطان اذن لو شكاهم هذا الشيخ . . ؟!. . ما من سبيل الى افساد مابين السلطان أو الشيخ . . . فليحاولوا اسقاط هيبته اذن عند العامة، فتضعف مكانته عند السلطان. . !

وجلس الشيخ يوماً يفتي الناس عن حلقات الذكر التي يقيمها

الصوفية فقال: «ليس كل الصوفية سواء، ولكنهم ثلاث طبقات متباينة، حتى في ذكر الله، أولاها صوفية الحقائق، وهم الذين اتخذوا الكتاب والسنة طريقا الى التصوف، واتخذوا التصوف طريقة في حب الله وطاعته هو ورسوله.. ثم صوفية الأرزاق.. أما الطبقة الثالثة من الصوفية فهم صوفية الرسوم، وهم المقتصرون على التشبه بصوفية الحقائق في اللباس والآداب الوضيعة، فهم بمنزلة الذي يقتصر على زي أهل العلم..!

وصوفية الحقائق يذكرون الله بالطريقة الشرعية، بالتأمل والخشوع والتدبر.

أما صوفية الأرزاق الذين يتركون العمل النافع وينقطعون للعبادة، وهؤلاء تجري عليهم الأرزاق، فهم كصوفية الرسوم الذين يقلدون آداب صوفية الحقائق، فكلاهماصاحب حلقات لذكر الله.. وهي حلقات رقص صوفي لا ذكر شرعي، فهي بدعة لا علاقة لها بالذكر الشرعي. فمن رقص معهم في حلقات الذكر مبتدع مثلهم؟؟

وارتفع صوت غاضب: «قولك هذا غلط!! لا صوفية حقائق! فكل الصوفية سواء وهم مبتدعون خارجون عن السنة. والقول بغير ذلك ضلال».

ونظر الشيخ الى المتكلم، فإذا هو فقيه من خصومه، فلم يرد عليه، وانشغل الشيخ بالرد على سؤال وجهه أحد الحاضرين، عن الحكم في تقبيل العامة قطعة حجر، يقال ان عليها أثر قدم رسول الله ﷺ.

قال الشيخ : «ليس القدم الذي بالصخور المشهورة عند العامة، قدم رسول الله، ولا قدم أحد من الأنبياء ولا يضاف الى الشريعة جواز تقبيله، ولا التمسح به، فلا شيء في الأرض يقبل ويتمسح به، سوى الحجر الأسود والركنين اليمانيين بالبيت العتيق، وتنازعوا في جواز التمسح بمنبره ﷺ».

فقام الفقيه، فخطأ الشيخ، واتهمه بالتجاسر على مقام رسول الله ﷺ، وسب الشيخ سباً حاداً غليظاً منكراً. . !

وحاول بعض الحاضرين، أن يضربوا الفقيه، ولكن الشيخ وقف بينهم وبينه بجسمه الملىء المتين، وحال دون ذلك، وأمرهم بالجلوس.

فأخذ الفقيه يعتذر عما بدر منه، ويسأل الشيخ أن يعفو عنه.

فقال الشيخ : «عفا الله عنك. لقد قلت في ما قلت، ولكني لا أنتصر لنفسي».

* * *

استدعاه السلطان.

وفي مجلس السلطان وجد عدداً من أهل العلوم الدنيوية، فيهم المهندس الذي يخطط المساجد والعمائر، وطبيب السلطان.

وطلب السلطان من الشيخ أن يكف عن الحديث في أمر الصوفية فحديثه يثير خلافات، قد تؤدي الى الفتنة، وللصوفية جميعاً كرامات: سواء الذين يسميهم صوفية الأرزاق أم الذين يسميهم صوفية الرسوم، ففيهم قوم من أولياء الله الصالحين، الذين قال فيهم

الله تعلى : ﴿الا أن أوليـاء الله لا خوف عليهم ولا هم يحـزنون﴾ .
ان في المتصوفة رجالاً من آل البيت، وقد أمرنا باكرامهم وتعظيهم.

فقـال الشيخ : «أعـرف أن المتصوفـة فيهم البر والفـاجـر، والتقى والمـذنب. ولا يجمل بـالمسئولين عن الأمـر بـالمعـروف والنهي عن المنكـر، أن يسكتوا عن الفجـرة منهم والمذنبين، أو عن المخـالفين للشرع كالذين يزعمون أن لهم وجدا أو مكـاشفة أو مخـاطبة تخـالف القرآن والحديث، أو الـذين يزعمـون أن القطب الصـوفي يأخـذ من حيث يأخذ الملك الذي يأتي الرسول، وإنـه يأخـذ من ذلك المعـدن علم التـوحيـد، والأنبيـاء كلهم يأخـذون من مشكاتـه، أو من يقـول منهم ان الـولي أفضل من النبي، وغيـر ذلك من مقــالات المتفلسفة لعنهم الله. . !! ومـا أظن أن الله يغفل عن المـأمون لأنـه أمر بتـرجمة الفلسفة، فأفسد العقل العربي الاسلامي وقد صدق ابن الصلاح حين وصف المتفلسف ابن سينا بقوله : (شيطان من شياطين الانس).

أما آل البيت فان لهم من الحقوق ما يجب رعايتها، فـان الله جعل لهم حقـاً في الخمس والفيء، وأمر بـالصلاة عليهم مـع الصلاة على رســول الله ﷺ، فقـال لنـا قـولـوا : (اللهم صـل عــلى محمــد وعــلى آل محمـد كما صليت على آل ابراهيم، وبارك على محمد وعلى آل مـحـمـد كـمــا باركت على آل ابراهيم . انـك حميد مجيـد). وقد قـال الله تعالى : ﴿انمـا يريـد الله ليـذهب عنكم الـرجس أهـل البيت ويطهركم تطهير﴾ فإن وجد بين اقـطاب الصوفيـة قوم من أهـل البيت فهم صوفية الحقائق.

أما كرامات الأولياء، فما ينكرها مؤمن. . ومن أصول أهل السنة التصديق بكرامات الألياء، وما يجري الله على ايديهم من خوارق العادات في العلوم، والمكاشفات، وأنواع القدرة، والتأثيرات. . كالمأثور في سورة الكهف وغيرها، وعن صدر هذه الأمة من الصحابة، والتابعين، وسائر فرق الأمة. وهي موجودة فيها الى يوم القيامة. . والطريق الى الولاية هي اتباع الكتاب والسنة، وأن يتقرب العبد الصالح المؤمن الى الله تعالى بالنوافل، فيكافئه بالافاضة عليه من قدرته، غير أن التظاهر بالولاية قبيح، واعلان الكرامات أقبح، ورب رجل يخفي تقربه الى الله تعالى خير ممن يعلنون».

فقال »أحد الحاضرين وهو طبيب السلطان: «أراك تحمل على الشيخ ابن سينا لتعاطيه الفلسفة، وما أنجزه ابن سينا في العلوم الدنيوية عظيم، ونحن لم نحسن الافادة منه لأن بعض المشايخ، حرموا قراءة ابن سينا، . وهم في أوروبا يدرسونه ويستفيدون مما وصل اليه في الطب وغيره، ولهذا يتقدمون، ونتوقف نحن أو نتأخر. . !!»

وقال شيخ المهندسين: « لقد كان الامام جعفر الصادق يشجع العلوم الدنيوية، وهو الذي أنشأ معملا لتلميذه جابر بن حيان ليعالج فيه علم الكيمياء، فوصل الى نتائج لا نكاد نفيد منها، لأننا حرمنا الاشتغال بالكيمياء، منذ رأينا بعض المشتغلين بها، يتعاطون السحر».

فـرد الشيخ : « كـان الامام جعفـر الصادق رضي الله عنـه، يشجع العلوم الـدنيـويـة التي تفيـد، والفلسفـة ليست من تلك العلوم، فهي تسلط على الدين، وتشجع على الزيغ والضلال. . »

فقال طبيب السلطان: «تذكر يا شيخ الاسلام ان الامـام الليث بـن سعـد الـذي نشأ على هـذه الأرض المصـرية، قـد أفـاد الفقـه الاسـلامي، بما نقله اليـه العربـة من آثار الفكـر المصـري القـديم. فليست كل مباحث الفلسفة ضلالا، فمنها المنطق الذي يساعـد على حسن الاستدلال، ودقة استنباط الحكم».

فقال الشيخ: «لعن الله المنـطق والمناطقـة وأرسطو الـوثني واضع المنـطق! كان الفقهـاء يستدلـون ويستنبطون، ويقيمـون البراهين من الكتاب والسنة، قبـل المنطق. فلمـا أمر المـأمون بتـرجمته، فتن بـه بعض أهـل العلم، فاشتـطوا وأكثروا الافتـراضات، واستـدلوا على الشـريعة بمـا هو غـريب عنهـا، فـزاغت العقـول، وضلت الأفهـام، وشاعت الآراء الملحدة. . ان أخطاء الفلاسفة في الإلهيات تنشأ عن الخطأ في المنطق، حتى أصبح أكثر الفلاسفة المسلمين بـرزخا بين الوثنية اليونانية، والاسلام، فلا هم كفار ولا هم مسلمون!».

فقـال الـطبيب: «ألا تـرى ان الامـام المصـري العـظيم الليث بن سعد، قد أفاد الفقه الاسلامي؟ أخذ الشافعي حين جـاءمصر بمذهب الليث في الفقه، وأخذ آخرون عنه تفسيره للقرآن. . فنحن المصريين أغنينا الفقه، وحافظنا على الدين، بحسن الافادة من تراثنـا المصري القديم، وهوتراث غير اسلامي، بل مصري قح!»

قال ابن تيمية: «ما بالـك تلح في قولـك مصر والمصـريين والفكر

المصري. . أنا لا أعرف هذا التحيز لجنس أو أرض. . لا تقل الا العرب. ولا ينبغي أن يدعو مسلم لغير وحدة العرب، والعرب هم من كان لسانهم باللغة العربية ومن كانوا من أولاد العرب، ومن كانت مساكنهم بأرض العرب! ولا يقابل العرب الا العجم. فهل أنتم عجم أم عرب؟ لقد سكن العرب بلاداً كانت من قبلهم مساكن فارس، والروم، والبربر، وقد استعربت كل هذه البلاد بعد الاسلام، الا من احتفظ بلغته الأعجمية وهذا قبيح منهم، ويجب عليهم أن يعربوا لسانهم. وقد قال الرسول ﷺ: (اذا ذلت العرب ذل الاسلام).

وقال رسول الله ﷺ: (أيها الناس، ان الرب واحد، والأب واحد، والدين دين واحد، وان العربية ليست لأحدكم بأب ولا أم. انما هي لسان، فمن تكلم العربية فهو عربي). وقد قال أبو يوسف صاحب الامام أبي حنيفة: (لا تؤخذ الجزية من العربي كتابياً كان أو وثنياً، وتؤخذ الجزية من العجمي كتابياً كان أو وثنياً).

والمسلم الذي يبغض العرب مرتد عند بعض الفقهاء. وقد روى الامام أحمد أن امرأة من بيت رسول الله ﷺ، أخبرته أنها سمعت من يقول: (ان أحمد مثل الريحانة في وسط النتن). فخرج صلوات الله عليه، يعرف الغضب على وجهه، ثم صعد المنبر فقال: (من أنا؟) فقالوا: (أنت رسول الله) فقال: (أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب. ان الله خلق الخلق، فاختار بني آدم. و اختار من بني آدم العرب، فأنا خيار من خيار، فمن أحب العرب فبحبي أحبهم، ومن أبغض العرب، فببغضي أبغضهم).

على أن العرب يجب أن يكونوا خيار الناس حقاً وصدقاً، ويجب

عليهم أن يتمسكــوا بمكــارم الأخــلاق التي جاء الـرسول ليكملهــا، وليكونوا خير أمة. ففي الحديث: أحسنكـم أحسنكم أخلاقاً!

فليحـذروا أن يكونـوا من أهل السنيـن المضـطربة التي جــاء فيهــا الحديث الشريف: «ان بين يدي الساعة، سنين خداعة، يصدق فيها الكاذب، ويكذب فيهــا الصادق، ويؤتمن فيهــا الخائن، ويخـون فيها الأمين، ويتكلم فيها الرويبضة. قيل: (يا رسول الله وما الرويبضــة)؟ قال: (الفاسق) في رواية، وقال (المرء التافه). في رواية أخرى».

* * *

ظـل الشيخ في القــاهرة، لا يكف عن المحــاورات كلمــا سنحت الفـرصــة، مستمـراً في القــاء الــدروس، والفتــاوى. . يجتهــد في المذهب الحنبلي، ويخرج عنـه أحيانــاً ليأخـذه بغيره. والعام يمضي بعد العام، وهو مشـدود القلب الى أمه في دمشق، ولكنه لا يستـطيع أن يبرح القاهرة، فالسلطان يبقيه، والذين أحبوه لا يتركونه. . !

وجــاءت الى السلطان أخبــار عن زحف التتــار، فـأعلن الجهــاد، وخـطب الشيخ في المســاجـد يستنفـر النــاس. وخـرج مـع السلطان لملاقاة التتــار. .

وقبل أن يبلغوا بيت المقدس، جاءت الأخبار، أن التتار عدلوا عن الزحف، لما علموا أن السلطان خرج لقتالهم. . فعاد السلطان بعسكره الى القاهرة، أما الشيخ تقي الدين بن تيمية، فقد استأذن السلطان أن يعود الى دمشق، فأذن له.

أقام الشيخ أيــاماً في بيت المقـدس، حاور فيهــا العلماء، وأفتى، ودرس. .

ثم اتجه الى دمشق.

وخرجت دمشق كلها لاستقباله، حتى النساء والأطفال!.

واغرورقت عيناه، وهو يرى حفاوة أهل دمشق به..

وعندما أفضى الى داره، شكر الناس، واستقبلته أمه أحر استقبال، وفاضت من عينيها الدموع.

وامتو داره لعة أيام بالمهنئين بعودته.. واستدعاه نائب السلطان، فوجد الشيخ رجالا يقبلون الأرض بين يدي نائب السلطان، فنهاهم عن هذا: حرام على المسلم أن يسجد لغير الله، أو أن يحني ظهره أو رأسه لأحد، أو أن يقبل يد أحد، فهذه أمور نهى عنها رسول الله ﷺ، فيجب ابطالها، وبصفة خاصة، اعتياد بعض الناس تقبيل أيدي العلماء والصالحين!.. لكم عاتي الشيخ نفسه من هذه العادة في مصر!!

ما كان احد يقبل يد سيد الخلق أجمعين: محمد رسول الله، او ينحني له، فقد نهى عن كل ذلك....

* * *

وعين الشيخ ابن تيمية، على المدرسة الحنبلية، وعاد الى اللقاء الدروس في الجامع الأموى.

وفكر الشيخ في كل ما فات من عمره، وما يجب عليه أن ينهض به الآن: لقد عاش في مصر سبع سنوات من سنة ٧٠٥ هـ. الى سنة ٧١٢ هـ.، لم تكن كلها سنوات عجافاً، ولا هن بسبع سنوات سمان!..

لقد جاوز الخمسين الآن، وأصبح عليه أن يشغل بالكتابة أكثر مما انشغل بها في الماضي، فقد ضاق الزمان . .

وابتسم وهو يتذكر حكاية الرجل الصالح الذي سمع فاسقاً يتغنى :

اذا العشــرون من شعبــان ولت فـواصـل شــرب ليلك بـالنهــار
ولا تـشــرب بـأقـداح صـغــار فقـد ضـاق الـزمـان عن الصغـار

فقـال الرجـل الصالـح لنفسه : «حقـاً . . لقد ضـاق الـزومـان عن الصغار» . . واعتكف يواصل الليل بالنهار في التعبد!

رأى الشيـخ انه اهتم في حيـاته المـاضيـة بأمور الاعتقـاد وفـروع الفقـه، والمجادلات العنيفـة مـع خصـوم تبـادلـوا فيهـا الاتهـامـات والاهانات. ولقد ضـاق الـزمان عن الصغـار! فيجب أن توصـل كدح ليلك بالنهار، منشغلا بالكبار من مسائل الفقه وأصوله يا تقي الدين!!

كتب أكثر مؤلفاته العديدة في هذه المرحلة، وقد اكسبتـه التجارب نضجا خاصا، يؤهله للكتابة في المسائـل الكبار. . ونـظر في كتابـاته السابقة، فأحكم مـا سبق أن كتبه، أو أفتى به، وتكلم عن الموضوع الواحد في اكثر من مصنف.

ثم عمد الى المسائل الكبرى في الفقه، والى أصول الفقه.

وكان يحاول الاجتهاد، ولكن على مذهب الامام احمد، فاذا عدل عنه، أخذ من فقه مالك أو أبي حنيفة أو الشـافعي، أو فقه آل البيت، وبصفة خاصة فقه جعفر الصـادق، أو زيد بن علي أو الذين سبقـوهم كالحسين وابن الحنفية.

ولكنه في هذا الطور من أطوار حياته، عرف حزناً لم يعرفه من قبل قط . .

ماتت أمه بعد أن جاء دمشق بأعوام قلائل، وقد عاشت ترعاه، وتوجهه الى الرفق في الخصومة . . لقد احتسبها عند الله، ولكنه كان كلما عاد الى البيت ذرف عليها الدموع، حتى لتخضل لحيته التي لم تغزها بعد الشعرات البيض!

وعاد الى مسألة الصفات ليحكم الكتابة فيها . . فكتب: «مذهب سلف الأمة وائمتها، أن يوصف الله تعالى بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، يثبتون لله ما اثبته من صفات، وينفون عنه مشابهة المخلوقات، يثبتون له صفات الكمال، وينفون عنه ضرب الأمثال، ينزهونه عن النقص والتعطيل ، وعن التشبيه والتمثيل، اثبات بلا تمثيل، وتنزيه بلا تعطيل. ﴿**ليس كمثله شيء**﴾ رد على الممثلة، ﴿**هو السميع البصير**﴾ رد على المعطلة».

كان هذا هو آخر ما أحكمه من كلام عن الصفات، ومع ذلك فقد اتهمه خصومه من الفقهاء بالتجسيد والتشبيه والضلال والكفر، وأرفقهم به اتهمه بالجهل والغرور، وعدم فهم السنة . . ! فعاد الى حدته، وكتب عن فقيه من مخالفيه: «من قال هذا فهو كالحمار الذي في داره» . . .

وانكر عليه الفقهاء حتى مؤيديه هذا الأسلوب في الجدل، وهذه الحدة التي تصدم الخصوم.

ثم فتح معركة شيعة عصره، وأنكر عليهم قولهم بالامام المعصوم،

واتهمهم بأنهم يخالفون فقه آل البيت: «أما الكلام في أن هؤلاء ائمة فرض الله الإيمان بهم وتلقي الدين عنهم دون غيرهم، ثم في عصمتهم عن الخطأ، فإن كلا من هذين القولين لا يقوله الا مفرط في الجهل أو مفرط في اتباع الهوى. فمن عرف دين الاسلام، وعرف حال هؤلاء كان عالماً بالاضطرار من دين محمد ﷺ بطلان هذا القول... .وأئمة أهل البيت كانوا يتعلمون الحديث من العلماء، كما يتعلم سائر المسلمين، فعلي بن الحسين روى عن أبان بن عثمان ابن عفان عن أسامة بن زيد وأبي هريرة وابن عباس، وأبو جعفر محمد (الباقر)، يروي عن جابر بن عبد الله. فاذا أرادوا بأنهم نقلوا عن جدهم، أنه أوحي اليهم ما قاله جدهم، فهذه نبوة، كما كان يوحى الى النبي ﷺ ما أوحي الى غيره من الأنبياء»..

واستمر يهاجم الشيعة الامامية المتأخرين، في كثير من الأصول والفروع والمعتقدات، ويؤكد في الوقت نفسه احترامه لآل البيت، وافادته منهم، ويعترف للشيعة الامامية بأنهم مسلمون مؤمنون في الظاهر والباطن، ولكن في بعض افكارهم، ما لا تؤيده السنة، ولا حتى سلفهم الصالح. وقد احتج عليهم الامام جعفر الصادق، فإن متأخري الشيعة قالوا ان القرآن محدث منفصل عن الله، هو كلامه من جملة مصنوعاته المنفصلة عنه، فاقتربوا من زعم المعتزلة ان القرآن مخلوق. وهذا القول للشيعة يخالف ما قاله السلف من ائمة أهل البيت مثل جعفر الصادق، الذي قال ان القرآن ليس بخالق ولا مخلوق ولكنه كلام الله. وهذا ما احتج به أحمد في المحنة، وهو ما عليه أهل السنة.

ورد عليه الشيعة بمثل حدته في الجدل والتهكم، وسخروا من تسميته شيخ الاسلام، ومن رأيه في الامامة، ودعوته الى الاعتراف بالملكية الدنيوية، وايجاب طاعة صاحب السلطان، ملكا كان أو خليفة أو سلطانا، وان كان فاجرا فاسقاً!! وشنعوا عليه بأنه لا يحب آل البيت، فرد عليهم بأنه يحب آل البيت ويعرف فقه آل البيت، اكثر من هؤلاء النفر من متأخري الشيعة!..

ومضى يدلي بآرائه في الدولة وشئونها. «خلافة النبوة ثلاثون سنة (هي عصرَ الخلفاء الراشدين الاربعة) ثم صارت ملكا.. وكون الواحد من هؤلاء اماماً بمعنى انه كان له سلطان، ومعه السيف، يولي ويعزل، ويعطي ويحرم، وينفذ، ويقيم الحدود، ويجاهد الكفار، ويقسم الأموال، أمر مشهور متواتر لا يمكن جحده، وهذا معنى كونه اماما وخليفة وسلطانا... وأما كونه براً أو فاجراً، مطيعاً أو عاصياً، فذلك أمر آخر.. ومذهب أهل السنة أن هؤلاء يشاركون فيما يحتاج اليهم فيه من طاعة، فنصلي خلفهم الجمع والعيدين وغيرهما من الصلوات التي يقيمونها... ونجاهد معهم الكفار، ونحج مهم البيت، ويستعان بهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واقامة الحدود».

ويرى ابن تيمية منع الخروج على النظام السياسي، على نقيض الشيعة.. قال: «وقل من خرج على امام ذي السلطان، الا كان ما تولد من فعله من الشر أعظم مما تولد من الخير»..

من أجل ذلك أيد السلطان وأمراء المماليك على الرغم من كل شيء!

والامانة عنده نوع من الاجارة على عمل.

وكان بعض السلف الصالح اذا دخل على معاوية قال له «السلام عليك أيها الأجير. انما أنت أجير استأجرك رب هذه الغنم».

أما شروط الامامة فقد جمعتها الآية الكريمة: **﴿إن خير من استأجرت القوى الأمين﴾**.

ورأى أن الدولة يجب أن تتدخل أحياناً لتقييد حرية الفرد في التملك والعمل، اذا وقعت مضرة من اطلاق حريته: «اذا كان الناس محتاجين الى فلاحة قوم، أو نساجهتم، أو بنائهم، صار هذا العمل واجبا عليهم، يجبرهم ولي الأمر عليه، اذا امتنعوا عنه، بعوض المثل؟».. .

وهو يرى التسعير في البضائع اذا: «امتنع أرباب السلع عن بيعها مع ضرورة الناس اليها، الا بزيادة على القيمة المعروفة، فهنا يجب عليهم بيعها بقيمة المثل، ولا معنى للتسعير الا الزامهم بقيمة المثل».

وتحدث عن الاحتكار والتسعير: «أن يكون الناس قد التزموا الا يبيع الطعام أو غيره، الا أناس معروفون، لا تباع السلع الا لهم ثم يبيعونها هم... فهنا يجب التسعير عليهم، بحيث لا يبيعون الا بقيمة المثل، ولا يشترون أموال الناس الا بقيمة المثل، بلا تردد في ذلك عند أحد العلماء، لأنه اذا كلن قد منع غيرهم، أن يبيع ذلك النوع أو يشتريه، فلو سوغ لهم أن يبيعوا بما اختاروا، أو يشتروا بما اختاروا كان ذلك ظلما للخلق من وجهين: ظلما للبائعين الذين يريدون بيع تلك الاموال، وظلما للمشترين منهم... والواجب اذا لم يمكن دفع جميع

الظلم أن يدفع الممكن منه، فالتسعير في مثل هذا واجب بلا نزاع، وحقيقته الزامهم ألا يبيعوا، ولا يشتروا، الا بثمن المثل، وهذا واجب في مواضع كثيرة من الشريعة».

وابن تيمية لا يكتفي بتسعير البضائع، بل يفتي بتسعير الأعمال.

والناس اذا احتاجوا الى أهل الصناعات، فانه يقدر أجرة المثل، ولا يطالبون بزيادة.

وأجاز للامام أن يفرض على الأغنياء ما لابد من دفعه لاعداد الجند، واعداد السلاح، حماية للبلاد والانفاق على المصالح العامة، ولا يتحمل الفقراء من ذلك شيء، وفي الأمة أغنياء.. وهذ من باب العدل.

العدل يجب أن يكون أساس الحكم. وذهب في هذا الى حد القول: «أمور الناس تستقيم في الدنيا مع العدل الذي فيه الاشتراك في أنواع الاثم، أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق، وان لم تشترك في اثم. ولهذا قيل: (ان الله يقيم الدولة العادلة، وان كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وان كانت مسلمة). ويقال: (الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والاسلام). وقد قال النبي ﷺ: (ليس ذنب أسرع عقوبة من البغي وقطع الرحم)... فالعدل نظام كل شيء، فاذا أقيم أمر الدنيا بعدل قامت... ومتى لم تقم بعدل، لم تقم، وان كان لصاحبها من الايمان ما يجزى به في الآخرة»...

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ضرورة لاقامة العدل وحمايته..

ولكن من هو الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر؟..

يجب أن تتوفر فيه ثلاثة شروط: العلم، والرفق، والصبر. . (فلا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، الا من كان فقيهاً فيما يأمر به، فقيهاً فيما ينهى عنه، رفيقاً فيما يأمر به، رفيقاً فيما ينهى عنه، حليماً فيما يأمر به، حليماً فيما ينهى عنه). وقد قال النبي ﷺ: (ما كان الرفق في شيء الا زانه، ولا كان العنف في شيء الا شانه). . ولهذا ينهض بأداء الواجب الشرعي أولو الأمر من الحكام والعلماء. فالعلماء الذين اتصفوا بالرفق والصبر من الفقه هم وحدهم الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. فلا يحق هذا لعالم غليظ عنيف أو غير صبور.

وكل فرد من الرعية، يجب عليه أن يؤدي ما عليه للدولة من واجبات، ومنها حقها عليه في المال، وعليه أن يسعى ما استطاع للوفاء بهذا الحق، فهو مدين، فان عجز المدين عن أداء دينه للدولة، أو دينه لدائن آخر من الأفراد، أدته عنه الدولة، بشرط التحقق من أنه يسعى ما استطاع، فعجز عن الأداء.

وكل فرد يتمتع بحماية الدولة، وهي تحميه من أي عدوان، حتى لو لم ترد بهذا العدوان عقوبات. فاذا كذب عليه أحد، وأخذ بالكذبة، وعزر وطيف به في الأسواق، وجب على ولي الأمر، أن يعاقب من كذب عليه بذات العقوبة التي وقعت على البريء، ويعوض البريء من مال الكذاب. . . !

على أنه ليس للحاكم أن يضرب فرداً من الرعية الا بحكم قضائي شرعي بتعزيره عن الجنابات التي ليست لها حدود في الكتاب

والسنة. فاذا ضربه الحاكم وجب القصاص من الضارب، وعلى صاحب السلطان خليفة كان أو ملكاً أو سلطاناً، أن يقتص من الحاكم المعتدي، وأن يعوض المعتدى عليه من ماله.. وهكذا كان عمر.. وقد قال: «ما أرسلت اليكم عمالي ليضربوا أبشاركم، بل ليعلموكم ويفقهوكم ويحموكم».

***

استمر الشيخ يكتب ويدرس ويفتي، معتمداً في استنباط آرائه على أصول الفقه التي أقرها الامام أحمد: فالحكم يؤخذ من الكتاب والسنة، وحجية السنة ثابتة بالكتاب: **﴿وما آتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا﴾**. وهي شارحة له. ثم من اجماع الصحابة، أو اجماع علماء المسلمين، على أن يكون سند هذا الاجماع نصاً، ولا توجد مسألة فيها اجماع الا وفيها نص.. وهنا يكون النص لا الاجماع هو الأصل. ومن ذلك مسألة المضاربة، فقد كانت شائعة بين العرب في الجاهلية، فلما جاء الاسلام، ظل الصحابة يتاجرون بمال غيرهم بالمضاربة. وأقر رسول الله عملهم. فصارت المضاربة مشروعة لا باجماع الصحابة، بل بالسنة. والسنة هي قول الرسول، وفعله، واقراره.

والسنة لا تنسخ الكتاب ولا ينسخها اجماع، كما أن الاجماع الصحيح لا يمكن أن يعارض كتاباً أو سنة. «ولم يقع اجماع الا اجماع الصحابة قبل أن يتفرقوا في الأمصار. وغير ذلك فيه خلاف». ثم يأتي القياس بعد الكتاب والسنة والاجماع، ويرى أن القياس

الذي يجب الأخذ به هو القياس الصحيح، هو ما وافقت دلالته دلالة النص، فاذا خالفته، فهو قياس فاسد لا يؤخذ به. . ورأيه أن القياس لا يمكن أن يخالف نصاً. . وانما هو استنباط حكم في أمر مستحدث من حكم أمر ورد فيه نص، لتماثل علة الحكم أو حكمته، أو لتحقيق مصلحة ودفع مضرة. ويقول في هذا: «تدبرت ما أمكنني من أدلة الشرع، فما رأيت قياساً صحيحاً يخالف حديثاً صحيحاً، كما أن المعقول الصريح لا يخالف المنقول الصحيح. بل متى رأيت قياساً يخالف أثراً فلا بد من ضعف أحدهما». ثم الأخذ بفتوى الصحابة اذا اتفقوا، فاذا اختلفوا أخذ بالأقرب الى السنة. . ثم يجيء الاستصحاب أصلاً من أصول الفقه بعد القياس، وقد عرفه بأنه: «البقاء على الأصل فيما لم يعلم ثبوته أو انتفاؤه بالشرع»، والأئمة متفقون عليه، في كل عقد أو تصرف يستحدث، وليس في الشريعة دليل على الاباحة أو التحريم، فيحكم بالاباحة، حتى يقوم دليل على التحريم، «لأن الأصل في الأشياء الاباحة، وهي الحال التي خلق الله عليها ما في الأرض جميعاً».

ولعل أخطر ما كتبه ابن تيمية في هذا الباب، هو ما كتبه عن العقود، والشروط والعهود أو المعاهدات.

أما المعاهدات مع غير المسلمين، فلما كان الأصل في الاسلام هو السلم، ولا حرب الا لرد العدوان كما ثبت بالكتاب والحديث، فان لولي الأمر أن يعقد من المعاهدات، ما فيه مصلحة المسلمين. مؤقتة كانت أو دائمة. . وقد استثنى الله تعالى المعاهدين من القتال. فقال:

﴿. . . الا الـذين عـاهـدتم عنـد المسجـد الحـرام فـما استقـامـوا لكم فاستقيموا لهم﴾ فـاذا خان غيـر المسلمين المعاهـدة، أو رجـح أنهم يخونونهـا، وجب قتالهم. قـال تعالى: **﴿وأمـا تخافن من قـوم خيانـة فانبذ اليهم على سواء﴾**.

قال ابن تيمية عن المسلمين في رسالة الى ملك قبرص الصليبي: «نحن قـوم نحب الخير لكـل أحـد، ونحب أن يجمـع الله لكم خيـر الدنيا والآخرة».

وأعظم ما عبدالله به نصيحة خلقه. . . . وقـد عرف النصـارى أني لما خاطبت ملك التتار في اطلاق الأسرى، وأطلقهم غازان (قازان)، فسمح باطلاق المسلمين، وقال لي: (لكن معنا نصارى أخذناهم من القـدس، فهؤلاء لا يطلقـون). فقلت له: (بـل جميـع من معـك من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمتنا، فانا نفكهم، ولا ندع أسيراً من أهـل الملة ولا من أهل الـذمة، وأطلقنـا من النصـارى من شـاء الله. فهذا عملنا واحساننا (نحن المسلمين) والجزاء عند الله».

وأما العقود والشـروط، فقد اختلف فيهـا أئمة المـذاهب الأربعة، فأما أبو حنيفة والشافعي فقد ذهبا الى أنه لا يصح من العقود والشروط الا مـا نص عليه النص، وأمـا مالـك وأحمد، فـذهبـا الى أن العقـود والشروط صحيحة، الا ما نهى عنه النص. . . ووسع أحمد في اباحة العقود والشروط أكثر مما وسع مالك.

وجاء ابن تيمية، فأخذ برأي أحمد ووسع فيه، ونادى باطلاق حرية التعاقد. ذلك أن من ضيقوا من الحنفية والشافعية، ذهبوا الى أن آثـار

العقود من عمل الشارع، فالأصل فيها المنع حتى يقوم الدليل على الاباحة . .

ولكن ابن تيمية رأى كما رأى المالكية والحنبلية، أن آثار العقود والشروط، ناشئة من ارادة المتعاقدين، وجعلوا الأصل في العقود والشروط الاباحة، ووجوب الوفاء بما تعاقد عليه الطرفان، حتى يقوم دليل على المنع . .

قال ابن تيمية : «الأصل في العقود والشروط الجواز والصحة، ولا يحرم ويبطل منها، الا ما دل على تحريمه وابطاله دليل من نص أو قياس على نص. وأصول أحمد رضي الله عنه تجري على هذا القول، ومالك قريب منه. لكن أحمد أكثر تصحيحاً للشروط، فليس في الفقهاء الأربعة أكثر تصحيحاً للشروط منه. وعامة ما يصححه أحمد من العقود والشروط فيها تنبيه بدليل خاص من أثر أو قياس. وكان قد بلغه في العقود والشروط من الآثار عن النبي ﷺ والصحابة ما لم يجده في غيره من الأئمة، فقال بذلك وبما في معناه قياساً، وما اعتمد عليه غيره من نص، فقد يضعفه أو يضعف دلالته، وكذلك قد يضعف ما اعتمد عليه من قياس».

ويقول ابن تيمية عن العقود التي أبرمها الطرفان غير مخالفة للشرع، وعن الشروط التي لا تخالف الشرع ولا مقصود العقد . . يقول عنها انها جميعاً صحيحة بدلالة الكتاب والسنة والاجماع والاستصحاب. فالكتاب يأمرنا بالوفاء بالعقود، ولو كان الأصل في العقود الحظر الا ما أباحه الشارع، ما أمرنا بالوفاء مطلقاً. وفي

الحديث: «من شرط شرطاً، ثم نقضه فقد غدر» و «الناس على شروطهم ما وافقت الحق». وفي الحديث: «المسلمون على شروطهم الا شرط حلل حراماً أو حرم حلالاً».

والعقود والشروط انما هي معاملات، لا عبادات فهي على أصل الاباحة. وقد قال تعالى: ﴿وقد فصل لكم ما حرم عليكم﴾ فما لم يحرمه مباح.

ويرى الشيخ أن «الأصل في العقود رضا العاقدين ونتيجتها هي ما أوجباه على أنفسهما بالتعاقد» وكل ما كان بالرضا وطيب النفس في عقد، يوجب حقوقاً ما لم يكن منهياً عنها.

والشروط توضع في العقود للحاجة اليها، والقاعدة في الشريعة وجوب رفع الحرج والضيق، فما لم يثبت تحريمه من الشروط مباح لحاجة الناس إليها.

وهناك أصل فقهي آخر، أخذ به الامام أحمد، وتردد فيه ابن تيمية وهو المصالح المرسلة وهي رعاية المصلحة العامة في الأحكام والعقود، اذا لم يكن هناك دليل شرعي من الأحكام السابقة ويعرفها بقوله: «أن يرى المجتهد أن هذا الفعل يجلب مصلحة راجحة، وليس في الشرع ما ينفيه، وأن المصلحة كما تكون بجلب منفعة، تكون بدفع مضرة». وذلك جريا على نهج الصحابة، فليس في القرآن ولا في السنة ما يقضي بجمع القرآن في مصحف، ولكن عندما استشهد كثير من حفاظ القرآن في حروب الردة، اقترح الصحابة على الخليفة أبي بكر، أن يجمعه ويدونه في مصحف.

فقال: «كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟».

ولكن الصحابة ظلوا يراجعونه، وما أنفك عمر يدعو أن يشرح الله صدر أبي بكر لهذا، حتى أمر أبو بكر بجمع القرآن. ثم جاء عثمان بن عفان، فوجد اختلافاً في القراءات في الأمصار، فأمر بجمع القرآن في مصحف واحد، وأحرق ما عداه.

ومن ذلك أن «علي بن أبي طالب، أمر بأن يضمن الصناع ما عندهم من حاجات الناس وأمتعتهم، مع أنها أمانات عندهم والأمين لا يضمن. ولكن أمير المؤمنين خاف الخيانة والتقصير، فقال في هذا: (لا يصلح الناس الا ذاك).

ومن ذلك: «اذا رأى الامام تحريق اللوطي بالنار، فله ذلك. لأن خالد بن الوليد كتب الى أبي بكر رضي الله عنه أنه وجد في بعض نواحي العرب رجلاً ينكح كما تنكح المرأة، فاستشار أصحاب النبي ﷺ، وفيهم أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه، وكان أشدهم قولاً فقال: (ان هذا الذنب لم تعص الله به أمة الا واحدة، فصنع الله بها ما قد علمتم. أرى أن يحرقوه بالنار). فأجمع أصحاب رسول الله ﷺ على أن يحرقوه بالنار، فكتب أبو بكر الصديق رضي الله عنه خالد بن الوليد رضي الله عنه بأن يحرق من يفعلون فعل قوم لوط فحرقهم، ثم حرقهم ابن الزبير، ثم حرقهم هشام بن عبد الملك».

ومن ذلك «أن النساء اذا خيف عليهن المساحقة، حرم خلوة بعضهن ببعض. واذا أتت المرأة المرأة تعاقبان وتؤدبان».

ومن ذلك أن «المخنث ينفى: لأنه لا يقع منه الا الفساد،

والتعرض له، وللامام أن ينفيه الى بلد يأمن فساد أهله، وان خاف به عليهم حبسه».

ومن ذلك فيمن «شرب خمراً في نهار رمضان، أو أتى شيئاً نحو هذا: أقيم الحد عليه، وغلظ عليه مثل الذي يقتل في الحرم دية وثلث».

ومن ذلك أمر «السياسة، وهي ما كان من الأفعال بحيث يكون الناس معه أقرب الى الصلاح، وأبعد عن الفساد، وان لم يشرعه الرسول ﷺ، ولا نزل به وحي، فان أردت بقولك لا سياسة الا ما وافق الشرع، أي لم يخالف ما نطق به الشرع فصحيح، وان أردت ما نطق به الشرع، فغلط وتغليط للصحابة، فقد جرى من الخلفاء الراشدين ما لا يجحده عالم بالسير، وكان رأياً اعتمدوا فيه على مصلحة، مثل تحريق المصاحف المخالفة، وتحريق علي كرم الله وجهه الزنادقة في الأخاديد، ومثل نفي عمر رضي الله عنه لأحد المخنثين.

والسياسة مقام ضنك في معترك صعب، فرط فيه طائفة فعطلوا الحدود، وضيعوا الحقوق وجرءوا أهل الفجور على الفساد، وجعلوا الشريعة قاصرة لا تقوم بمصالح العباد، وسدوا على أنفسهم طرقاً صحيحة من الطرق التي يعرف بها المحق من المبطل، وعطلوها مع علمهم وعلم الناس أنها أدلة حق. ظناً منهم منافاتها لقواعد الشرع. والذي أوجب منهم ذلك نوع تقصير في معرفة حقيقة الشريعة والتطبيق بين الواقع وبينها، فلما رأى ولاة الأمور ذلك وأن الناس لا

يستقيم أمرهم الا بشيء زائد عما فهمه هؤلاء من الشريعة، فأحدثوا لهم قوانين سياسية ينتظم بها مصالح العالم. . . . . والله تعالى لم يحصر طرق العدل وأدلته وأماراته في نوع واحد، وأبطل غيره من الطرق التي هي أقوى منه وأدل وأظهر، بل بين بما شرعه من الطرق أن مقصوده اقامة الحق والعدل، وقيام الناس بالقسط. فأي طريق استخرج بها الحق ومعرفة العدل، وجب الحكم بموجبها ومقتضاها، والطرق أسباب ووسائل. لا تراد لذواتها، وانما المراد غاياتها التي هي المقاصد. . ولن تجد طريقاً من الطرق المثبتة للحق الا وهي موافقة للشريعة، وهل يظن بالشريعة الكاملة خلاف ذلك؟ ولا نقول ان السياسة العادلة مخالفة للشريعة الكاملة، بل هي جزء من أجزائها، وتسميتها أمر اصطلاحي. والا فاذا كانت عدلاً فهي من الشرع. وقد أحرق عمر رضي الله عنه قصر سعد بن أبي وقاص، لأنه احتجب فيه عن الرعية، والزم بالطلاق الثلاث لمن أوقعه بفم واحد، عقوبة له كما صرح هو بذلك، والا فقد كان على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وصدرا من امارة عمر، يجعل واحدة الى غير ذلك من السياسات العادلة التي ساسوا بها الأمة».

هذا هو رأي ابن تيمية في المصالح المرسلة، وهو الرأي الذي كتبه في مصنفاته ورسائله، أو كتبه عنه تلميذه، وناشر فقهه «ابن قيم الجوزية».

على أن ابن تيمية قد تردد في تسمية هذا الأصل من أصول الفقه: «المصالح المرسلة». وهو بهذا يخالف شيخه الامام أحمد. ويستقل عنه بالرأي. فهو يعتبر ما أسماه الامام أحمد «مصالح مرسلة» داخلاً

فيما يدل عليه الكتاب والسنة دلالة واضحة بعموم النص، أو داخلاً في القياس الصحيح أو الاستحسان أو الاستصحاب. . قال: «القول الجامع أن الشريعة لا تهمل مصلحة قط، بل ان الله تعالى قد أكمل هذا الدين، وأتم النعمة، فما من شيء يقرب الى الجنة الا وقد حدثنا به النبي ﷺ، وتركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعده الا هالك، لكن ما اعتقده العقل مصلحة وان كان الشرع لم يرد به فأحد الأمرين لازم له: اما أن الشرع دل عليه من حيث لم يعلم هذا الناظر، أو أنه ليس بمصلحة واعتقده مصلحة، لأن المنفعة هي المنفعة الحاصلة أو الغالبة، وكثيراً ما يتوهم الناس أن الشيء ينفع في الدين والدنيا، ويكون فيه منفعته مرجوحة بالمضرة، كما قال تعالى: **﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما أثم كبير ومنافع للناس، وأثمهما أكبر من نفعهما﴾**. . . والمصلحة تسمى رأياً عند بعض الفقهاء (والرأي هو القياس)، . وتسمى استحساناً عند آخرين» .

وما اتخذ ابن تيمية هذا الموقف، الا لأن الحياة من حوله فرضته عليه. . وكم فرضت عليه الحياة من مواقف وآراء!!

ذلك أنه رأى الصوفية يعتبرون أذواقهم واشاراتهم والهاماتهم، من باب المصالح المرسلة، فاعتبرهم يحاولون الافلات من أحكام النصوص بهذه المصالح. . قال: «ذوق الصوفية ووجدهم والهاماتهم، فان حاصلها أنهم يجدون في القول أو العمل مصلحة في قلوبهم، ويذوقون طعم ثمرته» .

ثم انه رأى أن الأخذ بهذه المصالح قد «حصل منه في أمر الدين اضطراب عظيم، وكثير من الأمراء والعباد رأوا مصالح، فاستعملوها بناء على هذا الأصل، وقد يكون منها ما هو محظور في الشرع، ولم يعلموه، وربما قدم في المصالح المرسلة كلاماً خلاف النصوص، وكثير منهم أهمل مصالح يجب اعتبارها شرعاً، بناء على أن الشرع لم يرد بها، ففوت واجبات ومستحبات، أو وقع في محظورات ومكروهات، وقد يكون الشرع ورد بذلك، ولم يعلمه».

لقد خشي أن يتحكم العقل في الشريعة، فالأخذ بالمصالح تطبيق لمبدأ: (ان الأمور يدرك حسنها وقبحها بالعقل). . وهو ينكر هذا المبدأ، لأنه يشرع من الدين ما لم يأذن به الله. فهو يرى أن النص يحدد الحسن من الأعمال فنأتيه، والقبيح فننتهي عنه!!

رأى الناس يعتمدون على المصالح المرسلة، فيبتدعون، ورأى الحكام قد اتخذوها وسيلة للظلم، ومبرراً لإلحاق الأذى بالرعية في النفس والمال، فطرح هذه المصالح المرسلة، ورأى الأخذ بالمصالح الشرعية فحسب. قال: «كثير مما ابتدعه الناس من العقائد والأعمال، من بدع أهل الكلام، وأهل التصوف، وأهل الرأي، وأهل الملك: حسبوه منفعة أو مصلحة نافعة، وحقاً وصواباً، ولم يكن كذلك. بل كثير من الخارجين عن الاسلام يحسبون أن ما هم عليه من الاعتقادات والمعاملات والعبادات مصلحة لهم في الدين والدنيا».

ثم ان «كل مصلحة حقيقية وليست وهمية، جاءء دليل من الشرع

باعتبارها . . . ان كل مصالح العباد، والمنافع الحقيقية هي على علم الاباحة الأصلية، بمقتضى حكم الاستصحاب الذي يجعل كل نفع مباحاً حتى يقوم الدليل على خلافه».

فلا حاجة للمجتهد باستنباط الحكم اعتماداً على تحقيق المصالح المرسلة، لأن الحكم بمقتضى المصلحة يمكن استنباطه من الكتاب والسنة ثم الاجماع ـ والأمة لا تجتمع على باطل ـ أو بالقياس الصحيح، او الاستصحاب.

اما آخر أصل من أصول الفقه التي اعتد بها ابن تيمية، فهو سد الذرائع . . . وهو أهم ما يميز مذهب الامام أحمد بن حنبل.

وقد تابع ابن تيمية شيخه في هذا الأصل، واجتهد فيه، وتوسع آخذاً بما في المذهب من سعة، وهو ينبني على أن الأحكام الشرعية، تقدر التصرفات، بما يسد الذريعة الى اقتراف الحرام «فما يؤدي الى المنهي عنه ايضاً، وما يكون وسيلة الى المطلوب مطلب كذلك فيجب النظر في العقود والتصرفات الى البواعث عليها، ومآلاتها، فالوسائل تأخذ حكم المقاصد والغايات».

فالباعث ان كان يؤدي الى حرام. كعقدزواج لا يقصد به العشرة الزوجية، بل التحليل لمن طلق ثلاثا، وكعقد البيع الذي لا يقصد به نقل الملكية بل الربا، وغير ذلك من العقود والتصرفات التي يكون الباعث عليها محرما . . كلها عقود محرمة : فالعبرة في العقود بالنية لا بالألفاظ «بالمقاصد والمعاني لا بالمباني» أما المآلات أو الغايات، فهي ما ينتهي اليه التصرف، فان كانت أدت الى تحقيق

مصلحة شرعية، فهي مباحة، وان أدت الى تحقيق مفسدة ، فهي محرمة». فالعبرة بالنتيجة . .

قال: «للشريعة أسرار في سد الذرائع، وحسم مادة الشر، لأن الشارع عليم بما جبلت النفوس، وبما يخفى على النفس من خفي هواها الذي لا يزال يسري فيها، حتى يقودها الى الهلكة. فمن تحذلق على الشارع، واعتقد في بعض المحرمات انها انما حرمت لعلة كذا، وتلك العلة مقصودة فيه، فهو ظلوم لنفسه جهول بأمر ربه، هو ان نجا من ا لكفر، لم ينج غالبا من بدعة، أو فسق، أو قلة فقه في الدين، وعدم بصيرة». ويضرب امثلة لسد الذرائع مضيفا الى أمثلة الامام احمد:

- نهى النبي ﷺ عن أن يسب الرجل أبوي أخر، لأنه ذريعة الى أن يسب الآخر أبويه.

- نهى الشارع خطبة المعتدة، فقد يؤدي الى الزواج في العدة وهو منهي عنه.

- نهى المقرض عن قبول هدية المقترض لكيلا تكون ذريعة للربا.

- قتل الجماعة بالواحد باتفاق الصحابة، لكيلا يكون التعدد ذريعة الى الافلات من حد من حدود الله، وهو القصاص.

- نهيه عليه الصلاة والسلام عن اقتران البيع بالسلف، سداً للذريعة الى الربا (فقد يقرضه ماتة، يبيعه شيئاً تافهاً بألف).

- منع كل الحيل التي تؤدي الى محرم، «ولكن تجوز الحيلة لطلب الحق بكلمات توهم بغير المراد، وتجوز في الطريق الحلال

للوصول الى حلال. فذلك مباح باتفـاق الفقهاء مـا دامت لا تتعارض مع الشرع».

ـ «من اضطر الى الاستندانة من الغير، فـأبى أن يعطيـه الا بربـا، فأخذه منه بذلك، لم يستحق عليه الا مقدار رأس ماله، سداً للذريعة الى الربا».

على أن بعض الفتاوى التي اعتمد فيها على سد الذرائع، جـاءت على أساس المصالح المرسلة.. وذلك مثل:

ـ الحاجة الى السكن فقال: «اذا قدر ان قوما اضـطروا الى السكن في بيت انسان لا يجدون سواه، أو النزول في خان، أو استعارة ثياب يستدفئون بها، أو دلو لنزع الماء، أو قدر او فأس أو نحو ذلك، وجب على صاحبه بـذله بـلا نزاع ويجب عليـه ذلك مجـاناً، كمـا دل عليـه الكتاب والسنة، وان كان رأي الامام أحمد في قوله له انـه يأخـذ أجرة المثل».

ـ ايجـاب طاعـة الامام. على أن الامـام يجب أن تتوفـر فيه ثلاثـة شـروط: أن تكـون ولايتـه بمشـورة لمن المسلمـين. والـبيـعـة، والعدالة وطاعته واجبة حتى ان ظلم، ولكن لا يطاع في معصية، وفي كل الحالات فالخروج عليه بالسيف منهي عنه.

* * *

ولكن ابن تيمية ينصح المجتهـدين في استنبـاطهم الأحكـام، والرجوع الى الكتاب والسنة، وبالعدول عن آراء المـذهب، ان صح عندهم حديث يخالف رأيهم، وبهذا نصح الأئمة الاربعـة، وهذا هـو

نهج الخلفاء الراشدين، وهم أعلم الأمة بطرائق استنباط الاحكام الشرعية، فقد علمهم النبي ﷺ. . كان الواحد منهم يعلن رأياً أو يصدر حكماً، فاذا تبين له أن هناك حديثاً صحيحاً يخالفه، أخذ بالحديث، وعدل عن اجتهاده. .

سألت امرأة أبا بكر حقها في ميراث حفيدها، فقال لها: «أنت جدة، ومالك في كتاب الله من شيء، وما علمت لك في سنة رسول الله من شيء، ولكن أسأل الناس». فسألهم فقام اثنان من الصحابة فشهدا أن النبي ﷺ أعطى الجدة السدس.

وكان عمر لا يعلم أن الزوجة ترث من دية زوجها حتى أعلمه أحد الصحابة أن الرسول قد ورث امرأة من دية زوجها، فقال عمر: «لو لم نسمع هذا لقضينا بخلافه».

ولما انتشر الطاعون في الشام وعمر قادم اليه، استشار المهاجرين الأولين، ثم الانصار فيما يصنعه، أيذهب الى الشام أو لايذهب؟ فلم يخبره أحد بشيء، حتى أخبره عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ قال: «اذا نزل الطاعون بأرض وأنتم بها، فلا تخرجوا منها، واذا سمعتم به من في أرض فلا تقدموا عليها».

* * *

على أساس أصول الفقه تلك، مارس ابن تيمية نشاطه الفقهي، وأكثر آرائه اتباع للامام أحمد، وبعض الآراء عدول عن المذهب الحنبلي، الى المذاهب الأخرى. وقد لاحظ أنه عند اختلاف الأئمة الأربعة، يتفق رأي أحمد ومالك، أو أحمد والشافعي، ولكن

قلما يتفق رأي أحمد وأبي حنيفة . .

ولابن تيمية آراء قليلة،ترك فيها المذاهب الأربعة، ليأخذ من فقه آل البيت، وله بعد ذلك آراء انفرد بها.

وقد اتبع ابن تيمية آراء أحمد جميعا حتى فيما انفرد به، الا في فتاوى قليلة.

ومما اتبعه في مفردات أحمد:

- قبول شهاتدة أهل الذمة على المسلمين عند الحاجة، كالوصية في السفر.

- تحريم زواج الزانية حتى تتوب.

- جواز شهادة العبد.

- طلاق السكران لا يقع.

أما اختياراته من المذاهب الأخرى فكثيرة، بعضها كان قد وافق عليه أحمد، وبعضها لم يكن الامام أحمد يأخذ به، ومن الاختيارات:

- يجوز نقل الزكاة من اقليم لاقليم في المصر الواحد (الوطن الواحد).

- الزكاة للأصول وأن علوا (كالأجداد) وللفروع وان هبطوا (كالأحفاد) اذا كانوا محتاجين، وتسدد ديونهم من الزكاة. وأحمد يوافق على هذا الرأي.

- لا يجوز اعطاء شيء من الزكاة لمن لا يستعين بها على طاعة الله فرضها معونة على طاعته.

- لايجوز أن يعان بالمباح على المعصية، فلا يعطى اللحم أو

الحبز لمن يشرب عليه الخمر، ويستعين به على الفواحش.

ـ تؤدى الزكاة لولي الأمر العادل لصرفها على مستحقيها، فـان كان ولي الأمـر لا يصرف الـزكـاة في المصـارف الشـرعيـة، فينبغي على صاحبها ألا يدفعها اليه.

ـ لا يصح بيع ما قصد بـه الحرام، كعصيـر يتخذ خمـراً، اذا علم ذلك. ولو ظن الآجر أن المستأجر يستأجر الدار لمعصية، لم يجز لـه أن يؤجره تلك الدار. وهذا الرأي اتفق عليه مالك واحمد.

ـ طلاق المكره لا يقع وهذا اتفاق مالك الشافعي وأحمد.

ـ «السكـران اذا سكـر بقصـد القتـل أو الـزنـا أو غيـر ذلـك من المحـرمات، ثـم فعـل ذلك في حـال السكر، فـان اثمة مثـل اثم من فعل ذلك في حال الصحو وأكثر. وان لم يكن قصده ذلك، بـل ابتدأه غيره بالمهانة فقتله، فان اثمه يكون أقل من ذلك».

ـ الخط بينة في الاثبات. «العمل بالخط مذهب قوي بـل هو قـول جمهور السلف (اتفق عليه مالك والشافعي وأحمد)».

ـ كل شرط لا يخالف الشريعة أو مقصود العقد، واجب الاحترام. كاشتراط الزوجة ألاَّ يتزوج عليها، أو ألا ينقلها من بلدها ونحو ذلك، لما جاء في الحديث: «ان أحق الشروط أن توفوا ما استحللتم به فروج النساء».

ويجـوز للبـائـع أن يشتـرط الانتفـاع بـالمبيـع مـدة معينــة، وفي الحديث: الناس على شروطهم ماوافقت الحق.

ـ اذا تلف المعقود عليه بجـائحة قبـل التمكن من قبضه، لا يـدفع فيه الثمن، لأنه أخذ للمال بغير عوض من غيـر رضا صـاحبه، وأكـل

لأموال الناس بالباطل، وقد نهى الله تعالى عنه: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل، الا ان تكون تجارة عن تراض منكم**﴾. والجائحة هي الآفة، التي لا يمكن فيها تضمين (أي تعويض) أحد: كالريح، والمطر، والبرد، والحر، والصواعق، والجيش حين يتلف، واللصوص. فاذا أمكن التعويض، فالخيار بين اجراء الصفقة مع تعويض ما تلف منها، أو الفسخ. والعقود التي تنطبق عليها القاعدة هي عقود البيع والاجارة، فالمنفعة المقصودة بعقد الاجارة، اذا لم يمكن استيفاؤها بطلت الاجارة. فاذا زال بعض نفعها المقصود بالعقد، وبقي البعض، فللمستأجر حق الفسخ، أو ينقص من الأجرة بقدر نقص المنفعة.

وأتهم الشيخ معارضي هذا الرأي بأنهم (على غفلة بينة، وأنه رأي لا ينكره كل ذي فطرة سليمة، حتى من لم يمارس الفقه من الفلاحين، وشذاذ المتفقهة».

- دور مكة لا تؤجر، وأن من استأجرها لا تلزمه الأجرة، ويحرم عليه دفعها، الا أن يكون مضطراً، بأن تغلب على مكة متغلب، أو كان أهل مكة لا يمكنون الحجيج من الدور الا بأجرة. قال: «مكة المشرفة فتحت عنوة، ولا تجوز اجارتها، فان استأجرها، فالأجرة ساقطة يحرم بذلها (فدور مكة هي حرم الله الآمن). . وكذلك لا يجوز بيع هذه الدور».

وقد روي أن عمر قال: «يا أهل مكة لا تتخذوا لبيوتكم أبواباً، لينزل الناس». وكان رضي الله عنه ينهى عن بيع الطعام في موسم الحج، «حتى لا يجهد الحجاج، ويكون الاحتكار، . وترتفع الأسعار». ويقول أبو عبيدة: «ان رسول الله ﷺ قد سن لمكة سنناً لم

يسنها لشيء من سائر البلاد. . . . فلا تباع رباعها (دورها)، ولا تؤخذ اجارتها، ولا تحل ضالتها، ولا تغلق دورها دون الحاج، ولا يطيب كراء بيوتها، وانها مسجد المسلمين».

- «يجوز بيع المصوغ من الذهب والفضة بجنسه، من غير اشتراط التماثل، ويجعل الزيادة في مقابل الصنعة، وليس هذا ربا». وهو رأي مالك، ورأى ضعيف لأحمد.

أما آراؤه التي استقل بها، فمنها:

- «قصر الصلاة في كل ما يسمى سفراً» وهو قول بعض الصحابة.

- «من أكل في شهر رمضان معتقداً أنه ليل، فبان أنه نهار، لا قضاء عليه، كما هو الصحيح عند عمر».

- ما ملكت أيمانكم من الوثنيات، لهن حكم الكتابيات.

- «يجوز التيم، مع وجود الماء للوضؤ، لمن خاف فوات العيد والجمعة أو وقت صلاة أخرى من الصلوات المكتوبة».

- يجوز توريث المسلم من الذمي.

- «المرأة اذا لم يمكنها الاغتسال في البيت، أو شق عليها النزول الى الحمام وتكرره، لها أن تتيمم وتصلي».

- لا حد لأقل الحيض، ولا لأكثره، ولا لأقل الطهر بين الحيضتين، ولا حد لسن الاياس (اليأس) من الحيض، فان ذلك يرجع الى ما تعرفه المرأة عن نفسها.

- «تارك الصلاة عمداً لا قضاء عليه، ولا يشرع له القضاء، بل

عليه الاكثار من النوافل رجاء غفران الله».

لقد حاول الشيخ الاجتهاد، مستنبطاً أحكاماً مستقلة، ليرفع من الناس الظلم والحرج من فتاوى الفقهاء الجامدين المقلدين، عسى أن تنضبط أمور الناس بقواعد الشريعة السمحة.

ونظر في أحوال الناس حوله، فراعه ما يراه من انهيار بيوت وتمزق عائلات، لأن رب البيت حلف على شيء بالطلاق، وحنث في اليمين، فتتحمل الزوجة البريئة وأولادها، مسئولية حماقة الزوج!!

ورأى الرجل يطلق المرأة ثلاثاً في فم واحد، أو في مجلس واحد، فلا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره... ! ونظر في أصول المسألة، فهدته دراسته في فقه آل البيت الى أن اليمين بالطلاق باطل، لا يقع به طلاق، والى أن للطلاق شروطاً حددتها السنة: أن يطلق الرجل امرأته طلقة واحدة، بشرط أن تكون قد اغتسلت من الحيض، وقبل أن يدخل بها، ثم يدعها، فلا يطلقها حتى تكمل عدتها.. فان أراد أن يراجعها فلك ذلك، بدون رضاها، ولا رضا وليها، ولا مهر جديد.

وان تركها حتى تنقضي العدة، فقد بانت عنه.

فان أراد أن يتزوجها بعد انقضاء العدة جاز له ذلك، لكن بعقد جديد.

فاذا تزوجها مرة ثانية، وأراد أن يطلقها، فانه يطلقها كما تقدم، فان طلقها الثالثة حرمت عليه حتى تنكح زوجاً غيره. فالطلاق ثلاثاً في عبارة واحدة أو في مجلس واحد، أو في طهر واحد، والطلاق

على غير الوجه المذكور آنفاً، كل أولئك طلاق لا يقع ثـلاثاً . . انمـا هو طلقة واحدة . .

كانت هذه هي أحكام الطلاق في عهد الرسـول ﷺ، وخليفته أبي بكر، وخلال عامين من عهد عمر. فلما رأى عمر الأزواج يسرفون في الحلف بالطلاق، أو يندفع الواحد منهم فيطلق امرأتـه ثلاثـاً في عبارة واحـدة. فلما رأى عمـر ذلك أراد أن يؤدب الأزواج، فقضى بـوقـوع الطلاق في هذه الحالات ثلاثاً . . وسار الفقهـاء من بعده على هـذا، ونسوا الحكمة فيما قضى به عمر . .

أعلن ابن تيمية رأيـه في الـطلاق في كتبـه، ودرســه وأفتى بـه، وأضـاف الى رأي آل البيت في الحنث بيمين الطلاق، أنـه وان كـان الـطلاق لا يقع اطـلاقاً، الا أن على الحـالف كفـارة: اطعـام عشـرة مساكين أو صيام ثلاثة أيام. وهي كفارة الحنث باليمين.
ولا تقع طلقتان في طهر واحد، بل يجب أن تنقضي العدة.

ضج الناس بالفرحـة لهذه الفتـوى، فهي تنقذ البيـوت من الانهيار والتمزق، وتمنوا لو أن القضاة الأربعة عملوا بها . . ! !

غير أن القضاة الأربعة ضجوا بالنكير عليها، وقامـوا ومعهم الفقهاء والعلماء من المذاهب الأربعة، فهاجموا رأي الشيخ، فمنهم من قـال انـه اجتهاد خـطأ، ومنهم من قال انهـا البدعـة، فهي ضلالـة، وقـال آخرون انه الغرور والزيغ وحب الظهور، وطلب الرياسة . . ! ! . . فما كان أحد منذ عهد عمـر، قد جـرؤ على مثل هـذه الفتوى، الا فقهـاء الشيعة ،ومامن أحد من أهل السنة في هذا الزمان يأخذ برأي الشيعة!

وأسرع قاضي قضاة الحنابلة الى الشيخ تقي الدين، فنصحه بأن يعدل عن هذا الرأي، فأكد له الشيخ انه على الحق!

وما زال قاضي القضاة بالشيخ حتى عاهده أن يكتم هذا الرأي: ولكنه لن يعدل عنه.. !

غير ان بعض الذين أنكروا الفتوى من العلماء والفقهاء، أرسل الى السلطان في القاهرة، يطلب منه عقاب ابن تيمية على ما ابتدعه، وعلى مخالفة رأي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وسائر السلف الصالح من بعده..

وكان السلطان في القاهرة، قد ارتمى في أحضان الصوفية، وتوثقت علاقته ببعض شيوخ طرقهم، حتى أنه خرج للصيد يوماً، فداهمه ألم في بطنه وهو بالقرب من قرية «سرياقوس»، فصار يتلوى ويصيح، ويتوجع، فنذر لله لئن شفاه من مرضه هذا، ليرضين الصوفية الذين يعرفون أكثر من غيرهم، استقامة الطريق الى الله.. !

فلما شفي، أمر بانشاء دار كبيرة (خانقاه) تسع مائة صوفي، وألحق بها مسجداً، ومطابخ، وحديقة، ومزرعة.. وأمر بأن تقوم هذه المنشآت حيث داهمه المرض، وحيث شفاه الله ببركة رضا الصوفية عنه.

ولم يرض الشيخ عما صنعه السلطان، وتكلم فيه، فبلغ ذلك السلطان، فغضب!..

واذن فقد تغير قلب السلطان على الشيخ!..

أصدر السلطان أمره بمنع الشيخ من هذه الفتوى، وبأن يؤذن في

الناس، أن فتوى الشيخ في الطلاق باطلة باجماع قضاة وفقهاء المذاهب الأربعة . .

كان الشيخ قد عاهد قاضي القضاة الحنابلة سراً بأن يمتنع عن هذه الفتوى، وأنجز وعده . . . ولكن أن يصدر بالمنع أمر سلطاني ، وأن يشهر بصاحب الفتوى على النحو الذي كان حدث ، فهذا أمر آخر! لقد امتنع من تلقاء نفسه، سداً لذرائع الخلاف مع سائر العلماء والفقهاء والقضاة . . أما اليوم فتوقفه عن الفتيا، سيظره كما لو كان رأيه خطأ، أو كأنه مقهور على كتمان شهادة الحق.

وما زالت البيوت ممزقة الشمل، والمضرة واقعة على الزوجات والأطفال، بسبب اقرار الطلاق على النحو الذي ينكره الشيخ .

وأحس أن مسئوليته عن دفع المضرة الواقعة، تضطره الى التمسك بفتواه، والعمل على اقناع القضاة بها، وليس من حق أحد بعد، أن يضطره الى اخفاء الحق، وكتمان الشهادة لله: لا السلطان، ولا القضاة، ولا العلماء، ولا هو نفسه!! . فكتمان كلمة الحق التي تنقذ الناس من بلاء يعمهم، انما هو اقتراف اثم ينتظر منه، وما ينبغي له!

وعاد يفتي برأيه في الطلاق، كلما التقى بالناس. . وفرح خصومه: لقد وقع!! . . خالف السلطان، وما استمد قوته الا من السلطان، ومن تأييد العامة! . .

فلما علم السلطان أن الشيخ يتحدى أوامره، لم يغفرها له، والسلطان منذ عاد الى العرش يكتشف مؤامرات ضده، حتى لقد وجد على فراشه خطاب تهديد بالاغتيال، فلما حقق تبين أن الذي بلغ هو

الذي كتب الخطاب.. وهو صديق له..!

وتخيل السلطان، أن صديقه ابن تيمية ربما كان انضم الى بعض المتآمرين، منذ علم أن الصوفية يظاهرون السلطان.. ثم ان له الآن رأياً في السياسة يريب!!

أصدر السلطان مرسوماً يمنع ابن تيمية من الافتاء، وعزله من التدريس، وسجنه في قلعة دمشق، عقاباً له على عصيان أوامر السلطان!!

ولبث في سجنه نحو خمسة أشهر، وتشفع فيه عدد من أصدقائه من علماء مصر، وفقائها، وأمرائها، وأوضحوا للسلطان، أنه ما كان يريد أن يعصى الأوامر السلطانية، أو يتحداها، أو يحقرها، ولكنه رأي بدا له!..

وما زالوا بالسلطان حتى أفرج عنه، وأعاده الى منصبه..!

وعاد الشيخ الى فتواه في الطلاق، فناظره بعض العلماء أمام الناس، ولاحظ الشيخ عليهم مظاهر الثراء، فقال: «رحم الله ابن دقيق حين قال:

لهم مريحان من جهل وفرط غنى   وعندنا المتعبان الفقر والعدم

واستمر يفتي متحدياً خصومه، مزرياً بهم، ساخراً منهم، فقرروا الخلاص منه، واسقاطه عند العامة، كما أسقطوه عند السلطان.. فما يحميه الآن غير هؤلاء العامة..

بحث خصوم الشيخ في كل ما كتبه، وأفتى به، حتى وجدوا فتوى

بخطه، يحتفظ بها أحد أهل دمشق، تبركاً بخط الشيخ! . .

كان السؤال عن زيارة قبور الأنبياء والصالحين، فأفتى الشيخ: «ان الزيارة للعظة والاعتبار مستحبة، أما القصد لزيارة قبر أحد الصالحين، أو أحد الأنبياء، بعينه، للدعاء عند القبر، فهذا لا يجوز. فهذا الفعل ذريعة الى الشرك والوثنية. قال النبي ﷺ: (اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد. اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد). فلا تشد الرحال لزيارة قبور الصالحين، ولا قبور الأنبياء. وفي الحديث الشريف: (لا تشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى). وقد أجمع الأئمة على عدم مس قبر الرسول، والدعاء عند القبر مستقبلاً القبر غير جائز، فقد كان السلف الصالح يستقبلون في دعائهم القبلة، لا القبر».

وهب الفقهاء والعلماء، يفندون رأيه، ويتهمونه بالابتداع، وبالشذوذ في الفتيا، ومخالفة الاجماع المتواتر منذ قرون. واستمر الانكار عليه عصراً بعد عصر. .

ويرى العالم الجليل المغفور له الشيخ محمد أبو زهرة، أن «خوف الشيخ من أن يؤدي ذلك الى الوثنية، خوف في غير مخاف، لأن الناس كانوا يزورون قبر الرسول الى أوائل القرن الثاني، ثم بتوالي العصور من بعده الى يومنا هذا، ومع ذلك لم ينظر أحد اليه نظرة عبادة أو وثنية. نعم تفرط من العامة عبارات كالتوسل بجاهه، أو الاستشفاع بشفاعته، وهي عبارات لا وثنية فيها. . والسلف الصالح

كانوا يتبركون بزيارة قبره الشريف، ولم يجدوا فيها وثنية، ولا ما يشبهها. . . اننا نخالف ابن تيمية في منعه التبرك بزيارة قبر الرسول. . . فالتبرك ليس هو العبادة بل هو الاستبصار».

أما الحنابلة فأيدوا الشيخ.

وأما العامة، فقد صدمتهم الفتوى! وتساءلوا متعجبين: «ما بال الشيخ الذي وهب حياته كلها للدفاع عن السنة وأحيائها، ما باله وقد اقترب من الخامسة والستين، يمنع «زيارة قبر الرسول، والدعاء عنده؟!» وصدقوا فيه ما أذاعه خصومه، انه لا يحمل للرسول ﷺ، ما ينبغي من الاكبار.

واذ وصل الى السلطان أمر هذه الفتوى، وأمر الاستمرار في فتوى الطلاق، أمر باعتقال الشيخ.

وضع الشيخ في سجن القلعة، «ودخل عليه قاضي القضاة يسأله عن مضمون قوله في مسألة الزيارة، وعما أراد من ذلك. ثم كتب محضراً بما أجاب به ابن تيمية، جاء فيه: (قابلت الجواب عن هذا السؤال المكتوب، على خط ابن تيمية. . والمحز جعله زيارة قبر النبي ﷺ وقبور الأنبياء صلوات الله عليهم. . معصية بالاجماع مقطوعاً بها)».

ويعلق ابن كثير على هذا في أسف: «فانظر الآن هذا التحريف على شيخ الاسلام (يعني ابن تيمية) فان جوابه على هذه المسألة ليس فيه منع قبور الأنبياء والصالحين، وانما فيه ذكر قولين في شد الرحل، والسفر الى مجرد زيارة القبور. وزيارة القبور من غير رحل

اليها مسألة، وشد الرحل لمجرد الزيارة مسألة أخرى. والشيخ لم يمنع الزيارة الخالية من شد الرحل، بل يستحبها وندب اليها، وكتبه تشهد بذلك. ولم يتعرض الى هذه الزيارة على هذا الوجه في الفتيا، ولا قال انها معصية، ولا حكى على المنع منها، ولا هو جاهل قول الرسول: (زوروا القبور فانها تذكركم بالآخرة)..».

وابن كثير، مؤرخ أمين مدقق، ولا بد أن يكون قد اطلع على مخطوطات لابن تيمية، لم يطلع عليها من أنكروا فتواه. وابن تيمية فيما بقي من كتاباته نهى عن الدعاء مستقبلاً القبر الشريف، فهو اذن يقر الزيارة.

نفى ابن كثير الادعاء على ابن تيمية بأنه يمنع الزيارة، بل هو يمنع شد الرحل، من أجل زيارة القبر الشريف فحسب.. فشد الرحل، أي نية السفر والتجهيز له وتحمل مشقاته، يجب أن تكون لزيارة المسجد النبوي الشريف، وتأتي بعد ذلك الزيارة، والتفرقة دقيقة يصعب ادراكها.

ومهما يكن من أمرها، فقد استنفرت فتواه العامة والخاصة على السواء، وجرح هذا الرأي مشاعرهم الدينية العميقة، وحبهم، وتعظيمهم للرسول ﷺ.

واعترت الشوارع حدة.. فقد تحاور الناس في فتواه، فزعم بعضهم أن فيها غضاً من مقام رسول الله ﷺ.

وقال أحد المدافعين: انما هو رأي اجتهد فيه فأخطأ، «والله ما رأيت أحداً أشد تعظيماً لرسول الله منه».

أخليت للشيخ قاعة فسيحة، في قلعة دمشق، وأجرى اليها الماء، وأقام معه أخوه يخدمه باذن السلطان، وأجرى عليه ما يقوم بكفايته.

ولم يكد الشيخ يستقر في محبسه بالقلعة، حتى أصدر قاضي القضاة، حكماً بحبس جميع علماء الحنابلة وتعزيرهم. «وعزر جماعة منهم بالجلد، وجماعة باركابهم على الدواب والمناداة عليهم، وبعد ذلك أطلقوا من محابسهم ما عدا تلميذه وصفيه شمس الدين محمد بن قيم الجوزيه. فانه حبس بالقلعة».

وقد أبدى الشيخ فرحة بالسجن فقال: «أنا كنت منتظراً ذلك. وهذا فيه خير كثير، ومصلحة كبيرة».

وزاره والي دمشق، لما بلغه أنه مرض، وأخذ يعتذر للشيخ، فقال الشيخ: «اني قد احللتك وجميع من عاداني، وهو لا يعلم اني على حق، وأحللت السلطان المعظم الملك الناصر من حبسه اياي، لكونه فعل ذلك مقلداً معذوراً، ولم يفعله لحظ نفسه، وقد أحللت كل أحد مما بيني وبينه، الا من كان عدواً لله ورسوله».

وحمل للشيخ جميع ما طلب من كتب، وأوراق وأقلام.

فعكف على كتبه ينقحها ويحكمها، ويعيد قراءة القرآن ويتأمل فيه، ويقوم ليله متعبداً، قائلاً: «لا تنال الامامة في الدين الا بالفقر والصبر!». وعجب له من سمعه، فهذا كلام شبيه بكلام الصوفية..!

وبدأ يفسر بعض القرآن الكريم، ويفند في عنف آراء مخالفيه في أمور الاعتقاد، ويرسل كتاباته الى أتباعه وأصدقاه خارج السجن،

فيقرؤونها على الناس، ويناظرون فيها. .

وضاق خصومه بهذا، فما جدوى سجن الشيخ، ان كانت آراؤه وكتاباته ما زالت شائعة، يهتم بها الناس؟! . .

وحمل اليه بعض زواره، فتوى للقاضي المالكي في القاهرة، يهاجم فيها رأي الشيخ في زيارة قبر الرسول، فرد الشيخ عليه رداً قاسياً، واتهمه بالجهل والغباء. . !

وذهب القاضي المالكي الى السلطان شاكياً مقالة الشيخ فيه، منكراً السماح للشيخ بالكتابة، وتداول أفكاره، وما سجن الا لحماية العباد من شر هذه الأفكار. . ! فأمر السلطان باخراج ما كان لدى الشيخ من الكتب، والأوراق، والحابر، والأقلام، وكانت نحو ستين مجلداً، وأربع عشرة ربطة كراريس. .

وعلم فقهاء العراق بما جرى للشيخ، فأرسلوا الى السلطان خطاباً يلتمسون فيه العفو عن ابن تيمية، ووقعه فقهاء المذاهب الأربعة جميعاً. . قالوا: «ان اعتقال الشيخ عظم على المسلمين، وشق على ذوي الدين، وارتفعت رؤوس الملحدين، وطابت نفوس أهل الأهواء والمبتدعين. . ولما علم علماء أهل هذه الناحية، من شماتة أهل البدع، وأهل الأهواء بأكابر الفضلاء، وأئمة العلماء، أنهوا حال هذا الامر الفظيع، الى الحضرة الشريفة السلطانية زادها الله شرفاً، وكتبوا تصويب ما أجاب به الشيخ ـ سلمه الله ـ في فتواه، وذكروا من علمه وفضائله بعض ما هو فيه، وحملوا ذلك بين يدي مولانا ملك الأمراء. . .».

ولكن السلطان، لم يجبهم. .

حاول الشيخ أن يتعود الحياة بلا كتابة، ولكنه لم يستطع. . وزلزل زلزالاً شديداً. . !. . ما عرف مثل هذا البلاء من قبل. .

وأصابه الهزال، وسئمت نفسه. . وسلم أمره الى الله، وأخذ يقضي وقته في العبادة، وتلاوة القرآن. .

وذات يوم، أراد أن يكتب بعض خواطره. فسأل السجان ورقاً وقلماً، فقدم اليه السجان قطعة من الفحم، ورقعة صغيرة من الورق. . دسهما اليه فكتب: «نحن ولله الحمد في عظيم الجهاد في سبيله، بل جهادنا في هذا اليوم مثل جهادنا يوم قازان، والجبلية، والاتحادية، وأمثال ذلك، وذلك من أعظم نعم الله علينا وعلى الناس، ولكن أكثر الناس لا يعلمون».

وكتب عن خصومه في رقعة اخرى: «كانوا قد سعوا في الا يظهر من جهة حزب الله ورسوله خطاب ولا كتاب. . . فلم يمكنهم أن يظهروا عيباً علينا في الشرع والدين، بل غاية ما عندهم أنه خولف مرسوم بعض المخلوقين، والمخلوق كائناً من كان، اذا خالف أمر الله تعالى ورسوله، لم يجب، بل لا تجوز طاعته في مخالفة أمر الله ورسوله باتفاق المسلمين».

وتساءل فيما بينه وبين نفسه، ما عساهم يصنعون بمخطوطاته التي استولوا عليها؟! فليست كلها تنقيحاً لكتبه وفتاواه المنشورة، بل أن فيها ما لم يطلع عليه أحد بعد: تفسير بعض الآيات وقصار السور. . وكان الشيخ قد رأى أنه لا ضرورة لتفسير القرآن كله، لأنه رأى منه ما

هو بين بنفسه. . «ومنها ما بينه المفسرون في كتب كثيرة، ولكن في كتاب الله آيات أشكل تفسيرها على العلماء، فقصدت تفسير تلك الآيات بالدليل لانه أهم من غيره، واذا تبين معنى آية، تبين معاني نظرائها».

فسر سورة الأعلى: بأن «الله هو الأعلى بكل ما لهذه الكلمة الجامعة من معنى. ويدخل في معنى كونه الأعلى، أنه متعال عن كل عيب ونقص. وعن اتخاذه شريكاً وولداً له». وهذا رأي لا يعجب الخصوم! عسى الله أن يهدي خصومه الذين يراجعون ما كتبه في التفسير، فلا يشتطون. . !. . لقد فسر القرآن والسنة، وهاجم التفسير بالرأي ومحص التفاسير التي سبقته، فأخذ ببعضها، وطرح البعض، واهتدى بأقوال السلف حتى القرن الثالث ونبه الى بعض الاسرائيليات المدسوسة على التفاسير. . !. .

وفسر سورة الفلق وسورة الناس، وسورة النور آخذاً في تفسيره بمذهب أهل السنة، ورد على من يخالف أهل السنة في أمور الاعتقاد، وبث في هذا التفسير آراءه في العقائد، التي نافح عنها، وعانى في سبيلها طول العمر.

* * *

ظل الشيخ في سجنه نحو عامين ممنوعاً من القراءة، والكتابة، لا يستطيع أن يكتب الا بالفحم على رقع صغيرة من الورق، تهرب اليه. ! واحتفظ التاريخ بهذه الرقع. .

ولكنه لم يحتمل طويلاً وطأة المنع من الكتابة، والتفكير! . .

كان يصبر نفسه بتلاوة القرآن، بصوت خاشع متهدج . .

وفي ليلة الاثنين والعشرين من شهر ذي القعدة عام ٧٦٨ هـ، كان يتلو: ﴿**ان المتقين في جنات ونهر * في مقعد صدق عند مليك مقتدر**﴾.

وفاضت روحه عند هذه الآية . .

وخرجت دمشق كلها برجالها ونسائها وأطفالها، تودعه، وتبكيه أحر البكاء . .

وهكذا صمت الرجل الذي ملأ الحياة من حوله ضجيجاً، وزحاماً، واضطراماً بآرائه واقتحاماته الفكرية . .

وما زال فكره يملأ الحياة من بعده ضجيجاً، واضطراماً . .

وما زال حتى اليوم يحتفظ بضراوة الخصوم، وحماسة الأنصار . . !



فهرس



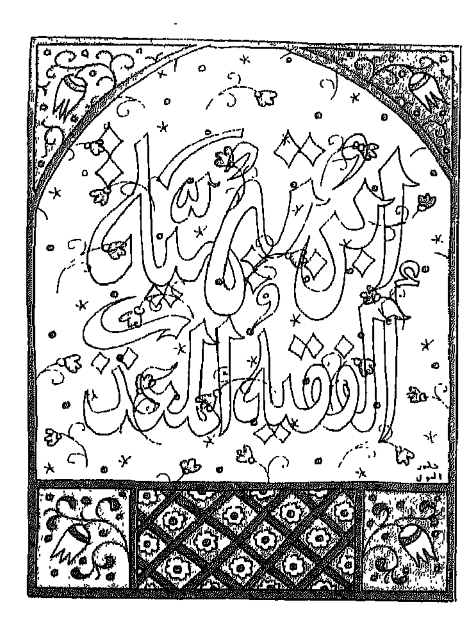
رقم الإيداع : ١٩٥٧ / ١٩٩٠
الترقيم الدولى : ٤ ـ ٤٠٤ ـ ١٤٨ ـ ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني - هاتف: ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤

بيروت: ص . ب: ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٠ - ٨١٧٢١٣





● عاش الفقيه المعذب أحمد تقى الدين بن تيميه حياة منتفضة متوترة من المعارك المتصلة .. حارب فيها بالقلم وباللسان ، وحتى بالسيف نفسه !.

● كانت معاركه لا تنقطع ، وإذا هدأت أثارها هو بنفسه من خلال رأى يخالف به ما ألفه الناس ، أو حملة يشنها على ما يراه بدعة أو مخالفًا للسنة ..

● كان ابن تيميه يشعر فى أغوار نفسه ، إنه يريد أن يهدم كل ما حوله ، ليبنيه من جديد ..

ما جدوى العلم ، والفقه ، وكل الكلمات ، إن لم تستطع أن تنتشل الإنسان ، وتحمى شرف الحياة ؟!.

ما جدوى كل شيء إن كان الذعر يطارد الأمن ، والباطل يغشى الحق بدخان البارود والبهتان ؟

● كان العصر ملئ بالفساد : فالولاة يرتشون ، ويبطشون بمن يقاومهم ، ومن العلماء من ينافقهم ،... ودور اللهو والفساد والخمارات أصبحت أكثر عددًا من المدارس ... وكانت الدولة الاسلامية قد تمزقت إلى دويلات .

وابن تيمية يشعر فى أعماقه بأنه مسئول عن اصلاح كل مظالم ومفاسد عصره .. وأنه سيلقى فى سبيل أداء مهمته بلاءً كثيرًا ، ولكنه كان يدرك أنه بلاء فى الله .

© دار الشروق

القاهرة . ١٦ شارع جواد حسنى ــ هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ ــ ٣٩٣٤٨١٤

بيروت ص . ب : ٨٠٦٤ ــ هاتف ٣١٥٨٥٩ ــ ٨١٧٧٦٥ ــ ٨١٧٢١٣